

# الاستقلال الحضاري

د. محمد حمادة



مصر - القاهرة

# الاستقلال الحضاري

تأليف  
د. محمد عمار



اسم الكتاب: الاستقلال الحضارى.

المؤلف: د. محمد عمارة.

إشراف عام: د. إلياس محمد إبراهيم.

تاريخ النشر: الطبعة الأولى - يناير 2007م.

رقم الإيداع: 22873 / 2006

التسجيل الدولي: ISBN 977-14-3830-1

الإدارة العامة للنشر: 21 ش. أحمد مبراس - المهندسين - الجيزة  
ت: 3466434-3466434 (02) فاكس: 3462576 (02) ص ب 21 إيلياء  
البريد الإلكتروني لإدارة العامة للنشر: Publishing@nahdetmiser.com

الطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر  
ت: 8330287 (02) - 8330289 (02) - فاكس: 8330296 (02)  
البريد الإلكتروني للطابع: Press@nahdetmiser.com

مركز التوزيع الرئيسي: 18 ش. كامل صدقي - الفيديا -  
القاهرة - ص ب 96 الفيديا - القاهرة.  
ت: 5909827 (02) - 5908895 (02) - فاكس: 5903395 (02)

مركز خدمة العملاء الرقم المجاني: 8000222622  
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: Sales@nahdetmiser.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (إرطدى)  
ت: 5462090 (03)  
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عارف  
ت: 2259675 (050)

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmiser.com  
موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1998

احصل على أى من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب/CD)  
وتتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع [www.enahda.com](http://www.enahda.com)

جميع الحقوق محفوظة © لشركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع  
لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أى جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية  
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابى صريح من الناشر.

## كلمة

[إن المقلدين للتمدن الغربى إنما يشوّهون وجه الأمة،  
ويخنيّعون ثروتها، ويحطّون من شأنها.  
إنهم المنافذ لجيوش الغزاة، يمهّدون لهم السبيل، ويفتحون  
لهم الأبواب!!]

جمال الدين الأفغانى

## كلمات

قديم هو ذلك الصراع بين أمتنا وبين الغرب الاستعماري..  
■ فالقهر البيزنطى حلقة قديمة فى سلسلته.

\* \* \*

■ والحروب الصليبية قد مثلت حلقة الوسيطة..  
■ والغزوة الاستعمارية الحديثة هى ذروة هذا التحدى  
التارىخى والحضارى الذى استهدف - ولا يزال - كيان أمتنا  
وذايتها وإمكاناتها..  
■ وريب هذه الغزوة الحديثة: الكيان العنصرى الصهيونى..  
هو الشريك الأصغر فى التحدى المعاصر الذى هو امتداد لهذا  
الصراع القديم!!

\* \* \*



ولقد تميزت المراحل القديمة فى هذا الصراع الحضارى بوضوح الرؤية لدى أمتنا إزاء هذا الغرب الاستعمارى الذى ما فتئ يقذفنا بحملات الغزو ومحاولات الإبادة وموجات النهب والاحتواء.

لكن الأمر لم يعد كذلك فى ظروف صراع أمتنا ضد الغزوة الاستعمارية الحديثة، لا لخفاء أهدافها وغموض نواياها، وإنما لما حملت معها من «فكر» كانت أمتنا فى حاجة إلى كثير منه كى تنهض وتعوض ما فاتها فى حقب الجمود والتخلف التى حكمها فيها وتحكم فرسان الممالك وسلاطين آل عثمان.. ولما تضمنه هذا «الفكر» من جوانب مثلت «عوامل استلاب» حاول بها الغرب الاستعمارى -ولا يزال- اختواء أمتنا، وطمس معالم تمايزها واستقلالها، وتشويه معرفتها بذاتيتها.. وصولاً إلى تجريدها من طاقات الثورة فى سبيل النهضة والاستقلال!

ولذلك وجدنا -ونجد- «الموقف من الغرب».. قضية من قضايانا الفكرية الخلاقية.. على عكس ما كان عليه موقف أسلافنا الذين واجهوا هذا الغرب تحت أعلام الفتوحات العربية الإسلامية.. ومن خلف أبطالنا القوميين الذين مثل نموذجهم: الناصر صلاح الدين الأيوبي.. واجهوه بتمايز كامل وواضح فى المواقع والمواقف، بلغ مرتبة تمايز «الكفر» عن «الإيمان».

بل إن خلاف حركتنا الفكرية حول الموقف من الحضارة الغربية كاد أن يصبح ثغرة عظمى تجعل بأس مفكرينا ومتفقينا بينهم شديداً، الأمر الذى يصيب طاقاتنا الفكرية بنزيف يسلم إلى الضعف والهزال! فبينما نجد:

■ «سلفية نصوصية» تسعى إلى معاكسة قوانين التطور، التي هي سنة من سنن الله في الكون والمجتمع، وتجاهد لصب الحاضر والمستقبل في القوالب التي صنعها «سلفها الصالح» في عصور الجمود والتخلف تحت حكم الممالك وتحكم العثمانيين!!

■ نجد «سلفية نصوصية» «متغربة».. تسعى هي كذلك لصب حاضرنأ ومستقبلنا في القوالب التي صنعها «السلف الغربي».. بدءاً من اليونان القدماء، وحتى نهضة الأوربيين المحدثين!

وإذا كان الخيار الأول سيقودنا إلى «انغلاق» يقف بأمتنا عند «التخلف الموروث» الأمر الذي سيعجزها عن تقديم البديل وإبداع المشروع الحضاري الكافل لنهضتها وإفلاتها من قبضة الهيمنة الغربية.. فإن الخيار الثاني سيقود الأمة إلى «التبعية» للمركز الحضاري الغربي، وهي تبعية يسعى إليها الغرب ويسمح بها شريطة ألا تتعدى إطار سلبيات وأمراض نموذج الحضاري، الذي كاد أن يبلغ نهاية الطريق المسدود!

ولأننا نرفض الاستسلام لأي من هذين الخيارين.. كانت صفحات هذا الكتاب الساعي إلى التبشير بطريق ثالث ومتميز في هذا الصراع الدائر حول الموقف من الحضارة الغربية.

■ طريق التمييز - في موروثنا - بين «الثوابت» وبين «المتغيرات».

■ طريق النضال من أجل الحفاظ على نقاء الهوية الحضارية للأمة، في وجه محاولات المسخ والنسخ والتشويه الذي تمارسه فكرية «التغريب» وتيار «المتغربين».

■ طريق فتح نوافذ العقل على مختلف الحضارات، من موقع الراشد المستقل، الباحث عن عوامل القوة، يدعم بها ذاتيته المتميزة ونهضته الحضارية المستقلة.. والرافض لكل عوامل الاستلاب لشخصيته القومية وللسمات التي ميزت حضارة أمته عبر قرون تاريخها الطويل والمجيد.

تلك هي الرسالة التي تحاول الوفاء بها صفحات هذا الكتاب عندما تعالج هذه القضية المحورية من خلال دراسات ثلاث، تمثل أقسامًا ثلاثة في هذا الكتاب:

١- الاستقلال الحضارى.. وماذا يعنى فى النهضة المنشودة لامتنا..؟

٢- العلاقة بين «موروثنا» العربى الإسلامى وبين «الوافد» العربى.

٣- نموذج تطبقى لهذه العلاقة، من خلال دراسة موقف واحدة من أعرق مؤسساتنا الفكرية والتعليمية [الأزهر] موقفه من «التغريب».

فإذا نهضت هذه الصفحات برسالتها، فحملت ما قصدنا إليه إلى الباحثين والقراء كانت سعادة الكاتب الذى يحمل هموم أمته، ويتناضل لتنوير طلابها بمخاطر التحديات التى يفرضها عليها أعداؤها الكثيرون!

والله من وراء القصد.. وهو ولى التوفيق.

د . محمد عمارة



---

## الاستقلال الحضارى

---



### ... مقدمات تمهيدية ...

منذ بدء الهجمة الاستعمارية الحديثة على ديار العروبة والإسلام، وضحت نوايا وأهداف هذه الموجة من موجات التحدي، وتميزت عن غيرها من الموجات التي ابتليت بها أمتنا عبر تاريخها الطويل..

فهي لا تبغى فقط السيطرة على طرق التجارة الدولية.. ولا تقنع بالنهب الاقتصادي الاستعماري.. ولا تكتفى بتفتيت وطن أمتنا، لتحول دون وحدتها، فقوتها، فنهوضها.. ولا تقف أطماعها عند تحويل شرقنا العربي والإسلامي إلى «هامش أمن» للغرب الأوربي.. لا تكتفى هذه الهجمة الاستعمارية بكل ذلك.. بل إنها في سبيل تأييد جميع ذلك وتأييده وتكريسه، سعت وتسعى إلى سحق شخصيتنا القومية الخاصة، ومسح هويتنا الحضارية المتميزة، والحيلولة بين أمتنا وبين استعادة قسماة استقلالها الحضاري المفقود.. ورأت في تحويلنا إلى «هامش حضاري» للغرب الضمان لبقائنا «هامشا» له في الأمن والاقتصاد!

ومن هنا، وبسبب هذه الأهداف الاستعمارية تنوعت أسلحة الصراع، وتعددت ميادينه، فشملت ساحات: «الفكر» و«المادة»..

وخاضه: «المفكرون» و«العامة».. واستنفر «العلماء» و«الجند»..  
واحْتَاج إلى «القلم» و«السيف» عبر تاريخه الطويل!

ولقد استعان الاستعمار، فى صراعه مع أمتنا على الجبهة  
الحضارية، بعوامل كثيرة تدخل فى عداد «حيل الخداع  
والتمويه» النابعة من «غرور المنتصرين واستعلانهم على  
المهزومين»!

فهو قد جاء إلى بلادنا فعاجل الصحوة التى حاولنا بها  
الإفلات من ظلام العصر «المملوكى - العثمانى» وقبوده، واليقظة  
من سبات ليله البهيم والطويل.. صحوة النهضة المصرية التى  
قادها، بمصر والشرق، محمد على باشا الكبير [١١٨٤ - ١٢٦٥هـ  
= ١٧٧٠ - ١٨٤٩م].. وصحوة الثورة العربية [١٢٩٨ -  
١٢٩٩هـ = ١٨٨١ - ١٨٨٢م] التى طمحت إلى محو آثار الهجمة  
الاستعمارية على نهضة محمد على بعد سنة ١٨٤٠م!

وكانت حركة الاستشراق، فى مجملها وأغلبيتها، طليعة هذا  
الزحف الاستعمارى على جبهتنا الحضارية العربية الإسلامية..  
وكانت هذه الحركة الاستشراقية أعلم منا، يومئذ، بتراثنا  
الحضارى، فألحت على عقل أمتنا ووجدانها بالمقولة التى تزعم  
أننا أمة غير متميزة حضارياً، فتراثنا العربى - كما قالت - فقير  
فى الخلق والإضافة والإبداع، وعقلنا العربى عاجز عن التفلسف  
والفكر المركب، وليس لأسلافنا غير فضل النقل والحفظ لتراث  
اليونان، والمحاكاة لتراث الفرس والهند!

ولم يكن هدف هذه المقولة الاستشراقية هو فقط تثبيت الهمة وفل العزيمة، وخفض الهامة، وكسر العود، وإذلال النفس العربية الإسلامية.. بل كان الهدف أبعد من ذلك وأكثر وأخطر.. كان الهدف: استخدام كل ذلك للوصول إلى مقولة ثانية تزعم أن التمايز الحضارى، ومن ثم الاستقلال الحضارى هو فى الأساس ومن حيث المبدأ مجرد أكلوبة، لم يعرفها التراث ولم يشهدا التاريخ، ومن ثم فلا جدوى من جعله هدفاً لنضالات الحاضر والمستقبل.. فالحضارة واحدة.. وهذه الحضارة الواحدة هى الحضارة «الإنسانية».. كانت قديماً يونانية.. ثم «نقلها» العرب والمسلمون إلى الأوربيين الذين أسسوا عليها حضارتهم الحديثة التى هى حضارة العصر «الإنسانية» الوحيدة.. فأوروبا هى «المركز».. كانت كذلك قديماً وأيضاً فى الحديث.

ومن ثم.. فما على الذين يريدون أن «يتحضرُوا» إلا السعى إلى اللحاق بهذه الحضارة الأوربية الغربية: بجعل «عقلهم» و«واقعهم» امتداداً «لعقل» أوروبا و«واقعها».. وباختصار، جعل بلادهم قطعة من أوروبا.. كما نُسب إلى الخديو إسماعيل [١٢٤٥ - ١٣١٢ هـ = ١٨٣٠ - ١٨٩٥ م]. زوراً وبهتاناً!

فالقضية، فى نظر أصحاب هذه المقولة، هى: «التخلف» فى جانبنا، يقابله «التقدم» فى جانبهم.. وليست «التبعية» التى تفرضها علينا «سيطرتهم» الاستعمارية:

وما لدينا من «قيم» و «روى» و «تصورات»، بل «معتقدات»، زعموه داخلاً فى نطاق «التخلف» الذى يجب التخلي عنه،

واستبدال ما عندهم من بدائل «متقدمة» به! وأدخلوا في ذلك أيضاً ما تميز به شعبنا من أنماط خاصة في تنمية واقعهم المادي، وما اختص به من أساليب في العيش، وما اعتاد من عادات وتقاليد لقد أطلقوا وصف «الأسطورة» على جميع ما لدينا، ووصف «العقل» على جميع ما لديهم.. وطلبوا منا الهجرة من «الذات»، والانسلاخ عن «المميزات»!

لقد أرادوا لأمتنا الانسلاخ عن جوهرها! وسموا هذا الانسلاخ «تحضراً» و«تحديثاً»: لأنهم رأوا - بتجربتهم وذكاانهم - أن هذا الجوهر الذي يميز هذه الأمة، هو «قوة الطرد المركزية» التي ستحرك الأمة في اتجاه الاستقلال الحقيقي والتحرر من سيطرة الاستعمار!

ولما كانت حضارة هؤلاء الغزاة هي حضارة الغارزى المنتصر، فلقد وجدت مقولاتهم هذه في صفوف أمتنا من يزين صورتها وبييض وجهها ويفتح لها في عقل الأمة النوافذ والأبواب والشغرات، ويمهد لها الأرض في الأفئدة والقلوب، ويزيل من طريقها العقبات! فكان أن تبلور في حركتنا الفكرية ما عرف بـ«تيار التغريب»، ذلك الذي تقدم أعلامه وأنصاره إلى الأمة بوصفهم فرسان الإنقاذ والتحرر من أصفاء عصر المماليك والعثمانيين.

ولقد خيل للناس - حيناً من الدهر - أنه لا بديل عن «جمود» العصور المظلمة - «المملوكية» - «العثمانية» - إلا الانخراط في موكب الساعين إلى أن نكون «غرباً» في الحضارة.. وأن التجديد واليقظة والإحياء، عن غير هذا الطريق، مستحيل.. مستحيل!



ولقد ساعد على ازدهار هذا التصور والتصوير ما كانت عليه المؤسسات والتيارات التي احتكرت لنفسها حق الحديث عن التراث وباسم «السلف الصالح»؛ فلقد كان تراث هذه المؤسسات مثقلاً بالخرافة والشعوذة، قد تجمد فتحلل، وتجاوزته الظروف وتخطته الملايسات، وأضحى بالياً كأنه أكفان الموتى؛ لأنه لم يكن إبداع الأمة، ولا عبقرية الأسلاف العظام. وإنما كان «حكايات» عصر جمود هذه الأمة وتخلّفها، وتطبيقات سلفها الذي لم يكن صالحاً!

فكان جمود هذه المؤسسات ونوعية «تراثها» مما يزيّن ويغري بسلوك طريق «التغريب»!

لكن أصالة هذه الأمة الحضارية، وعوامل «الصحة» المستكنة في كيائها الحضارى قد استنفرتها هذا المأزق الذى وضعت فيه شعوبها عندما هجم عليها الاستعمار، فكان أن برز الموقف الثالث، والتيار الثالث.. تيار «التجدد الذاتى» الذى يمد جسور التواصل الحضارى مع كل حضارات الأمم الأخرى، ليؤثر، ويتأثر، وليتفاعل، وليأخذ ويعطى، من موقع الراشد المتميز، الذى لا يفقده التواصل الحضارى ما له من تميز واستقلال.. كما لا يدخله هذا «التميز والاستقلال» فى «عالم الجمود» و«مقبرة المتجمدين» الذين يقتلهم الانغلاق والاستعلاء!

ومنذ نشأة تيار «التجدد والتجديد» هذا، تصارعت على الساحة الفكرية لأمتنا هذه التيارات الثلاث:

## ١- تيار الجمود:

ذلك الذى استعصم بفكرية العصور الوسطى واعتصم.. بعد أن أضفى على هذه الفكرية التى جسدت عصر تخلفنا الحضارى قداسة الدين وقديسيته! ولقد تمثل تيار «الجمود» هذا فى المؤسسات التقليدية العريقة - إلا قليلاً من أعلامها - تمثل فى عدد من شيوخ الأزهر، والزيتونة، وفى قوم زعموا أنهم «مجتهدون»، رغم تسليمهم واستسلامهم لأساطير تراثية ظلت تفعل فعلها فى تقسيم المسلمين إلى «شيعية» و «سنة»! وكذلك تمثل تيار «الجمود» هذا فى تنظيمات «الطرق الصوفية» التى غرقت فى البدع والخرافات والرسوم، وانقطعت صلاتها «بالتصوف الحق»، سواء أكان «عقلانياً» أم «شرعياً» تهذيبياً!

وخلف هذا التيار سارت «العامة»، لتمثيله «الاستمرار»، ورفضه «التغيير»، وحفاظه على «المألوف» وهبوط تصوراته العقائدية إلى مستوى تصورات «العامة» و «الجمهور»!

## ٢- تيار التغريب:

ذلك الذى انبهر أهله بتألق الحضارة الأوربية وإنجازاتها وانتصاراتها، خصوصاً عندما قارنوا بينها وبين النموذج «الحضارى» الذى يستمسك به تيار «الجمود»، بعد أن حسبوا - لجهلهم بتراثهم الحضارى - أن تصور أهل «الجمود» هذا هو حقيقة تراث أمتنا الحضارى! فدفعتهم هذه المقارنة إلى إدارة الظهر للتراث، وتولية الوجه والعقل والقلب إلى الحضارة

الأوربية، مصدقين زعم الأوربيين أن حضارتهم هذه هي «الإنسانية»، ومن ثم «الوحيدة» في العصر، وأن على من يريد التحضر أن يلحق بها، ويذوب فيها، وينطبع بقسماتها وسماتها، فيفكر كما يفكر الأوربيون، ويحيا كما يحيون، ويتمثلهم في «المقاصد» و«الأدوات» على السواء!

ولقد تمثل تيار «التغريب» هذا -أساساً- في الأعلام الذين «قلدوا» الغرب، بعد أن درسوا حضارته، سواء منهم من درسها في عواصمها أو في المؤسسات التعليمية التي نشأت في بلادنا على نمط مثيلاتها في الغرب فلسفةً ومنهجاً: وسار خلف هذا التيار فريق من أبناء الأمة، أعانهم الاستعمار على الإمساك بزمام التوجيه في «المدرسة» و«الجامعة» و«الصحيفة» و«المنتدى» وكل أدوات التوجيه ومؤسسات «التحديث»!!

### ٣- تيار «التجديد»

ذلك الذي أبصر أعلامه العلاقة بين تيارى «الجمود» و«التغريب»، فأهل «الجمود» يقيمون الدليل - وإن يكن كاذباً - على عدم صلاحية موارثنا كي تنهض بحاضرنا، على النحو الذى يضمن للأمة مواجهة ما تواجه من تحديات، الأمر الذى يدفع فريق «التغريب» وتياره إلى التماس التحضر وقوته وعافيته لدى من فرضوا على الأمة هذه التحديات، مع إغفال الغريقين لجوهر تراثنا الحضارى الخلاق الذى مثل ويمثل صفحات ازدهار الحضارى لأمتنا العربية الإسلامية، والصالح

كى يمثل الرزاد الذى تتزود به الأمة وهى تصنع حاضرها  
الراهن.. وتخطو نحو المستقبل المنشود!

ولقد تمثل تيار «التجديد» هذا فى الأعلام الذين استوعبوا  
تراث الأمة، ثم لم يحبسوا عقولهم فى تيار من التيارات القديمة  
التي فرقت، بالتعصب، صفوفها! كما لم يدفعهم استيعابهم  
للتراث إلى الغرق فى القضايا القديمة التي شغلت الأولين  
بالجدل، والتي تجاوزها العصر: لأنهم رفضوا- إيماناً منهم  
بقانون التطور- إمكانية إعادة الحاضر أو المستقبل كى يُصَبَّ  
أى منهما فى قوالب التجارب التي صنعها الأسلاف.. ثم إنهم لم  
يغلقوا عقولهم دون التيارات الحضارية الأخرى، والتجارب  
الإنسانية التي ازدهرت وتزدهر خلف حدود العروبة والإسلام،  
ودون الموارث الحضارية غير العربية الإسلامية.. قرأوا:

■ الانطلاق من تراث الأمة باعتباره طاقة تشحن أبناءها  
بـ«الكبرياء المشروعة» التي تعينها على مواجهة التحديات  
المعاصرة، وإنجاز مشروعاتها الحضارى الخاص.

■ المحافظة على القسمات والسمات التي تمثل «البصمات»  
الثابتة فى شخصية هذه الأمة وحضارتها.. وخاصة ما كان  
منها «دينياً» وضعه الله.. أو «روحاً حضارياً» تميزت به هذه  
الأمة عن غيرها من أمم الحضارات الغنية والعريقة.

■ التفاعل مع الحضارات الأخرى والإفادة منها، دون تقليد  
يُمسَخ شخصيتنا الحضارية.. وإنما بـ«تمثل» الراشد ذى الموقف  
المتميز والخاص!



لكن تيار «التجديد» هذا قد ظل حبيس «الصفوة» التي امتلكت زمام «الأصالة» و«المعاصرة» مغا. ووازنت بينهما موازنة عادلة وخلاقة. وساعد على حبسه في هذا الإطار أنه قد حوَصِر وتلقى الطعن من تيارى «التغريب» و«الجمود» كليهما. لما مثله من خطر حقيقى على غاياتهما ووسائلهما جميعاً

\* \* \*

غير أن تيار «التجديد والتجدد الذاتى» هذا لم يكن «فصيلاً» واحدة متحدة فى طول يلدنا العربية وعالمنا الإسلامى، فلقد تميزت فيه «الفصائل» وتعددت «الحركات» وتنوعت «الدعوات»؛ بسبب ما بين أقاليم عالمنا العربى وأمتنا الإسلامية من تفاوت فى مراتب الحضرة، وتنوع فى مستوى التحديات التى تواجه هذه الأقاليم، واختلاف فى المكونات الفكرية التى لونت مسار الدعاة والرواد فى هذه الفصائل والحركات والدعوات.

لكن الحديث عن «فصائل» هذا التيار، وعن علاقته باستقلال أمتنا الحضارى، يستدعى أن نقدم بين يديه «مقدمات تمهيدية» لا غنى عنها لوعى كنه هذا التيار، وما يمثله لأمتنا من طوق نجاة مما يواجهها من تحديات!

■ وأولى هذه المقدمات يتطلبها عنوان هذا الكتاب:

ذلك أننا ممن يؤمنون بأن حضارتنا هى: «عربية- إسلامية».. فهى حضارة أمتنا التى هى عربية قومياً.. وهى إسلامية: لأن «الإسلام الحضارى» يمثل فكرتها

«أيديولوجيتها» المتميزة.. فالإسلام الحضارى هو الرسالة الخالدة لأمتنا العربية الواحدة، يستوى فى ذلك أبناؤها الذين يتدينون بـ«الإسلام الدين»، وأولئك الذين يتدينون بـ«دين التوحيد»، سالكين إلى هذا الدين شرائع ومناهج أخرى لرسول آخرين سبقوا محمدًا ﷺ على درب علاقة السماء بالإنسان!

ثم إنها «عربية - إسلامية»، لما لأمتنا العربية من دور قائد فى نشر «الإسلام الدين» والقيام على تجديده، وفى قيادة الأمم الإسلامية لمواجهة ما يفرضه عليها الأعداء من تحديات.. تلك كانت مهمتها تاريخيًا، ولا تزال قائمة، بل وقدرًا من أقدارها، فى عصرنا الحديث!

■ وثانى هذه المقدمات يتطلبها العنوان أيضًا، فهو يعنى أنه قد كانت لأمتنا العربية الإسلامية حضارة متميزة ومستقلة عن حضارات متميزة لأمم أخرى، ثم فقدت أمتنا هذا الاستقلال الحضارى، وغابت عن ساحتها، وغامت فى أعين فريق من أبنائها تلك القسامات الحضارية الخاصة التى أكسبت حضارتها ذلك التميز وهذا الاستقلال.. ثم جاءت هذه الدعوات والحركات الإصلاحية والتيارات التجديدية - التى سنتحدث عنها - فى العصر الحديث لتحاول استعادة هذا الاستقلال الحضارى لأمتنا، بالكشف عن قسامات تمايزها الحضارى، وبلورة هذه القسامات أو تطويرها.

■ أما المقدمة الثالثة، فإنها تجيب عن سؤال تطرحه ليقول:

هذه الحضارة المتميزة، ما قسماتها الرئيسية التي تميزها، فتجعلها مستقلة، أو متميزة عن غيرها من الحضارات التي كانت عين هذه الدعوات والحركات التجديدية عليها وهي تسعى نحو هذا الاستقلال الحضارى فى عصرنا الحديث؟

ونحن إذا شئنا «تكثيف» الإجابة عن هذا السؤال. أمكننا ذلك إذا نحن قلنا: إن حضارتنا هي «حضارة التوحيد»..

فلو تخيل المرء أن كل أمة من الأمم العريقة، ذات الحضارات المتميزة، قد «صاغت وسكت» لحضارتها «عُملة» تميزها.. وصنعت ذلك أمتنا، كانت «عُمَلَتِها» التي تميز حضارتها مزدانة برمز «التوحيد» على وجهيها «التوحيد الدينى» على أحد وجهي «العُملة».. و «التوحيد القومى» على وجهها الآخر.. والصلات بينهما، والتفاعل جاعلها وجهين لعملة واحدة، ترمز لحضارتنا العربية الإسلامية.. حضارة التوحيد!

ففى «التوحيد الدينى»: فلسفة هذه الأمة، بمعنى «تصورها للكون».. حتى لقد سمى العلم الذى جسد إبداعها الفلسفى - وهو «علم الكلام» - بعلم «التوحيد».. وهى بهذا التصور التوحيدي للكون قد أقصحت عن أهم ما يميز حضارتها من قسمات، ألا وهى: «قسمة التوازن والموازنة» بين المتقابلات والمتناقضات. واتخاذ الموقف الوسطى العادل الذى يؤلف بين ما يحسبه آخرون، فى حضارات أخرى، غير قابل للتأليف.. بل والمؤاخاة

بين هذه المتقابلات، بنظرة شمولية تثمر «الموقف الثالث»،  
«الوسطى» - بمعنى العادل - والرافض لكلا الموقفين  
المتطرفين الباطلين: لأن كلا منهما قد جاء ثمرة للنظرة الوحيدة  
الجانب - الجزئية - القاصرة - التي لم تبصر سوى قطب واحد  
من أقطاب ظواهر هذا الكون:

«فالنظرة التوحيدية للكون» هي التي وازنت وألفت وأخت بين  
«التوحيد الدينى» الذى يعنى وجود الفاعل الأول والسبب الأول  
فى هذا الكون: الله سبحانه وتعالى.. وبين ما فى «الطبيعة  
والطوائع» من خصائص ذاتية تجعلها فاعلة لأفعال ومسببة  
لأسباب!

وهي التي وازنت بين «التوحيد الدينى» الذى يقطع بأن العالم  
هو خلق الله.. وبين تصور هذا العالم قديماً، وفق مقولة فلاسفة  
الإسلام وأغلب متكلميهِ: إن فعل القديم قديم! فلم تشهد حضارتنا  
ذلك الانقسام الذى جعل القائلين بقدم العالم «ماديين»،  
والقائلين بالخلق الإلهي: «مثاليين» - كما حدث فى التراث  
الفلسفى للحضارة الأوربية، وفى إبداعها الفلسفى الحديث -.. بل  
لقد بلورت حضارتنا ما يمكن أن يسمى: «المادية - المؤمنة»!  
وكان فلاسفتها وأغلب متكلميها: «ماديين - مؤمنين»! يؤمنون  
بالله الخالق للطبيعة [الخلقة] وفى ذات الوقت يعطون للطبيعة  
وقوانينها ما لها من فعل وتأثير!

وهذا «التوحيد الدينى».. هو الذى طبع حضارتنا بطابع  
الصوازنة والتوازن بين: «الإنسان» وبين «الكون المحيط».



فانتفت - بهذه الموازنة - أسباب «الغربة» وعوامل «الاعتراب» بين: «الفرد» وبين «المجتمع والمجموع».. وبين : «الدين» وبين «الدولة»، فبرزت هذه الحضارة من القائلين «بالمقدس» قال الكهانة والسلطة الدينية.. ومن القائلين «بالطبيعي» «فالعلمانية»، و«فصل» الدين عن الدولة والمجتمع.. واتخذت لنفسها مكاناً وسطاً - لا يعرف هذه الثنائية - يستلهم من «الدين» فلسفة نظم «الدولة»، على حين يصبح العقل الإنساني والتجربة الإنسانية ومصلحة الأمة هي المبدعة والحاكمة في هذه النظم المتطورة أبداً.. فكان «التمييز» بين الدين والدولة، لا «الوحدة» ولا «الانفصام والفصل» هو موقفها الذي تميزت به عن حضارات الآخرين!

كذلك كانت الموازنة بين «الدنيا» وبين «الآخرة» على النحو الذي رغضت فيه وبه حضارتنا الإغراق في الماديات.. وأيضاً رغضت الرهبنة والانقطاع للنسك.. فجعلت «الآخرة» مؤسسة على «الدنيا»، وقالت إن صلاح الدنيا وعمارتها شرط لصلاح الدين وإقامته.. وبلغت في ذلك إلى الحد الذي جعلت فيه تحقيق الله لعباده احتياجاتهم المادية والأمن في الحياة هو المبرر المستوجب عبادتهم إياه! ﴿لَا يُلَاقِي فُرُشًا ۚ ۱۱﴾ إيلافهم رحلة الشتاء والصيف (٢١) فليعبدوا ربَّ هذا البيت (٣١) الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف (٤١).

وما الدين إلا أن تقام شعائر

وتؤمن شبل بيننا وهصاب!

كما يقول شاعر الإسلام حسان بن ثابت [٥٤هـ - ٦٧٤م].

وهذه الحقيقة هي التي يعبر عنها الإمام الغزالي [٤٥٠ - ٥٠٥هـ -

١٠٥٨ - ١١١١م] عندما يقول:

«إن نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا.. فنظام الدين بالمعرفة والعبادة. لا يتوصل إليهما إلا بصحة البدن وبقاء الحياة وسلامة قدر الحاجات. من الكسوة والمسكن والأقوات والأمن.. فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية. وإلا فمن كان جميع أوقاته مستغرقاً بحراسة نفسه من سيوف الظلمة. وطلب قوته من وجوه الغلبة. متى يفرغ للعلم والعمل. وهما وسيلته إلى سعادة الآخرة؟ فإذا: إن نظام الدنيا - أعني مقادير الحاجة - شرط لنظام الدين»<sup>(١)</sup>.

وهذا «التوحيد الديني» هو الذي وازن بين «العقل» وبين «النقل والوحي». فلم تشهد في حضارتنا الانحياز لأحدهما. رفضاً للآخر - على الأقل عند جمهرة تياراتنا الفكرية - بل شهدنا كيف كان «العقل» هو السبيل لإدراك الألوهية. واليقين بها. وكيف كان مع الكتاب والسنة. سبل الاستدلال في الدين. الأمر الذي جعل الفلسفة تتدين. على حين قد تفلسف الدين!

وهذا «التوحيد الديني».. قد وازن، أيضاً، بين «الثواب الدينية» التي اكتمل بها أمر «العقائد الدينية والعبادات».. والتي مثلت في شئون الدنيا «أطراً، وغايات ومقاصد. ومثلاً علياً، وكليات، وفلسفات».. وازن بين هذه «الثواب الدينية» وبين «المتغيرات الدنيوية» التي اختص بها العقل

(١) [الاقتصاد في الاعتقاد] ص ١٣٥ - طبعة القاهرة - صبيح - بدون تاريخ.

الإنساني. يدع فيها. خلقاً وتطوراً. وفق المصلحة. وفي ضوء ثوابت الدين وأطره وكتلياته: تحقيقاً لمقاصد الشريعة التي تمثل مصلحة الأمة جمعاء وسداها ولحماتها!

وهذا «التوحيد الديني» هو الذي علمنا أن الشريعة المنزلة ليست فقط «الكتاب» بل ومعد «الميزان» الذي هو «القياس والعدل. والشريعة العادلة عندما توضع في الممارسة والتطبيق...» «فالعدل» مع «الإيمان»: جناحان يطير بهما المجتمع المسلم طياراً متوازناً ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾<sup>(١)</sup> ﴿وَقُلْ آمَنَّا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْنَا لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾<sup>(٢)</sup>.

هكذا. وعلى هذا النحو كان أثر «التوحيد الديني» كجماع لفلسفة الإنسان المسلم. «وكعُدسة» لأمة وجامعة يرى منها الكون، ويتصور على هديها الوجود المادي والاجتماعي والإنساني.

وهكذا كان هذا الوجه من وجهي «عملة» حضارتنا العربية الإسلامية!

\* \* \*

أما الوجه الآخر لهذه «العملة الحضارية»، فهو «التوحيد القومي»! ذلك أن وثنية العرب في الجاهلية - بما كانت تعني من تعدد الآلهة في القبائل - كانت تغذى وتجسد غياب وحدة الهوية لهذه القبائل العربية، فجاء «التوحيد الديني»: ليوحد هويتها في

(١) الشورى: ١٧

(٢) الشورى: ١٥

«الدين»، وليسهم في وحدة هذه الهوية في «القومية والدولة»، ومن هنا كانت العروة الوثقى بين «التوحيد الديني» و«التوحيد القومي»، وكان مكان أحدهما من الآخر هو مكان وجه العملة الأول من وجهها الثاني: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾<sup>(١)</sup>، ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾<sup>(٢)</sup>، فأثر هذا «التوحيد الديني» في «التوحيد القومي» هو - كما يقول القرآن الكريم - آية من آيات الله، ومعجزة من معجزات الإسلام! ولقد سارت الجماعة العربية على هذا الدرب، فتوحدت القبائل في «كل قومي واحد»، أصبحت «الدولة» العربية الإسلامية إطاره وأداته، وبلغ من ارتباط «التوحيد القومي» بـ«التوحيد الديني» إلى الحد الذي اعتبرت فيه وحدة «الدولة المدنية» حقاً تقتضيه فريضة «الزكاة الدينية»، فكان قتال خلافة أبي بكر الصديق [٥١ ق.هـ - ١٣ هـ = ٥٧٣ - ٦٣٤ م] لمن «ارتدوا» عن وحدة الدولة القومية، رغم إيمانهم بأصول الدين؛ لأن «وحدة الدولة» القومية غدت حقاً من حقوق شهادة «التوحيد الديني»: لا إله إلا الله!

(١) آل عمران: ١٠٣

(٢) الأنفال: ٦٣

وبعد عصر الفتوحات كان «الاستعراب» القومي - لساناً [لغة] وثقافة وحضارة - السبيل لاتساع دائرة الأمة القومية. فامتزجت «القبائل» بـ «الشعوب»، واحتضن «الإسلام» «المواريث الحضارية» لهذه الشعوب، فكانت الأمة الواحدة، والحضارة الواحدة الجديدة.. تبلورت الأمة بالاستعراب، وتبلورت الحضارة في عصر التدوين.

ولقد تميزت هذه العملية التوحيدية القومية بما تميزت به حضارتنا من «الموازنة والتوازن» بين المتقابلات والمتناقضات، فاتخذت الموقف «الوسطى والعاقل» موقف «الشاهد» على المواريث الحضارية القديمة الذي يعدل في الحكم على صلاحيتها كي تدخل في نسيج الحضارة المستقبلية ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾<sup>(١)</sup>. كذلك اتخذت هذه العملية التوحيدية القومية هذا الموقف «الوسطى العاقل» عندما وازنت بين «المواريث الحضارية غير العربية»، وبين «كليات الإسلام» المتعلقة بـ «الدنيا»، فبلورت منهما «الإسلام الحضارى».. وعندها وازنت بين «قضايا» مختلف الجماعات والشعوب والأمم التي أدخلها الفتح في إطار الدولة الجديدة، فصنعت من كل هذه الفضائل قسمة في الحضارة الشابة، تتميز بها الأمة الوليدة. رافضة قطبي التطرف والصراع عصبية العرب الجاهلية العرقية.. وتعصب الشعوبية ضد كل ما هو عريب.. وهى، أيضاً، قد وازنت بين «مركزية» «دولة الخلافة»

(١) البقرة: ١٤٣



وبين ازدهار «الولايات» وتنوع المحليات والأقاليم، فكان  
الإسهام المتعدد والمتنوع فى البناء الحضارى العام والعظيم  
ولقد كان المنهج الذى صاغته الأمة وأبدعه عقلها طريقاً  
لصنع إنجازها الحضارى المتميز هذا، كان متمسكاً، هو كذلك،  
بهذه القسمة المميزة لهذا الإنجاز! فهذه الأمة قد فتحت نوافذ  
عقلها على مختلف الحضارات، ونظرت ببصرها وبصيرتها فى  
موايرث اليونان والفرس والهنود، ثم أخذت، وتمثلت، من موقع  
الراشد ذى الموقف المتميز، فلم يحولها ذلك إلى يونان أو فرس  
أو هنود! وإنما ظل إنجازها الحضارى عربياً إسلامياً متميزاً!  
وكما تميزت «الثمرة» فلقد تميزت «الأداة» - المنهج - عندما لم  
يقف عند «النظر الفلسفى والفكرى» فقط، كما كان حال «القياس»  
عند اليونان.. وعندما لم يهمل «النظر الفلسفى والفكرى»، مكتفياً  
بـ«التجريب» الذى تتقاذفه وتتجاذبه موجات الخطأ والصواب..  
وإنما وازن بينهما، فكان أن تبلور «المنهج الاستقرائى» القائم  
على الملاحظة والتجريب والاستخلاص الفكرى، ثم العودة إلى  
التجريب، فالفكر النظرى.. وهكذا. وفى هذه الموازنة المنهجية بين  
«المادة» و«الفكر» لم يعد «العالم المادى» ظلاً «لعالم المثل»، كما  
كان الحال فى الحضارة اليونانية، وفى نظرية «المثل» عند  
أفلاطون [٤٢٧ - ٣٤٧ ق.م.]، كما لم يصبح «الفكر» مجرد  
انعكاس لـ«المادة»، كما هو الحال فى «المادية الفجة» التى طلعت  
علينا بها أوربا فى العصر الحديث! وإنما كانت العلاقة الجدلية  
بين «الفكر» و«المادة» على النحو الذى يشير إليه فيلسوف

الإسلام جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤هـ = ١٨٣٨ - ١٨٩٧م] عندما يقول: إن كل «شهود» يحدث «فكرًا» وكل «فكر» يكون له أثر فى «داعية» يدعو إليها، وعن كل «داعية» ينشأ «عمل»، ثم يعود من «العمل» إلى «الفكر» دورٌ يتسلسل، ولا ينقطع الانفعال بين «الأعمال» و «الأفكار» ما دامت الأرواح فى الأجساد، وكل قبيل هو للأخر عماد. آخر «الفكر» أول «العمل»، وأول «العمل» آخر «الفكر»<sup>(١)</sup>.

هكذا تميزت حضارتنا.. عندما أصبح «التوحيد» هو روحها العظيم، إن فى النظر إلى الكون وتصوره - «التوحيد الدينى» - وإن فى الصياغة للمجتمع والدولة، وتصور الإنسان لهما، وعلاقتهما بهذا الإنسان.. وإن فى الأداة «المنهج» الذى استعان به الإنسان العربى على بلورة هذا الإنجاز.. «التوحيد» يعنى «التوازن».. كما أن «الموازنة».. و«التأليف».. و«التوفيق».. و«الوسطية».. تعنى فى الجوهر: الانحياز إلى «التوحيد»!

■ رابعة هذه المقدمات التمهيدية - وخاتمتها - تبدأ بالسؤال:

متى فقدت حضارتنا هذه استقلالها؟ ولماذا؟

أما: لماذا؟ فلأنها قد فقدت خاصيتها: أى طابعها الوسطى المتوازن.. أى أصيب «توحيدها» بالتمزق والانقسام!

وأما: متى؟ وكيف حدث ذلك؟ فالرأى عندى أن البداية كانت

(١) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى) ج ١ ص ١٤٠ - دراسة وتحقيق د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٩م.

مع بداية افتتاد أمتنا قسمة التوازن والموازنة بين «القوة»  
و«العقل».. بين «السيف» و«القلم».. بين «المادة» و«الفكر».

لقد كان عمر بن الخطاب [٤٠ق.هـ - ٢٣هـ = ٥٨٤ - ٦٤٤م]  
رضي الله عنه، أول من تنبه إلى خطر «الرقابية» على كفاءة  
«القوة الضاربة والحامية» التي لا بد منها لحماية «الدولة»  
و«الأمة» ومنعتهما ورقاهيتهما.. فمنع الجند من امتلاك الأرض  
الخصبة عندما فتحوا أودية أنهار مصر والشام والعراق، بل بنى  
لهم مدناً خاصة، ومنع الناس في البلاد المفتوحة من التزى  
بالزى الخاص للجند وقرض الحجر على الصحابة، وخاصة  
من كان منهم من أشرف قرينش: كي لا يغادروا العاصمة  
[المدينة] إلا بإذن، ولأجل مسمى، حتى لو كانت الحجة هي الغزو  
والجهاد في سبيل الله! وهو القائل: «لأخذن بحلأقيم قرينش  
لأمنعهم من أن يتجاوزوا الحرتين».

لكن عثمان بن عفان [٤٧ق.هـ - ٣٥هـ = ٥٧٧ - ٦٥٦م]  
رضي الله عنه، لم يصنع ذلك الذي صنعه عمر بن الخطاب.

ففي عهده «خرجوا إلى البلاد الغنية التي فتحت، فلما نزلوها،  
ورأوا الدنيا، ورأهم الناس، انقطع إليهم الناس.. وتقربوا إليهم،  
وقالوا: يملكون، فيكون لنا في ملكهم حظوة».. ويكمل المؤرخ  
«الطبري» الحديث فيقول: «فكان ذلك أول وهن على الإسلام،  
وأول فتنة كانت في العامة»<sup>(١)</sup>.

(١) ابن أبي الحديد [شرح نهج البلاغة] ج ١١ ص ١٢ - ١٣ - تحقيق: محمد أبو الفضل  
إبراهيم - طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩م

فلما كان العصر العباسي، كانت الرفاهية قد ابتعدت بالعنصر العربي عن حياة الجندية وخشوتها، فافتقدت الأمة قسمة التوازن بين «القوة» وبين «العقل». ثم كان حذر «الدولة» من العنصر العربي لميله إلى «العلويين» من آل البيت. ونصرته لثوراتهم التي كان يقودها «الزيديون».. وكانت «الشعبوية» المدقوعة بالثأر ضد الدولة العربية، والمشحونة بالمواريث المجوسية ضد الإسلام تسعى لتقويض «الدولة» ولإفساد «الدين»! فما كان من الخليفة العباسي المعتصم [١٧٩ - ٢٢٧هـ = ٧٩٥ - ٨٤١م] إلا أن خطا الخطوة القاتلة عندما اختار للدولة جندها وقوتها الضاربة من الترك المماليك، الغرباء عن حضارة الأمة، بحكم العنصر والجنس والنشأة والتكوين، والذين لا يكونون وداً لعقلانية حضارتها، بحكم كونهم «عسكراً» فضلاً عن كونهم مماليك! فلما تضخمت هذه المؤسسة العسكرية الغريبة عن الروح الحضاري للأمة، تجاوز الأمر حدود «فقدان التوازن» إلى رجحان كفة «القوة» على كفة «العقل»، فكان انقلاب المتوكل العباسي [٢٠٦ - ٢٤٧هـ = ٨٢١ - ٨٦١م] الذي أطاح بالتيار العقلاني الذي بلور الصفحات المشرقة لحضارتنا، وجاء بمن يقفون مع «ظواهر النقل» متنكرين للعقل ومنكرين جدواها ومن يقفون مع «التشبيه» و«التجسيد» المنافي لـ«التوحيد» و«التنزيه»! ومن يرجحون علوم الآخرة على علوم الدنيا!

فلما امتد العمر بسلطان العسكر المماليك، وتوالت دولهم على مقر الخلافة وأقاليمها، ومد في عمر هذه الدول وأحكام من

قبضتها ذلك الخطر الصليبي الزاحف من أوروبا، تراجعت قسمة العروبة من حضارتنا، وظهر ذلك التناقض الذى زعموه بين الإسلام والعروبة؛ كمحاولة لإبراز الرباط الدينى الذى يجمع الحاكم بالمحكوم، ونفى الرباط القومى الذى يستنفر المحكومين: كى ينهضوا قينفضوا عن كاهلهم ذلك السلطان الغريب عن قوميتهم<sup>(١)</sup>.. ففقدت حضارتنا روحها المميز لها، وغابت قسمة الموازنة والتوازن التى طبعت هذا الروح.. فكان أن دخلت مرحلة التراجع، فالجمود! تلك المرحلة التى تدعمت بالسيطرة العثمانية على أغلب أقاليم العالم العربى.. واستمرت حتى ظهور حركات التجديد والنهضة فى عصرنا الحديث.. والتى كان عليها، كى تستعيد لحضارتنا استقلالها، أن تبعث وتطور القسمات التى ميزت هذه الحضارة، وصنعت لها هذا الاستقلال.. وعلى وجه التحديد قسمات:

#### أ - السلفية الدينية؛

تنفص بها عن العقائد الدينية ركام البدع والخرافات والزوائد والإضافات التى تراكمت عليها فى عصر الجمود المظلم.. وتعيد بها إلى الدين جوهره الأهم وروحه الأعظم، وهو «التوحيد الدينى» فى العقائد والعبادات.. ومن ثم تعيد إليه طاقة الفعل والخلق والإبداع على الجبهة الحضارية.

(١) انظر، فى تفصيل ذلك، كتابنا (الإسلام والعروبة والعلمانية) - طبعة بيروت سنة ١٩٨١م.



## ب- الاستنارة والتعبدن،

فى شئون الحضارة وأمور الدنيا ونظم المعاش والعمران، حتى تستطيع الأمة فتح نوافذ عقلها على الحضارات الأخرى وتجارب الأمم التى تقدمت، وليصبح عقلها فتيتمكن من التمييز بين تراثها الخلاق المحرك لطاقتها المبدعة والباعث لإمكانياتها الخلاقة، وبين تراث عصر الركافة والجمود، الأمر الذى يعينها على الموازنة بين «أصالتها» وبين «العصر» الذى تعيشه و«المستقبل» الذى تفكر فيه!

## ج- عروية السلطة:

فى المجتمع، حكومة، وإدارة، وجيشًا، وتعليمًا، وثقافة، وتشريعًا. حتى تضمن سيطرة العقل والروح التى جعلت «التوحيد» هو المزاج المميز لحضارتها فى عصر الازدهار.

وبقدر نجاح حركات التجديد والنهضة ودعوات الإصلاح فى تبني أدوات التجديد هذه، واستخدامها بكفاءة واقتدار، كان نجاحها فى التعبير عن طموح الأمة لتجاوز عصر توقفها الحضارى، والدخول، بمشروعها الحضارى المستقل، عصر النهضة والإحياء!

## دعوات التجديد السلفية واستقلالنا الحضارى

بدأت يقظة أمتنا، فى عصرها الحديث، بظهور الحركات السلفية التى رامت تجديد الدين، وصبغ المجتمع بصيغة هذا الدين بعد تجديده.. وكان «تدين» حركات التجديد هذه - أى اتخاذها الدين سبيلاً للبعث القومى والحضارى - التعبير التلقائى عن مكان الإسلام ودوره فى أى مشروع لإيقاظ هذه الأمة وتجديد حياتها.

ومنذ البدء، كان واضحاً أن هذه الدعوات والحركات الدينية السلفية تواجه خطرين رئيسيين وعدوين أساسيين:

أولهما:

«التخلف» الذى صيغته وتحريسه فكرية العصور الوسطى والمظلمة.. فكرية عصور تسلط الممالك، وسلطان العثمانيين.. «التخلف» عن جوهر الإسلام وحركته الحيوية وطاقته المبدعة - عقيدة كان هذا الإسلام أو شريعة - فلقد أحتلت تلك العصور محل الإسلام الحق» نسقاً فكرياً مثقلاً بالشعوذة والخرافة والسلبية والتواكل.. بعد أن أضفت على هذا النسق قداسة الدين!

وثانيهما:

«التقدم» الذي تسلحت به أوروبا الاستعمارية في هجمتها الحديثة على ديار العروبة وعالم الإسلام.. والذي أرادت به نهب اقتصاديات الأمة، واحتلال أرضها، ومسح شخصيتها القومية، وإزالة تمايزها الحضارى؛ كى تصبح «هامشًا» لأوروبا، فى الاقتصاد أو الأمن أو «القيم» و«الثقافة».. وقسمات الحضارة بوجه عام!

ومن بين الدعوات والحركات السلفية الدينية التى استيقظت الأمة على وقع خطواتها كانت: «الوهابية».. و«السنوسية».. و«المهدية» أبرز هذه الدعوات والحركات.. وهى وإن جمعتها غايات التجديد والإصلاح على أسس دينية سلفية، إلا أن النظرة المتألمة المتأنية تكشف ما بينها من تمايز فرضته واقتضته ظروف الواقع والبيئة والتكوين على القادة والدعاة والجمهور.. واستدعته التحديات التى واجهت هذه الدعوات والحركات فى البيئات المتميزة التى نشأت فيها.

## /// ١- الوهابية

فى بيئة بدوية بسيطة، هى «نجد»، بشبه الجزيرة العربية، ولد ونشأ محمد بن عبد الوهاب [١١١٥ - ١٢٠٦هـ = ١٧٠٣ - ١٧٩٢م].

وكانت السيادة الاسمية والرسمية على موطنه لخلفاء آل عثمان.. وكان ابن عبد الوهاب سليل أسرة من الفقهاء، أخذ عنهم علوم الدين، كما درس على علماء مكة والمدينة، وظهر نزوعه المبكر إلى النهج السلفى، الرافض لما طرأ على عقائد الإسلام وعباداته من بدع وخرافات وإضافات.

لقد نظر ابن عبد الوهاب فوجد عامة الناس يتخذون الوسائل والوسائط شفعاء إلى الله، بل يتوجهون إليهم بالطلب والدعاء والاستغاثة فى الملهمات.. كما وجد البدع قد أصابت العبادات، بالزيادة والنقصان.. فلما عرض صورة «إسلام العامة» هذا على حقيقة «إسلام السلف» وجد أن الإسلام الأول - إسلام السلف - قد أصبح «غريباً» فكان أن وجد نفسه فى ذات الموقف الذى وقفه إمام السلفيين القدماء: الإمام أحمد بن حنبل [١٦٤ - ٢٤١هـ = ٧٨٠ - ٨٥٥م] عندما دعا إلى العودة لإسلام شبه

الجزيرة، الأول، إسلام ما قبل عصر الفتوحات، ذلك الذي يكفي الإنسان منه النصوص، دونما حاجة إلى العقلانية الكلامية أو الفلسفية، وما أثمرت من «قياس» و«رأى» و«تأويل»<sup>(١)</sup>

وكانت بيئة «نجد»، البسيطة، أكثر ملائمة للإسلام السلفي البسيط، فظواهر النصوص تكفي للإجابة عن علامات استفهام إنسانها البسيط، كما تكفي لتصحيح معتقداته وتصورات، وإعادة عباداته إلى إطار الإسلام الصحيح والبسيط.

بدأ ابن عبد الوهاب يدعو إلى إسلام السلف، ويبشر بفكر ابن حنبل، وابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨ هـ = ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م] وابن قيم الجوزية [٦٩١ - ٧٥١ هـ = ١٢٩٢ - ١٣٥٠ م] ويركز على إصلاح «العقائد» وتقويم «التصورات» وتصحيح «العبادات» فحكم بالشرك، الظاهر والجلّي، على المتوسلين إلى الله بالآولياء والصالحين والمشاهد والمزارات والرموز، بل رأى أن شركهم هذا هو أعظم من شرك الجاهلية الأولى<sup>(٢)</sup>. ورفض - كما صنع أعلام السلفية الأول- أن يحتكم لغير النصوص، فهاجم «القياس»، حتى لو كان صحيحاً، وأعرض عن «التأويل» في فهم النصوص وتفسيرها<sup>(٣)</sup>... وأعلن أن «الرأى» لا وزن له بجانب النصوص<sup>(٤)</sup>...

(١) انظر الفصل الذي كتبناه عن «السلفية» بكتابنا [تيارات الفكر الإسلامى] - طبعة

القاهرة سنة ١٩٨٢م، وطبعة ١٩٨٤م، وطبعة بيروت سنة ١٩٨٥م

(٢) ابن عبد الوهاب رسالة [هدية طيبة] - مطبوعة ضمن [مجموعة التوحيد] ص ١٥٦ - طبعة المكتبة السلفية - القاهرة.

(٣) المصدر السابق - رسالة [هذه مسائل الجاهلية] ص ٨٧

(٤) عبد الكريم الخطيب [الدعوة الوهابية] ص ١٢ - طبعة القاهرة سنة ١٩٧٥م



وكان طبيعياً أن تصطدم هذه الدعوة السلفية بفكرية العصور الوسطى، تلك التي كان يراها خلفاء آل عثمان...

ولم يقف أمر هذا التصادم عند الحدود الفكرية. فلقد كان ابن عبد الوهاب أكثر من «شيخ»، وأعظم من «فقيه»، وأكبر من «داعية». ومن ثم فإنه لم يشأ أن يقف بدعوته عند رسائل يؤلفها أو مواعظ يلقيها أو مذهب فقهي يبشر به، أو حتى حلقة من الأتباع والمريدين. لقد أراد أن تكون «لدعوته» «دولة»، تضمن لها التطبيق والانتشار والاستمرار. فالتة يزع «بالسلطان» مالا يزع «بالقرآن»<sup>(١)</sup>. ولقد زاد هذا العزم والمسعى من احتمالات التصادم ومن حجمه مع خلفاء آل عثمان.

غادر ابن عبد الوهاب «حريملا» - التي بدأ فيها دعوته - إلى «العيينة»، فعرض مذهبه على رئيسها عثمان بن أحمد بن معمر، الذي استجاب لدعوته، فعقد معه عهداً أن ينصر دعوة [لا إله إلا الله]، ويسخر قوته لاقتلاع عقائد «الشرك» ورموزها، مقابل «أن يملكه الله نجداً وأعرابها»<sup>(٢)</sup>. فتحرك جيش «العيينة»، وفي مقدمته ابن عبد الوهاب، لهدم القباب، واقتلاع الأشجار وإزالة الرموز التي كان العامة يقدسونها ويتخذونها وسائل تقربهم - بزعمهم - إلى الله زلقى... وكان قبر الصحابي زيد بن الخطاب [١٢ هـ - ٦٣٣ م]، بالإمامة، من بين القباب التي قاد ابن عبد الوهاب عملية هدمها، بعد أن أجفل حتى جبن أمير «العيينة» عن الإقدام على هدمها! ولقد استغز ذلك أعراب الناحية،

(١) المرجع السابق ص ٦٤

فخشى عثمان بن معمر عداءهم، فطلب إلى ابن عبد الوهاب مغادرة المنطقة خوفاً على حياته، فغادر «العينية» إلى «الدرعية» سنة [١١٥٨هـ - ١٧٤٥م].

وفى «الدرعية» تحالف ابن عبد الوهاب مع أميرها محمد بن سعود [١١٧٩هـ - ١٧٦٥م]. فسادت الدعوة السلفية فيها وفى نجد وما تآخمها. ثم أخذ يعرض دعوته على حجاج بيت الله الحرام وزوار مسجد الرسول ﷺ، فى موسم الحج والزيارة. وبدأ الحجاج يسمعون ويتناقلون آراءه التى تحكم «بالكفر» حتى على خليفة المسلمين العثمانى<sup>١٥</sup>

وكان ابن عبد الوهاب يقود الجهاد، فى طليعة جيش ابن سعود. فهاجموا «كربلاء»، بالعراق، واستولوا على الكنوز الذهبية والفضية النفيسة لمشاهدها ومزاراتها سنة [١٢١٦هـ - ١٨٠١م]. ودخلوا المدينة المنورة سنة [١٢٢٠هـ - ١٨٠٥م]. وأزالوا القباب والشواهد الخاصة بمزارات الصحابة فى مقابر البقيع. وفى العام التالى ذهب ابن سعود إلى مكة، حاجاً ومستعرضاً قوته، فبايعه «شريفها»، وطرد من كان بها من رجال الدولة العثمانية. وهكذا تمت للوهابية - الدعوة والسلطة - السيطرة على الحرمين ونجد والحجاز، فتصاعد تحديدها «للدولة» العثمانية و«لفكريتها» المثقلة بالشعوذة والخرافة!

لكن العثمانيين - بعد أن قتلوا فى مواجهة الوهابية - استعانوا بمحمد على باشا، والجيش المصرى، الذى أسقط الدولة الوهابية وأجهز عليها عندما احتل عاصمتها «الدرعية» فى [٧ ذى القعدة

سنة ١٢٣٣هـ - ٨ سبتمبر سنة ١٨١٨م]، بعد سنوات طويلة من القتال.. وبعد ثلاثة أرباع القرن على ظهور دعوة ابن عبد الوهاب.. وبقيت الوهابية «دعوة» تسعى لإقامة «الدولة» حتى تيسر لها ذلك في العقدين الثاني والثالث من القرن العشرين، على يد الملك عبد العزيز آل سعود [١٢٩٣ - ١٣٧٣هـ = ١٨٧٦ - ١٩٥٣م].



■ كانت الوهابية، على جبهة «العقائد والشعائر الدينية»، حركة تجديد سلفية، نشأت في بيئة عربية بسيطة، لم تعرف الفكر المركب، لخلوها من تعقيدات الحضارة وأنماطها الفكرية المركبة، فكانت صورة إسلامها هي صورة الإسلام العربي الأول في عصر صدر الإسلام.. ومن هنا كانت ثورة تجديدية ضد صورة الإسلام العثماني، ذلك الذي أثقلته البدع والخرافات طوال العصر الذي فقدت فيه حضارتنا مقومات الإبداع وقسمات الاستقلال.. وكان «التوحيد» الإسلامي الخالص، كما بشرت به الوهابية، إسهاماً في إعادة روح التميز والاستقلال إلى البناء الحضاري لأمتنا على جبهة «العقائد والشعائر الدينية».

■ والوهابية، كامتداد للفكر السلفي، الرافض للتأثيرات الفلسفية اليونانية في حضارتنا، قد تبنت إبداع أعلام السلفية - وخاصة إبداع ابن تيمية - في صياغة «منطق إسلامي» متميز لحضارتنا، بدلاً من «منطق أرسطو» الذي تبناه عدد من فلاسفة المسلمين، أو تأثروا به.. فإزاء هذه القسمة من قسمات تمايزنا الحضاري، كانت السلفية، عند ابن تيمية، تتوَّجَّأ لجهود عربية إسلامية

استقلالية بدأت ونمت.. بدأت بإبداع الإمام الشافعي، محمد بن إدريس [١٥٠ - ٢٠٤ هـ = ٧٦٧ - ٨٢٠ م] في «أصول الفقه»، التي قدمها في مقابل «منطق أرسطو»، الذي رفضه باعتباره ابناً للغة اليونان، يستحيل أن يكون منطقاً لأهل اللغة العربية.. ونمت هذه الجهود بإبداع المتكلمين المسلمين. من المعتزلة وغيرهم - لأصول الدين - علم الكلام - الذي رفضوا فيه وبه منطق أرسطو، لارتباطه «بالميتافيزيقا» اليونانية الوثنية. التي لم تعرف الوحي ولم تعترف به - والمخالفة لإلهيات المسلمين والإسلام!

ولقد توج ابن تيمية هذه الجهود، التي تمت على درب التمايز والاستقلال الحضاري. بنقده لمنطق أرسطو، الذي رآه مقيداً للفطرة الإسلامية بقوانين صناعية متكلفة، وحائلاً بقوانينه الكلية الثابتة دون الوفاء بالحاجة الإسلامية المتغيرة.. وداخلاً فيما لا ضرورة له، حيث لم يشتغل به الصحابة ولا الأئمة، ومع ذلك فلقد توصلوا - كما يقول - إلى كل نواحي العلم! توجت هذه الجهود بتبلور منطق الحضارة العربية الإسلامية الاستقرائي. القائم على الملاحظة والتجريب، في مقابل منطق أرسطو، القائم على المنهج القياسي، والنابع من روح الحضارة اليونانية، التي لم تحفل بالتجربة بقدر ما ركنت إلى النظر الفكري والفلسفي<sup>(١)</sup>. وعلى هذه الجبهة الفكرية، كانت الوهابية - كامتداد للفكر

(١) د. علي سامي النشار [مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي] ص ١٨٧، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٦٣، ٣٠٥، ٣٧٨ - ٣٨٠ - طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧ م.

السلفى - إسهاماً فى الاستقلال الحضارى لأمتنا العربية الإسلامية.. وإن تكن بداوة بينتها، وفقر الفكر الفلسفى عند أعلامها قد جعلاً إسهامها على هذه الجبهة متمثلاً فى رفض التبعية الفكرية، مع العجز عن الإبداع فى بلورة البديل وتطويره!

■ وعلى «جبهة العروبة».. كانت الوهابية إسهاماً فى الجهد المبذول كى تستعيد الأمة هذه القسمة من قسّمات استقلالها الحضارى.. فهى «كدعوة» و«كدولة».. قد مثلت طليعة التحديات العربية للسلطنة العثمانية المتسلطة على أغلب أقاليم الوطن العربى.. ثم هى، فى المجال الفكرى، قد سحبت - إسلامياً - الشرعية والمشروعية عن ولاية العثمانيين على العرب، عندما تبسّث وأبرزت موقف أغلب فقهاء الإسلام - ومنهم فقهاء السلفية - المنحاز لضرورة توافر شرط العروبة القرشية فِيمَن يتولى منصب الخليفة والإمام!

لقد مثلت الوهابية - بهذا الموقف الفكرى والعملى - فى يقظتنا الحديثة بعداً قومياً، لم يصل بها إلى حد جعلها حركة قومية عربية - بالمعنى المتعارف عليه فى الأدب السياسى الحديث - لكنه مثل إسهاماً بارزاً على درب العروبة الساعية كى تنفض عن كاهلها سلطة الترك العثمانيين!

■ لكن الوهابية - بسبب من بداوة البيئة التى نشأت بها - قد اتخذت موقفاً غير ودى من «العقلانية» ومن «التمدن».. فظواهر النصوص كانت كافية للإجابة على ما تثيره بينتها البدوية البسيطة من مشكلات، وما تطرحه من علامات استفهام.. وموارثها السلفية، التى



بدأت بإمام السلفية، أحمد بن حنبل، قد رفضت «عقلانية المسلمين» ضمن رفضها لـ «عقلانية اليونان» وجاءت الوهابية، محكومة بأوضاع بينتها البدوية، فرفضت «التمدن» عامة، كجزء من رفضها ذلك «التمدن الغربي» الذي كان يتسلل إلى عالم الإسلام من تلك الثغرات التي فتحتها الغرب في جدار آل عثمان!

ولقد دفع الوهابية على هذا الدرب، وأوغل بها في هذا السبيل خلطها الشديد بين ما هو «دنيا، وما هو «دين»، فلما لم «تميز» بينهما، فحسبت أن تجديد «الدنيا» يتحقق بما يتجدد به «الدين» فدعت إلى «السلفية الدنيوية» كما دعت إلى «السلفية الدينية»، وغفلت عن أن تجديد ثوابت الدين لا بد فيه من «الاتباع»، في إطار المقاصد الدينية والأطر العامة التي نزل بها الروح الأمين على الرسول، عليه الصلاة والسلام. ولم تدرك الوهابية أن «الاتباع» هنا لا يثمر «التجديد» بل يؤدي إلى «الجمود»!

ولقد تحدث الإمام محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] عن هذه السلبية في الدعوة الوهابية، رغم اتفاه معها في «السلفية الدينية»، التي جعلته يدعو إلى «فهم الدين على طريقة سلف الأمة، قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه إلى منابعها الأولى...»<sup>(١)</sup> يتحدث الإمام محمد عبده عن قصور الوهابية على جبهة «العقلانية» و«التمدن»، فيقول «إنهم أضيق عطنا [أفقاً] وأخرج صدرا من المقلدين. فهم وإن أنكروا كثيراً من البدع، ونحووا عن الدين كثيراً مما أضيف إليه وليس

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٢ ص ٣١٨ - دراسة وتحقيق د. محمد عمارة - طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م.

منه، إلا أنهم يرون وجوب الأخذ بما يفهم من لفظ الوارد، والتقييد به، بدون التفات إلى ما تقتضيه الأصول التي قام عليها الدين واليهما كانت الدعوة ولأجلها منحت النبوة، فلم يكونوا للمعلم أولياء، ولا للمدنية أحباء»<sup>(١)</sup>

\*\*\*

في هذه المواقع، وعند هذه الحدود وقفت الوهابية على جبهة نضال أمتنا لاستعادة استقلالها الحضاري، وبلورته، في عصرنا الحديث..

لقد انتصرت «السلفية الدينية» و«العروبة» لكنها تخلفت عن مستويات طموحات أمتنا الحضارية على جبهة «التعدن»، عندما استبدلت - على هذه الجبهة - «سلفية الدين» «بمستقبلية الدنيا وتمرنها»... فوقفت صلاحيات فكرتها في «التعدن» عند حدود البيئة البدوية التي نشأت وتبلورت فيها، وعجزت عن تلبية حاجات البيئات العربية الإسلامية المتحضرة، ذات الفكر المركب والتطور الحضاري المتقدم!

(١) المصدر السابق، ج ٢ ص ٣١٤

## /// ٢ - السُّنُوسِيَّة

تميزت نشأة إمام السنوسية محمد بن علي السنوسي [١٢٠٢ - ١٢٧٦هـ = ١٧٨٧ - ١٨٥٩م] عن نشأة محمد بن عبد الوهاب.. فلقد ولد السنوسي بقرية «الواسطة» بالقرب من «مستغانم»، بمقاطعة «وهران» الجزائرية، في بيئة عربية لا تغلب عليها البداوة. وكان طموحه إلى العلم والفروسية ملحوظًا منذ النشأة المبكرة، فمنذ الصبا كان يقسم يومه إلى قسمين، أحدهما لطلب العلم، والثاني للفروسية والتدريب على القتال.. وهو قد درس في «القرويين»، بمدينة فاس المغربية، و«الأزهر»، بالقاهرة.. وانخرط في عدد من طرق التصوف.. وتلقى العلم على عدد من شيوخ مكة والمدينة.

وكان السنوسي مالكي المذهب في الفقه.. وليس بين الإمام مالك بن أنس [٩٣ - ١٧٩هـ = ٧١٢ - ٧٩٥م] وبين «العقلانية» ما بين أحمد بن حنبل والمنهج العقلي من خصام!! وفي بيئة غير عارية من سمات المدنية والتمدن كَوْن السنوسي طريقته، وشرع يبت الدعوة ويصنع الدعاة.

■ ولقد كانت سلفية السنوسية متميزة، لذلك، عن سلفية الوهابية.. فهي تشاركها في الدعوة إلى فتح باب الاجتهاد لتجديد الدين، وفي رفض فكرية السلطنة العثمانية؛ لما أثقل إسلامها من خرافات، وزوائد وبدع.. لكن الطريقة السنوسية قد مزجت «الشريعة» بشيء من «التصوف»، وخلطت «البرهان» «بالإشراق»! فهي «بالشريعة والبرهان» تجدد الدين، عندما تعود إلى منابعه كي نفهم عقائده وشعائره وشرائعه.. وهي «بالتصوف» تستعين على تربية النفس وتقويم السلوك وصقل الملكات وسمو الوجدان! صنعت ذلك المزيج مع ميل ملحوظ إلى «الشريعة والبرهان»!

ولقد أنجزت السنوسية على هذا الدرب إنجازاً عظيماً، فهي قد صححت عقائد الذين انحرفوا فيها من الأتباع والمريدين، وكثير منهم - وخاصة في الصحراء المغربية - كانت تشوب عقائدهم الإسلامية، بل شعائرههم، عناصر وثنية وجاهلية عديدة! وهي قد نشرت الإسلام بين أقوام أفارقة كثيرين كانوا وثنيين، غطعت الطريق على التبشير الاستعماري الذي كان يمهّد بالمسيحية الأرض للنهب والاحتلال والاحتواء! ولقد كان لها الفضل في صنع «الحزام الإسلامي»، الممتد في وسط إفريقيا، من شرقها إلى غربها، وإقامة سلطنات وإمارات إسلامية عدة حاربت الاستعمار الغربي وأعاقت سيطرته سنوات.. وصنعت ذلك أيضاً عندما تصدت للاستعمارين الإيطالي والإنجليزي على الجبهة الشمالية، وعندما أقلقت السيطرة الفرنسية على بلاد الشمال الإفريقي..

وكان هذا إنجازاً هاماً وإسهاماً بارزاً استعانت السنوسية في صنعه «بسلفيّتها المجددة» تلك التي واجهت بها خرافة عصر الجمود وخطر المد الاستعماري على هوية الأمة واستقلالها الحضاري.

■ وعلى جبهة «العروبة» - عروبة «الدولة» و«الفكر» و«الحضارة» - أسهمت السنوسية إسهاماً بارزاً وملحوظاً. فهي قد نشرت العربية مع نشرها الإسلام في أصقاع جديدة.. وهي قد رفضت الاعتراف بشرعية التسلط العثماني على حكم الأمة العربية، عندما تبنت وأبرزت موقف فقهاء الإسلام من ضرورة عروبة الخلافة وقرشيتها.. وفي كتاب السنوسي [الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية] يدافع عن هذا الشرط من شروط الخليفة، ويستشهد برأي أبي الحسن الماوردي [٣٦٤ - ٤٥٠ هـ = ٩٧٤ - ١٠٥٨ م] ويرفض رأي الذين يشيعونها في غير العرب من المسلمين!

ثم إن السنوسية السياسية قد اتخذت من الدولة العثمانية موقفاً يتراوح ما بين «الصمت الحذر» و«المراوغة» أو «العداء» فهي قد أزعجت طلائع المد الاستعماري الغربي على إفريقيا، وأقلقّت الاستعمار الفرنسي في المغرب العربي، خاصة في الجزائر، حتى لقد كتب وزير الخارجية الفرنسي جابريل هانوتو G.Hanotaux [١٨٥٣ - ١٩٤٤ م] وهو يتحدث عن «المسألة الإسلامية» فعبّر عن انزعاجه من «كفاح» السنوسيين ضد الأوربيين، و«كراهيتهم للمدنية» الأوربية!

وصرح بأن موقفهم غير الودي من الدولة العثمانية، ومقاطعتهم لها سببهما ما بين هذه الدولة وبين أوروبا من



علاقات!.. وعبر عن مخاوفه من مقاومتهم للسيطرة الأوروبية المسيحية الاستعمارية فقال: «... إن جراثيم الخطر لا تزال موجودة في ثنايا الفتوح وطقى أفكار المجهورين الذين أتعبتهم النكبات التي حاقت بهم، ولكن لم تثبط همهم».. ثم يستطرد هانوتوفى الحديث عن خطر السنوسية على الاستعمار الفرنسى ونمطه الحضارى فيقول: «لقد أسس الشيخ السنوسى - فى جهة ليست بعيدة من الأصقاع التى تلى أملاكنا فى الجزائر [١] - مذهباً خطيراً، له أشياع وأنصار.. ومن مذهبهم التشدد فى القواعد الدينية.. ولقد لبثوا زمناً مديداً لا يرتبطون بعلاقة ما مع الدولة العلية [العثمانية] بسبب ما بينها من العلاقات وبين الدول المسيحية [الاستعمارية الأوروبية].. وهم يطرحون حبال الدسائس التى أوقفت رجال بعثاتنا عن كل عمل مفيد لصالحنا فى إفريقيا الجنوبية! فهناك، فى قرانا وبلداننا [كذا] ترى درويشاً فقيراً، متدثراً بأرديته البيضاء، المعلمة بخطوط سوداء، يلهج لسانه بذكر الله والصلاة على نبيه، لا يلويه عن ذلك شىء.. وهذا الدرويش - الذى ينتقل من خيمة إلى خيمة ومن قرية إلى قرية، راوياً حوادث الأقطاب الأولياء من مشايخ الإسلام - إنما يبذر فى القلوب، حيثما حل وأينما توجه، بذور الحقد والضغينة علينا..»

وعندما ضغطت الدول الأوروبية الاستعمارية على السلطان العثمانى عبد الحميد [١٢٥٨ - ١٣٣٦هـ = ١٨٤٢ - ١٩١٨م] كى يوقف النشاط السنوسى، استجاب لهذا الضغط - بعد تمنع

(١) [الإسلام والرد على منتقديه] ص ١٨، ١٩ - طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨م

وابطاء- فاستدعى المهدي السنوسي [١٢٦٠ - ١٣٢٠هـ = ١٨٤٤ - ١٩٠٢م] ليقيم في الأستانة، في «قص ذهبي»! كالذي احتبس فيه ذلك السلطان جمال الدين الأفغاني، حول ذات التاريخ!! ولكن المهدي السنوسي تخلص من هذا القح، متلطفًا بل ونقل مقره بعيدًا في الصحراء الليبية، فغادر «جغبوب» إلى «الكفرة» فلما زاد الخطر واقترب، انتقل من «الكفرة» إلى «فرو» بالسودان الأوسط!

ذلك أن السنوسية كانت تدرك أن الضعف العثماني قد حول الدولة العثمانية إلى جدار مليء بالثغرات التي يتسلل من خلالها نفوذ الغرب الاستعماري كي يلتهم ديار العروبة والإسلام.. حتى لقد غدا «الترك» - كما يقول أحمد الشريف السنوسي - مقدمة النصاري - [أي المستعمرين الأوربيين] - ما دخلوا محلاً إلا ودخله النصاري!.. حتى ليقول المهدي السنوسي: «الترك والنصاري، وإنى أقاتلهم معاً».. فالسنوسيون، بموقفهم مع العربية، ومع الإسلام العربي، وبعداً عنهم لأعدائهما، أوربيين كان هؤلاء الأعداء أو أتراكا عثمانيين... وأيضاً، بما أعادوا وبعثوا من فروسية عربية في الخلق والقتال، وبما انحازوا إليه من ضرورة عروبة الخلافة وقرشيتها، كانوا أصحاب إسهام عظيم على هذه الجبهة من جبهات الاستقلال الحضاري لأمتنا العربية الإسلامية

■ وإزاء قسمة «التمدن»، أبدعت السنوسية نموذجاً متميزاً يجتذب الأنظار ويدعو البصائر إلى التأمل العميق.. فالسنوسي كان صاحب نظر في العلوم الطبيعية، واقتناء لأدواتها، إلى جانب تبحره في علوم الدين واجتهاده فيها.. وأمام الخطر الاستعماري الشامل

والمحقق والمهتد لكيان الأمة، أدرك الرجل أن لا بد من «المرابطة» بما عنده هذا النظام في تاريخ الإسلام من تنظيم لطاقت الأمة وحشد لها في وحدات مقاومة متراصة تتصدى. «بالبناء وبالقتال»، لخطر الأعداء! فكانت فكرة «الزاوية» السنوسية، كمؤسسة متكاملة لصنع الرجال، دينياً ودينياً، وتنمية المجتمع، ومجاهدة الأعداء، ونشر العروبة والإسلام! كانت «الرباط» الإسلامية الحديث، الذي يبعث ويجدد روح «الرباط» و«المرابطة» الإسلامية الأولى، تلك التي قال عنها الرسول ﷺ: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها»<sup>(١)</sup>، والتي قامت عليها وباسمها دولة جددت الإسلام بالمغرب حيناً من الدهر، هي دولة «المرابطين» [٤٤٨ - ٥٤١ هـ = ١٠٥٦ - ١١٤٦ م].

كانت «الزاوية» السنوسية هي: مؤسسة الحكومة - [الطريقة] - ومزرعة الدولة.. ونموذج المجتمع الجديد الموعود.. فغير المسجد نجد فيها منزلاً لقائدها - [المقدم] - وللوكيل، وللشيخ.. وفيها بيوت للضيوف وعابري السبيل، وللفقراء الذين لا مأوى لهم، وفيها مساكن للخدم، ومخازن للمؤن، وإصطبل، ومتجر، وفرن، وسوق.. وحول هذه المباني «العامة» توجد المساكن الخاصة بالقبائل التي تقوم «الزاوية» في منطقتهم، لتطويرهم وقيادتهم..

«وللزاوية» أرض زراعية خاصة بها، وآبار جوفية، وصهاريج لحفظ المياه.. وأرضها وحدائقها تزرع جماعياً، تعمل فيها القبائل، بلا أجر، يوم الخميس من كل أسبوع! كما تتدرب فيها يوم

(١) رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه والدارمي وابن حنبل

الجمعة من كل أسبوع على الفروسية والقتال! ومحصول أرض الزاوية ينفق على احتياجات فقرائها، وضيوفها، غذاء وكساء وتعليمًا وعلاجًا وزواجًا، وما بقي يذهب لمقر الطريقة الرئيسي..

و«مقدم» الزاوية هو ممثل شيخ الطريقة، وقائد قبائلها في الجهاد! و«الوكيل» هو المشرف على الزراعة وشنون الإدارة والاقتصاد.. أما «الشيخ» فإنه يتولى التعليم وشنون الزواج.. ومن هؤلاء الثلاثة ومن رؤساء القبائل المحيطة «بالزاوية» يتكون مجلس إدارتها..

تلك هي «الزاوية» السنوسية: أداة التنمية المتميزة، التي صاغت البيئة، والتي جعل منها الخطر الاستعماري قلعة للذب عن العروبة والإسلام والجهاد في سبيل الله! ولقد وصقها السنوسي فقال: «إن الأرض تبتهج من حولها بأنواع الأشجار، ويكثر بها السكان لكثرة الثمار، وتنتشر فيها العمارة، وتوسع الإدارة، والعاملون فيها، بالزراعة والحرف، هم السابقون عند الله للعاكفين على الأوراد والأوراق والمسابع!»..

لقد صاغت بيئة «الزاوية»، وحدد الخطر المحدق بأهلها الصورة والحدود التي جاء عليها هذا النموذج السنوسي في «التمدن».. وهو وإن لم يكن النموذج الأصل لبيئات أكثر تطورًا، إلا أنه قد كان، في واقعه وظروفه، إنجازًا عبقريًا على درب التمايز، والاستقلال الحضاري<sup>(١)</sup>.

(١) انظر عن السنوسية د. أحمد صدقي الدجاني [الحركة السنوسية] - طبعة بيروت سنة ١٩٦٧م، وشكيب أرسلان [حاضر العالم الإسلامي] - طبعة بيروت سنة ١٩٧١م، ود. محمد عمارة [العرب والتحديث] - طبعة الكويت سنة ١٩٨٠م.

### /// ٣- المهديّة

في جزيرة «لبب» على بعد خمسة عشر كيلو متراً من «دنقلة» بالسودان، ولد مؤسس «المهديّة» - «المهدي» - محمد أحمد [١٢٦٠ - ١٣٠٢ هـ = ١٨٤٤ - ١٨٨٥ م] في أسرة فقيرة، قعدت بها إمكانياتها الفقيرة عن أن ترسله إلى الأزهر الشريف كي يتعلم فيه، فاحترف التجارة، لكنه حصل علم «الفقهاء الفقراء» المحليين.. ومارس التعليم.. ثم اتجه إلى التصوف، فزهد، وتنسك، حتى ذاعت شهرته، وعلا نجمه، وأصبح، في «الطريقة السمانية» خليفة له «زاية» و«مريدون».. ثم أصبح شيخاً لهذه الطريقة سنة [١٢٩٧ هـ - ١٨٨٠ م].

وكان لمحمد أحمد طموح إلى الإصلاح العام للمجتمع، وإلى بناء مجتمع على غرار مجتمع الرسول - ﷺ، في صدر الإسلام، ولقد استعان على ذلك الإصلاح بالفقهاء والحكام، لكنهم خذلوه، فاتجه إلى عامة الناس

وفى [الأول من شعبان سنة ١٢٩٨ هـ - ٢٩ يونيو سنة ١٨٨١ م] أعلن محمد أحمد على الناس أنه «المهدي»، وأن الرسول، ﷺ، قد جاءه في الرؤيا، وكلفه «بالمهديّة».. ودعا

الناس إلى الإيمان به «مهدياً» وإلى الهجرة إليه، والجهاد معه لإقامة الدين، وتحرير البلاد من الأتراك والأجانب، وإنقاذ ديار الإسلام قاطبة «من غانة إلى فرغانة»<sup>(١)</sup>

كانت مهمة التجديد واليقظة والتحرير بالسودان أكثر صعوبة منها في غيره من البلاد.. فوحدة الشعب لم تتبلور بعد، والتفتت الإدارى والتمزق القبلى يتقلان الخطو نحو بلوغها.. والفقهاء قد تحولوا إلى أتباع للحكام، يبررون مظالمهم، ويحكمون قبضتهم على العقول والقلوب.. والمتصوفة قد استقطبوا عامة الناس إلى «أقطابهم»! واقتسموهم فى «طرقهم»، وأشاعوا فى حياتهم الخرافة التى قتلت فيهم الطموح وأماتت منهم الطاقات وعظمت لهم العقول!

وأمام هذه المهمة الصعبة وقف محمد أحمد.. فبلغت به المعاناة حد تمثل الأسطورة «المهدية» رؤية منام، بل بقظة! وغدت هذه الأسطورة البوتقة الأفعلى فى صهر الأمة وتوحيد الجماعة واستنفارها للجهاد خلف مهديها للتجديد والتحرير والإصلاح!

\* \* \*

■ ولقد واكبت المهدية صعود نجم «الثورة العربية» ضد الخديوى توفيق [١٢٦٨ - ١٣٠٩ هـ = ١٨٥٢ - ١٨٩٢ م] والتدخل الأوروبى

(١) «غانة» مدينة عربية إسلامية، فى أقصى جنوب المغرب العربى، و«فرغانة» مدينة إسلامية، فى بلاد ما وراء النهر، متاخمة لبلاد التركستان - التى تطلق الآن إحدى الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى -.. والعبارة تعنى: من مغرب عالم الإسلام إلى مشرقه! انظر: صفى الدين البغدادى [مراميد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع] - تحقيق على البجاوى - طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م



الاستعماري في مصر.. وكان هذا التدخل، الذي تسلسل إلى بلادنا من الثغرات التي صنعها عجز الأتراك العثمانيين، قد جعل السودانين، بقيادة «المهدي»، يرون في هذا الثالث، المكون من: الأوربيين والأتراك والحكومة الخديوية عدوًا واحدًا وبلاءً متحدثًا

فبعد معاهدة لندن سنة (١٢٥٦هـ - ١٨٤٠م)، التي قننت اختراق تجربة مصر المستقلة من قبل أوربا والعثمانيين، زاد النفوذ الأجنبي في مصر، خاصة زمن حكم الخديو سعيد [١٢٧٠ - ١٢٧٩هـ = ١٨٤٥ - ١٨٦٣م] والخديو إسماعيل [١٢٧٩ - ١٢٩٦هـ = ١٨٦٣ - ١٨٧٩م]. وبصورة أكبر عندما تولى الحكم الخديو توفيق [١٢٩٦هـ - ١٨٧٩م].. وانعكس ذلك على السودان، الذي كانت إدارته للحكومة الخديوية المصرية، حتى بلغ الأمر حد تعيين العديد من الأوربيين حكامًا على أقاليم السودان، ليحكموه باسم الخديو! ففي «بحر الغزال» حكم الإيطالي «جيسي»، ثم خلفه الإنجليزي «البتون بك».. وفي «دارفور» حكم النمساوي «سلاطين»! وفي «كوبي» حكم «أميليانى»! وفي «الفاشر» حكم «مسيداليا»! وفي «لادو» حكم الألماني «سنتزر»!.. وفي «فاشودة» حكم النمساوي «إرنست ماثرو»!

وكان السودانيون يسمون الحكم الخديوي بالحكم التركي، ويصفون حكامهم بالأتراك.. وزادت مبررات هذا الوصف عندما انحاز الخديوي توفيق إلى الغرب والأتراك ضد الثورة العربية.. وكانت المظالم الاجتماعية لهذا الحكم «التركي» قد بلغت في السودان وبأهله حد المأساة!

وآمام هذا العدو كان رد فعل «المهدية» المعادي للأتراك.. فهم «كفرة»، لا بد من جهادهم، وهم أعداء، لا بد من «مغايرتهم»، حتى في الزنى والعبادات والتقاليد، ولا سبيل للتعامل معهم إلا بالسيف:

يقول «المهدي» لأتباعه، في أحاديثه ومنشوراته، معبراً عما نراه: «قسمة عربية، معادية للسيطرة التركية».. يقول: «تركوا كل ما يؤدي إلى التشبه بالترك الكفرة، كما قال الله تعالى في الحديث القدسي: «قل لعبادي، المتوجهين إلي، لا يدخلون مداخل أعدائي. ولا يلبسون ملابس أعدائي، فيكونون هم أعدائي. كما هم أعدائي.. فكل الذي يكون من علاماتهم ولباساتهم فأتروكوها»<sup>(١)</sup>

وهو يحدثهم عن أن رسول الله ﷺ، قد أمره بذلك، وحرضه عليه، فعداء الترك واحد من «المهام المهدية»، فيقول لأتباعه: «لقد حرضني سيد الوجود ﷺ على قتال الترك وجهادهم لقد أمرنا النبي أمراً صريحاً بقتال الترك، وأخبرنا بأنهم كفار، لمخالفتهم أمر الرسول باتباعنا، ولإرادتهم إطفاء نور الله تعالى الذي أراد به إظهار عدله.. ولقد أعلمني الرسول أن الترك لا تطهرهم المواعظ، بل لا يطهرهم إلا السيف، إلا من تداركه الله بلطفه»<sup>(٢)</sup>

وهو يذكرهم بظلم الترك وعسقمهم فيقول: «إن الترك قد وضعوا الجزية في رقابكم، مع سائر المسلمين.. وكانوا يسحبون

(١) [منشورات المهدية] ص ١٦٦ - تحقيق: د. محمد إبراهيم أبو سليم - طبعة بيروت سنة ١٩٦٩ م.

(٢) المصدر السابق - ص ٧٤، ٣١١، ٣١٢، ٣٣٢.

رجالكم، ويسجنونهم في القيود، ويأسرون نساءكم وأولادكم، ويقتلون النفس التي حرم الله بغير حقها. وكل ذلك لأجل الجزية التي لم يأمر الله بها ولا رسوله.. فلم يرحموا صغيركم ولم يوقروا كبيركم!..»

فشحن قومه يشحنة قومية. عندما استنفر فيهم روح «المغايرة» للأتراك.. وكان هذا إسهامًا «للمهدية» على درب التمايز القومي عن الأتراك العثمانيين.

\* \* \*

■ وأمام «الفكرية» التي بلغت بها «طرق» التصوف والمتصوفة قمة الخرافة والشعوذة، كانت دعوة «المهدية» إلى سلفية تحرر العقل من هذه القيود والأغلال التي عطلت طاقات الفكر الإسلامي. وتكشف عن هذا الفكر الركाम الذي أفقده معالمه الحقيقية.. فدعت «المهدية» إلى العودة للمنابع، وإسقاط التفسيرات التي جاءت بنت زمانها وظروفها، بعد أن مر الزمان وتغيرت الظروف.. فالمتقدمون رجال «فكروا» لعصورهم، ونحن رجال «نفكر»، في إطار الأصول، لعصرنا.. ولقد حدث «المهدي» أنصاره، وحاور مجادلبيه فقال لهم: «لا تعرضوا لى بنصوصكم وعلومكم عن المتقدمين. فكل وقت ومقام حال، ولكل زمان وآوان رجال.. ولقد كانت الآيات تنسخ، في زمن النبي. على حسب مصالح الخلق. وكذلك الأحاديث ينسخ بعضها البعض على حسب المصالح.. نحن نقفوا آثار

(٧) المصدر السابق - ص ٤٦، ٤٧

من سلف من المهتدين السالفين، على نهج محمد، ﷺ  
فاتبعوا، أحيائي، كلام الله في القرآن، ولا تتبعوا ترهات فانت  
الزمان! وقد بايعتموني على أن لا تشركوا بالله شيئاً...»<sup>(١)</sup>

لقد عادت «المهدية» على الجبهة الفكرية، لتستلهم المنابع  
الأولى.. فالمهدي: خليفة الرسول، وخلفاؤه هم الخلفاء الراشدون  
الأربعة.. وهم قد تخطوا بذلك تجارب الأمة المأساوية التي مزقت  
الشمْل وأفقدت حضارتنا الاستقلال.. وعلى الجبهة الفكرية ألغت  
«المهدية» تراث المذاهب الفقهية - أو حولته إلى «تراث تاريخي» -  
ودوّن «المهدي» للشعب أحكاماً فقهية لم تلتزم بمذهب فقهي واحد -  
وإن وضع فيها أثر المذهب الشافعي أكثر من غيره.. كما ألغت  
«الطرق الصوفية» وتراثها الخرافي.. وعادت تستلهم الكتاب والسنة،  
وتعلى من قدر «المصلحة» في تفسيرها لنصوصهما المتعلقة بأمور  
الدنيا، وتسلك سبيل الاجتهاد إلى هذه السلفية الجديدة!

وكان هذا إسهاماً لا ينكر على درب الاستقلال الحضاري للأمة:

\* \* \*

■ وعلى جبهة «التمدن»، وجدت «المهدية» في «جماعية الفكر  
الاجتماعي للإسلام» الفكر النظري الذي يلبي احتياجات  
المجتمع السوداني، القبطي والبسيط، والذي لم تتمايز فيه بعد  
الطبقات تمايزاً حاداً وراسخاً وعريقاً.. كما وجدت فيها العلاج  
الثوري الناجع للمظالم الاجتماعية التي رزح الناس تحت نيرها  
واكتنوا بتارها قروناً تطاول عليها الأمد!

(١) المصدر السابق: ص ٢٨٨ ، ٢٩١

لقد انحاز الحكام والفقهاء إلى صف أعداء «المهدية» ومعهم المنتفعون بالظلم الاجتماعي الذي ساد قبل الثورة.. أما أتباع «المهدي» وأنصاره فإن أغليبتهم الساحقة قد تألفت من العامة والفقراء والأعراب، الذين حرموا من الثروة، ومن العلم معاً، و«المهدي» قد استنفر جماهيره إلى الجهاد بالجنة الموعودة، وهياً لهم سبل العيش وأدوات الجهاد بالجماعية الإسلامية التي أقامها لهم في الثروات والأموال والاقتصاد.

وعندما كان خصوم «المهدية» يعيبون عليها فقر أتباعها في المال والتعليم، كان «المهدي» يفاخر ويفخر على هؤلاء الخصوم بهذا الفقر! فيراه شرفاً ويسلكه هو وأتباعه في سلك السلف الصالح.. فيقول: «إن أتباع الرسل كانوا هم الضعفاء والجهلاء.. أما الملوك والأغنياء وأهل الترفه فلم يتبعوهم إلا بعد أن خربوا ديارهم وقتلوا أشرافهم وملكوهم بالقهر، كما قال تعالى، حاكياً عن قوم نوح: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَأَيْنَا بُدِي الرَّأْيِ﴾<sup>(١)</sup>.. وقال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٣٤)﴾ وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعتدين<sup>(٢)</sup>.. ولقد قال أهل الغنى والطغيان عن أتباع نبينا: إنهم الأجلاف الأعراب، عراة الأجساد، جياع الأكباد.. فلم ينفعهم غناهم، بل ضربت عليهم الذلة والمسكنة.. وجعلهم الله غنيمة الضعفاء الأعراب

(١) هود: ٢٧.

(٢) سبأ: ٣٤، ٣٥.

الذين كانوا يستهزئون بهم.. وكذلك فرجو الله أن يكون الأغنياء،  
ومن وراءهم، غنيمة الليقارة والجهلاء والأعراب...»<sup>(١)</sup>

ويورد «المهدي» على خصومه، من الأثرياء، والفقهاء المدافعين  
عن الأثرياء، بحجة أنه قد كان في صحابة رسول الله ﷺ من كانوا  
أغنياء، يملكون أسباب الثروة، يرد «المهدي» على خصومه هؤلاء،  
ويناقش شبهتهم، فيقول: «... إن الصحابة الذين باشروا الأسباب<sup>(٢)</sup>،  
لم يدخلوا فيها إلا بعد الخروج عن كل شيء، حتى تمكن نور الإيمان  
في قلوبهم... ومن كان عنده منهم أسباب فهي إنما كانت في أيديهم،  
لا في قلوبهم.. وكانوا عليها كالوكلاء، ينفقونها حسب أوامر  
موكلهم ومولاهم. ولذا قال لهم ربهم ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ  
مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾<sup>(٣)</sup> ولم يقل: وأنفقوا مما ملكتموه! وقال ﷺ:  
«آخر أصحابي دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف، لمكان غنائه.. وهو  
أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتي»<sup>(٤)</sup>

وانطلاقاً من هذا الفكر الإسلامي المنحاز إلى الجماعية،  
واستجابة لضرورات المجتمع السوداني وطابعه، أقام «المهدي»  
التجربة الاجتماعية المتميزة عن التطبيقات العثمانية والمملوكية.  
وعن تطبيقات الحضارة الأوربية في الأموال والاقتصاد. ففي  
البيعة له «بالمهدية»، كان المبايعون يعطونه أنفسهم وأموالهم  
وهو هنا الرمز والتجسيد للجماعة و«للدولة»<sup>(٥)</sup> وفي الأرض

(١) [منشورات المهديّة] ص ٣١٣، ٣١٤

(٢) الأسباب تقارب ما نسميه اليوم «رأس المال» الذي يستثمر.

(٣) الحديد ٧.

(٤) [منشورات المهديّة] ص ٢٢، ٣٤، ٥١، ٥٢، ٢٦٧.



الزراعية، وقف بالملكية عند الحد الذي يستطيع الإنسان المالك أن يزرعه.. وما زاد على ذلك «يعطيه لأخيه المؤمن المحتاج».. أما الدكاكين، والوكالات التجارية، والقيصریات، والمعاصر والطواحين، وموانئ السفن (المشارع) - والحدائق.. إلخ.. إلخ.. فلقد اعتبرت، كالفیء، مصالح عامة، فهي للمجاهدين والمساكين!

وفي هذا التنظيم الاجتماعي الجماعي، تقررت للإنسان المقادير الكافئة سد ما له من احتياجات ضرورية، دون ما زاد على الضرورات. «فمن انضم للجهد فله ضرورته والزائد على الضرورة، إنما هو على العبد، لا له».. ومصالح الخلق كلها متعلقة ببيت المال!.. «كما يقول «المهدي»».

هكذا أبدعت «المهدية» في «التمدن» وفي ميدانه الاجتماعي خاصة، أمراً متميزاً، استلهمت فيه جماعية الإسلام واستجابت به لضرورات المجتمع ومصلحه.

أما في الميدان السياسي «للمتمدن» فلقد كانت «المهدية» إبداعاً يستلهم الأسطورة التراثية التي جعلت من «المهدي» ذلك البطل الأسطوري الذي تعدد السماء لينتشل المجتمع من أزمته ويخلصه من مأزقه، فيملأ الأرض عدلاً بعد أن امتلأت بالجور والفساد!



هذا عن دعوات التجديد الديني السلفية: «الوهابية».. و«السنوسية».. و«المهدية».. ومدى إسهام تجديدها السلفي في الاقتراب من مطلب أمتنا في «الاستقلال الحضاري»..

(١) المصدر السابق، ص ٢٢٨، ٢٤٥، ١٦٤، ١٩٦، ١٩٧، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٨، ٢٧١

وإذا كانت هذه الدعوات وحركاتها قد منعتها «بداوة البيئة» من أن تولي «التمدن» ما يجعله النموذج الصالح للتعميم، والوافي باحتياجات النهضة الكفيلة بمواجهة الغزوة الأوربية المسلحة بحضارتها الحديثة، فإن هناك «قصيلة» أخرى من فصائل التجديد الديني قد برزت دعوتها من هذه الثغرات والسلبيات، وهي مدرسة [الجامعة الإسلامية]، التي تبلورت من حول جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ = ١٨٢٨ - ١٧٩٧ م] والإمام محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] وعبد الرحمن الكواكبي [١٢٧٠ - ١٣٢٠ هـ = ١٨٥٤ - ١٩٠٢ م] وعبد الحميد بن باديس [١٣٠٥ - ١٣٥٩ هـ = ١٨٨٧ - ١٩٤٠ م]. فتتبار [الجامعة الإسلامية] هذا قد استفاد من تجارب أمتنا في هذا الميدان.. ولذلك وجدنا عنده:

- أ- السلفية في الدين، تجده.. والعقلانية أداة في هذا التجديد..
- ب- العروبة في القومية.. على أسس حضارية، غير عرقية..
- ج- الموازنة بين الخصوصية الحضارية، وبين الاستفادة من الحضارات الأخرى.

د- النظرة المستقبلية المستنيرة في «التمدن»..

هـ - الموازنة بين «الخصوصية القومية» للعرب، وبين «الرابطة الإسلامية» الجامعة لقوميات أمة الإسلام.

ففى فكر أعلام هذا التيار - الذى لم تقم بعد التجربة التى تجسده- تكتمل العناصر الأولية، والضرورية لمشروع الاستقلال الحضارى لأمتنا العربية الإسلامية!

## النهضة المصرية والاستقلال الحضارى

الأمر الذى لا شك فيه أن النهضة المصرية - التى قادها محمد على باشا الكبير [١١٨٤ - ١٢٦٥ هـ = ١٧٧٠ - ١٨٤٩ م] هى التى دخلت بعالمنا العربى وشرقنا الإسلامى إلى رحاب عصر اليقظة والبعث والإحياء.. العصر الحديث!

لقد تطلعت مصر إلى هذه النهضة على عهد حكم على بك الكبير [١١٤٠ - ١١٨٧ هـ = ١٧٢٨ - ١٧٧٣ م]. ثم جاءت الحملة الفرنسية [١٢١٣ هـ - ١٧٩٨ م] لتنبه الأذهان بواسطة الخطر القادم فى ركاب الغزو الاستعمارى، ولتلعب دور «الماس الكهربائى»، الذى لم يصعق ضحيته فيميتها، ولم يكن المصدر الحقيقى ليقظتها ومبعث حياتها، وإنما كان «المنبه» لها كى تستيقظ، فتعوى العصر، وتدخل فيما يدخل فيه الأحياء المعاصرون.. ولقد تجسد هذا الأثر فى كلمات شيخ الأزهر، الذى خالط علماء الحملة الفرنسية، الشيخ حسن العطار [١١٨٠ - ١٢٥٠ هـ = ١٧٦٦ - ١٨٣٥ م] والذى تقول: «إن بلادنا لا بد أن

تتغير، ويتجدد فيها من العلوم والمعارف ما ليس فيها<sup>١٩</sup>... ثم جاءت التجربة الإصلاحية التي قادها محمد علي لتضع أبنية الشيخ العطار في الممارسة والتطبيق!

صحيح أن دعوات دينية سلفية قد سبقت النهضة المصرية هذه في بلادنا العربية، وحاولت التصدي لخطر «التخلف الذاتي القديم»، الموروث عن العصر «المملوكي - العثماني»، والذي يشل خطو الأمة ويكبل عقلها، فيحول بينها وبين النهوض وخطر «التقدم الغربي الحديث» الذي جاء في ركاب الغزوة الأوربية الحديثة، يريد نهب خيرات الأرض، واحتلال مواقعها الاستراتيجية، وتأييد ذلك وتكريسه بمسح شخصيتها القومية المتميزة، وسلخها عن قسَمات حضارتها العربية الإسلامية الخاصة بها..

لكن هذه الدعوات الدينية السلفية، التي سبقت النهضة المصرية في الزمن، أو واكبتها، قد سلكت طريقاً متميزاً عن ذلك الذي سلكه محمد علي وهو يسعى، بمصر، في طريق النهضة والإصلاح..

■ ف «الوهابية»، مثلاً، قد كانت لها الريادة، من حيث الزمن المبكر والتوقيت الذي سبق النهضة المصرية بأكثر من نصف قرن.. فلقد تبلورت - كما قدمنا - حول داعيتها محمد بن عبد الوهاب [١١١٥ - ١٢٠٦ هـ = ١٧٠٣ - ١٧٩٢ م] في «تجدد» يشبه الجزيرة العربية. وأقامت «دولتها» منذ أن تحالف ابن عبد الوهاب مع أمير «الدرعية» محمد بن سعود [١١٥٨ هـ - ١٧٤٥ م].

■ أما «السنوسية»، فإنها عاصرت نهضة محمد علي.. ثم استمرت بعدها.. فهي قد تبلورت - كما سبق وأشرنا - حول

داعيتها ومؤسستها محمد بن علي السنوسي [١٢٠٢ - ١٢٧٦هـ = ١٧٨٧ - ١٨٥٩م].. وأقامت «زواياها» وكونت قاداتها ومريديها، وأنجزت أعظم إنجازاتها خلال القرن التاسع عشر والعقود الأولى من القرن العشرين..

لكن.. لا السبق التاريخي، الذي كان «للوهابية» على نهضة محمد علي.. ولا الاستمرارية التي تحققت «للسنوسية» بعد حصار أوربا والعثمانيين لنهضة مصر الحديثة، يمكن أن يعقد لواء قيادة الشرق إلى عصر النهضة والإحياء لهذه الدعوات.. وإنما يظل لواء هذه الريادة معقوداً لمصر، فهي التي دخلت بأممتها العربية، بل وبعمالنا الإسلامى إلى رحاب العصر الحديث، وخطت لهما معالم اليقظة والتنوير..

أما سبب هذه الريادة، فهو ما تميزت به وامتازت تلك النهضة عن تلك الحركات التجديدية الدينية السلفية من خصائص ومميزات.. وفي مقدمتها:

أ - أن هذه النهضة المصرية قد نشأت وتبلورت في مجتمع متحضر نسبياً، وفي مناخ يأتى بمقاييس التمدن والتحضر، في ظليعة دول الوطن العربى وأقاليم عالم الإسلام.. «فالدولة» - بل والدولة المركزية القوية - لها في مصر أطول عمر في تاريخ «الدولة» على الإطلاق!

والطبقات الاجتماعية متبلورة إلى حد كبير.. والمواريث الفكرية قد تجاوزت «التبسيط» إلى «التركيب».. والأزهر - رغم ما

شابه من جمود العصور الوسطى - قد حفظ شعلة العلم والتعليم موقدة ومضيئة في ليل العصر «الملوكى - العثمانى» الطويل! والوضع القائد لمصر - كمركز خلافة أو سلطنة أو المتميز، على الأقل كولاية تتمتع بالاستقلال الذاتى - قد ثبت، وفرض نفسه، وأحدث آثاره على وضع البلاد وعلاقاتها بأقاليم الدولة الإسلامية وولاياتها منذ أن استقل بها الطولونيون، فى عهد مؤسس دولتهم أحمد بن طولون [٢٢٠ - ٢٧٠هـ = ٨٣٥ - ٨٨٤م] وألحقوا بها أقاليم أخرى فى المشرق العربى.

فلم تكن مصر: «نجد الصحراء»! ولا هى كانت: «الصحراء الليبية»! ب- كما تميزت هذه النهضة المصرية، التى قادها محمد على باشا، بكونها حركة «إصلاح مدنى»، قادها «مصلحون مدنيون»، ونهضت بأعبائها كوكبة من المثقفين والعلماء والقادة والمديرون الذين تميزوا عن «المصلحين الدينيين»، والذين لم يتقدموا إلى الأمة «كفقهاء وعلماء دين»، فالمنطلقات للإصلاح كانت «مدنية»، والمعايير فى هذا الإصلاح كانت «مصلحة الأمة»، والموقف من الدين، فى هذه التجربة، قد تمثل فى:

- تجذب الاصطدام «بممثليه»، الذين رفضوا «الإصلاح المدنى»، أو تحفظوا إزاءه، مع تركهم لعالمهم، وترك عالمهم لهم، يعيشون فيه ويفكرون له، على نحو ما كان الحال قبل عصر النهضة والإصلاح؛
- وتجنب أن يأتى «الإصلاح المدنى» - الذى سعت إليه التجربة، وطبقته - مأساً بشىء من المسلمات الدينية التى أجمع



الناس على قدسيتها، أو منكراً لأمر من الأمور التي عرفت من الدين بالضرورة، أو مصطدماً بتصور من التصورات التي اكتسبت قداسة الدين، وذلك حتى لا تنحاز الفرصة لأعداء الإصلاح، من علماء الدين، لاستنفار العامة ضد هذا الإصلاح.

ولم يكن موقف محمد على هذا من الدين وعلمائه اختياراً فكرياً حرّاً، فهو لم يعتمد على الإسلام في نهضته الإصلاحية، ولم يؤسس هذه النهضة على التجديد الإسلامى والإسلام المتجدد، لأنه ضد الإسلام، وضد أن ينهض الدين بدور الأساس، والحافز فى النهضة، على نحو ما صنع «العلمانيون» فى النهضة الأوروبية، وإنما الذى حكم موقف محمد على هذا، وحدد له «المصلحة المدنية»، لا «السلفية الدينية» معياراً وإطاراً للإصلاح هو.

١- أن الرجل لم يكن من علماء الدين.. وفاقده الشيء لا يعطيه! ثم أنه هو الذى بدأ الإصلاح وقاده، ولم يكن «سيفاً» بيد «العمامة» كما كان حال ابن سعود مع ابن عبد الوهاب!

٢- أن صورة القيادات الدينية قبيل عصره، وفى السنوات الأولى من حكمه على وجه الخصوص، لم تكن - فى جملتها وأغلبيتها - لتفرض الاحترام على من هو فى مثل طموح هذا الرجل! فالكثيرون من شيوخ الأزهر كانوا قد شغلتهم عائداتهم المالية من «دوائر الالتزام» و «نظارات الأوقاف»، حتى غدا رجال دنيا، إن لم نقل طلاب ترف دنوى، يقتربون فى سبيل تحصيله ما لا يليق بعلماء الدين، فضلاً عن يتصدى منهم لقيادة الإصلاح! وفى وصف الجبرتي [١١٦٧ - ١٢٣٧ هـ =

١٧٥٤-١٨٢٢م] لحالهم هذا يقول - وهو الشيخ في الدين. وفي التاريخ الصادق:- «إنهم افتتنوا بالدنيا، وهجروا المسائل ومدارسة العلم إلا بمقدار حفظ الناموس، مع ترك العمل بالكلية، وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد أمراء المماليك، واتخذوا الخدم والمقدمين والأعوان، وأجروا الحبس والتعذيب والضرب، وصار دينهم واجتماعهم ذكر الأمور الدنيوية، والحصص، والالتزام، وحساب الميرى، والفائض، والمضاف، والرماية، والمرافعات والمراسلات.. زيادة عما هو بينهم من التفاضل والتحاسد والتحاقد على الرياسة والتفاقم والتكالب على سفاسف الأمور، وحفظ الأنفس على الأشياء الواهية؟...»<sup>(١)</sup>

٣- حتى الرجل الذى تميز عن هؤلاء العلماء والشيوخ بالثورية، والارتباط بالجماهير، وهو السيد عمر مكرم [١١٦٨- ١٢٣٧هـ = ١٧٥٥ - ١٨٢٢م] كان حاله وحال محمد على باشا على نحو يجعل التعاون بينهما شبه مستحيل، فطموحهما معاً كان بلا حدود، الأمر الذى جعل صدامهما يأتى مبكراً جداً.. فلما خذل الشيوخ زميلهم السيد عمر، وباعوه «بالجرايات» ونظارات الأوقاف، مال هو كذلك إلى نصره المماليك، كشركاء فى «العبة السلطة»، كى يحول دون انفراد محمد على بها، فحدثت المفارقة العجيبة عندما انتصر الشيخ الثائر لأركان النظام الظالم القديم، وهو الذى سبق له أن قاد الأمة ضد هذا النظام القديم! فكان أن

(١) [عجائب الآثار فى التراجم والأخبار] ج ٧ ص ١٤، ١٥ - طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨م.

تخلص منه محمد على بقرارات وافق عليها «العلماء»  
و«محاضر» تطوع بتزييفها هؤلاء العلماء»<sup>(١)</sup>

٤- والفكرية المحافظة والجامدة التي كان عليها هؤلاء  
الشيوخ.. فكرية العصور الوسطى، التي استنامت إلى غلق باب  
الاجتهاد، واستمرت الكسل العقلي عن معاناة الخلق والإبداع،  
واكتفت بالحكايات اللفظية في ترديد «المتون» و«الحواشي»  
و«النشرو» و«التعليقات» و«التلخيصات» و«الاعتراضات»... إلخ..  
إلخ.. إن هذه الفكرية ما كان لها ولا لأصحابها أن يكونوا شرارة  
الإصلاح ولا قاداته الذين يجعلون من فكرهم «أيديولوجية»  
النهضة، ومن قائد مثل محمد على اليد التي تزرع الإصلاح  
الإسلامي في تربة مصر وعقل الأمة ووجدانها.. لقد كان هؤلاء  
الشيوخ يعيشون أسرى فكرية العصر القديم.. بينما كانت البلاد  
تنتلح إلى عصر جديد، فكان الانفصام بينهم وبين هذه النهضة  
قدرًا مقدورًا.. وصدق عليهم، إزاء «الإصلاح المدني»، ما صدق  
على محمد على، إزاء «الإصلاح الديني»: فاقدر الشيء لا يعطيه!

هكذا تميزت نهضة محمد على عن حركات الإصلاح الديني  
ودعواته.. لأنها لم تجد المصلح الديني، الذي تواكب استنارته  
الدينية مجتمعًا متحضرًا كمصر.. فكان أن بدأت نهضة «إصلاح  
مدني»، إن في المنطلقات وإن في المعايير وإن في الغايات وإن  
في الأدوات.. وإن لم يخرجها طابعها «المدني» عن النسق الحافظ  
لاستمرارية روح شريعة الإسلام.

(١) المصدر السابق ج ٧ ص ٦٧ - ٧٦ .

■ في القاعدة المادية «للتمدن» انتقلت نهضة محمد علي بمصر إلى مرحلة جديدة، وبلغت بها «كمية» الإصلاحات إلى حال «كيفي» جديد..

ففي الزراعة: ألغى نظام «الالتزام» [١٢٢٩هـ - ١٨١٤م].. ووزعت الأرض على الفلاحين «تكليفاً» - من ثلاثة أفدنة إلى خمسة أفدنة - وسيطرت الدولة، بالتخطيط، على الإنتاج الزراعي، وتطورت المحاصيل.. وحدثت ثورة في الري والصرف، وزادت الرقعة المزروعة، أفقيًا، إلى نحو ثلاثة أمثالها.. وتحول أهل الريف من «أقنان» إلى فلاحين!

وفي التجارة: أنهت سيطرة الدولة سيادة التجار الأجانب على السوق الداخلي والخارجي للتجارة المصرية.. وسدّت ثغرة ضعف البورجوازية التجارية الوطنية، التي نفذ منها التجار الأجانب للسوق التجاري.. وتطورت التجارة كمًّا وكيفًا.. وخضعت للمشروع الاقتصادي المستقل.

وفي الصناعة: أقامت النهضة قاعدة صناعية كبرى وحديثة، ومرتبطة بالإنتاج الوطني - عسكرية ومدنية.. برأسمالية الدولة، وتخطيطها، وإدارتها.. وكانت سابقة في ذلك، كمًّا وكيفًا، لليابان، وللولايات الألمانية مجتمعة - ولم تكن قد اتحدت هذه الولايات الألمانية، بعد!

وفي جهاز الدولة: بدأت البعثات العلمية، التي درست «التمدن الأوربي» في النهوض بتكوين جهاز دولة حديث.. وفي تطوير

الثقافة العربية الإسلامية، وزيادة بعث التراث وإحيائه، ومواصلة  
 المسيرة التي توقفت بسيادة عصر الجمود الحضارى.. ووضح لرواد  
 الثقافة والفكر هؤلاء أنهم يواصلون، فى عهد محمد على، مهام  
 نظرائهم فى عصر الخليفة العباسى المأمون [١٧٠ - ٢١٨هـ =  
 ٧٨٦ - ٨٣٣م]. كما تكون الجيش الوطنى الحديث سنة [١٢٣٥هـ -  
 ١٨٢٠م] لحماية النهضة، وتمهيد السبيل أمامها كي تأخذ مداها..  
 وفى الفكر بدأت العربية تتجاوز منحدر الركاکة وتتجه،  
 عائدة، إلى الفصاحة.. وشرعت المكتبة العربية تزدان بذخائر  
 التراث العربى الإسلامى التى جاورت المترجمات الحديثة فى  
 مختلف العلوم والفنون.. وتحركت طاقات الإبداع الفكرى  
 لتصنع - على الجبهة الفكرية - شيئاً عظيماً ومتميزاً.  
 فكان هذا جميعه - وهو مجرد إشارة لصرح عملاق - إنجازاً  
 غير عادى على درب التمدن الحديث..



■ وانتقلت النهضة من «الإطار العثمانى» إلى «الدائرة  
 العربية»، ببطء وتدرىج.. فمحمد على والعديد من كبار معاونيه  
 هم «عثمانيون» غير غرب، إن بالجنس وإن بالثقافة.. لكنهم  
 تناقضوا مع الدولة العثمانية، ورأوا أن ضعفها، المستعصى على  
 العلاج، يغرر بحراس هذا الضعف من المستعمرين الأوربيين  
 بوراثه تركتها، فسعوا إلى تجديدها، فتحالفت مع حراس ضعفها  
 الطامعين بوراثتها، ضد محاولات الإصلاح؟

ثم هي قد استعانت بمحمد على وجيشه لمحاربة الوهابيين. فأنغمس بجيشه هذا في حرب عربية، ببلاد عربية تسع سنوات [١٢٢٦-١٢٣٤هـ = ١٨١١-١٨١٨م].. وأصبح بانتصاره في هذه الحرب، هو الحامي الحقيقي للحرمين الشريفين.. فقتلح - بمصر وإمكاناتها - إلى الشام، ولاحت في الأفق خريطة دولة صلاح الدين الأيوبي [٥٣٢ - ٥٨٩هـ = ١١٣٧ - ١١٩٣م] التي كانت طوق النجاة من خطر قديم عاد الآن من جديد!

ثم إن البعثات العلمية قد كونت كوادير عربية للدولة، أخذت تزامن كوكبة القادة الذين أتوا مع محمد على إلى مصر صغاراً، فنشئوا فيها نشأة عربية، جعلتهم يعتزون بالعروبة، وينفرون من الانتساب إلى الأتراك.. وفي مقدمة هؤلاء القادة ابن محمد على، إبراهيم باشا [١٢٠٤-١٢٦٤هـ = ١٧٩٠-١٨٤٨م] الذي كان يستنكر نسبته التركية، ويقول: «أنا لست تركياً، فأني جئت مصر صبيّاً، ومنذ ذلك الحين مصرتني شمسها، وغيرت من دمي، وجعلته دماً عربياً»<sup>(١)</sup>.

ومصطفى مختار بك [١٢٥٤هـ - ١٨٣٨م] - أحد كبار مستشاري إبراهيم باشا العسكريين.. وناظر المعارف - الذي يعبر عن هذه «الهوية العربية» عندما يقول: «إننا وإن كنا في الغالب مولودين في تركيا، لكننا قد اكتسبنا الجنسية [القومية] المصرية بحكم التوطن.. فقد جئنا مصر قبل أن نتجاوز سن الصبا، فلسنا

(١) د. محمد عمارة [العروبة في العصر الحديث] ص ١٤٦ - طبعة بيروت سنة ١٩٨١م.



الآن أتركا، ولم يبق فينا ما يربطنا بهذا الشعب الذي لا يترك في طريقه أينما سار سوى دلائل الخراب.. ولقد اندمجنا في أمة أخرى أرقى وأنبل وأذكى من الأمة التركية، اندمجنا في تلك الأمة العربية، التي سبقت أوربا إلى الحضارة، وازدانت أيام عزها وسؤدها بذلك العمران الذي يتجلى للناظرين في المدن الزاهرة التي أنشأتها، والعمائر الجميلة التي أقامتها»<sup>(١)</sup>.

وبذلك تهيأت لهذه النهضة عوامل الانتقال من «الدائرة العثمانية» إلى «الدائرة العربية»، فسعت إلى قيام الدولة العربية، بإحياء القومية العربية، وجعل العربية هي الخط الذي يحدد حدود هذه الدولة.. لتنفذ وطنها وأمتها من الخطر المترصص بوفاة دولة الرجل المريض<sup>(٢)</sup>.

وكانت فتوحات محمد علي في السودان [١٢٣٥ - ١٢٣٧ هـ = ١٨٢٠ - ١٨٢٢ م].. والحملة على الشام [١٢٤٧ هـ - ١٨٣١ م] وشمول النهضة ودولتها: مصر والسودان، والأجزاء العربية على الساحل الشرقي لإفريقيا، مع الشام، وأغلب أجزاء شبه الجزيرة العربية.. وامتداد نفوذها إلى العراق والخليج.. كان ذلك أول «إنجاز عربي» في عصرنا الحديث:

\* \* \*

■ لكن.. ماذا عن علاقة هذه النهضة بالإسلام: الرسالة الخالدة لأمتنا الواحدة؟

(١) المرجع السابق، ص ١٤٦، ١٤٧.

(٢) المرجع السابق، ص ١٣٥ - ١٤٧.

هل انقطعت الصلة بين «تمدنها» وبين «التمدن الإسلامى»؟  
وهل كانت صورة «التمدن الغربى»، أدخل بها محمد على بلادنا  
وأمتنا فى إطار «التغريب»؟

إن البعض يرى ذلك، فيجيب على هذا التساؤل بالإيجاب  
لكنه - فى رأينا - يجانب الواقع، ويجانبه الصواب!

فمنذ البداية كان واضحاً أن محمد على باشا يأخذ عن أوروبا  
«التمدن» الملائم لمجتمعه الشرقى.. ولا يأخذ عنها «القيم» أو  
«الثقافة» أو «النظريات»! والبعثات العلمية التى ذهبت إلى  
أوروبا، وتعلمت، ثم عادت لتصنع الإنجاز العظيم ولتعطى  
النهضة روحها الفكرى - ورفاعة الطهطاوى [١٢١٦ - ١٢٩٠هـ =  
١٨٠١ - ١٨٧٣م] نموذج لها - قد رأت أوروبا بعين إسلامية  
مسلمة، فسعت إلى «التمدن العلمى» وإلى «العلوم العملية»  
وإلى «المعارف البشرية المدنية» وإلى «فنون الصناعة»، ثم  
جاءت بها لتجدد «دنيا» الأمة، مجتهدة فى إثبات عدم مناقضة  
هذه العلوم لما تختص به من «قيم» و«عقائد» وقسمات  
حضارية مميزة لنا. بل وأعلنت أن أصل هذا «التمدن البشرى»  
هو من علوم حضارتنا فى عصر ازدهارها، أخذه الأوربيون  
فنهضوا به، ثم طوروه.. وهم عندما أخذوا منا لم يأخذوا «القيم»  
ولا «الدين» ولا خصائصنا الحضارية، بل ليل أنهم استعانوا  
«بالتمدن الإسلامى والعربى» فى نهضتهم، ومع ذلك ظلوا  
متميزين حضارياً. فتنحن إذ نأخذ اليوم «التمدن الأوربى»  
لننهض به لن نصيح فى الحضارة أوربيين.. وما هى إلا  
بضاعتنا قد ردت إلينا.. كما يقول الطهطاوى!

ويشهد على أن هذا كان موقف هذه النهضة من هذه القضية ذلك الحكم الذى شاع فى كتابات كتاب تيار «التغريب» عند تقييم نهضة محمد على.. فلقد انعقد إجماعهم على نقده لأنه قد أخذ عن أوربا فقط «علوم الصناعة»، ولم يأخذ «القيم» و«النظريات»، ونظروا فى تخصصات البعثات العلمية التى أرسلها لتتعلم هناك فوجدوا ذلك شاهداً لهم على هذا الاتجاه، فزادوا من نقدهم هذا!

وهذا الذى نقدوه وانتقدوه، هو ما يشهد عندنا للرجل والنهضة التى قادها، دون أن يشهد عليهما!

وغير هذا الدليل، الذى يشهد «بالسلب» على ما نقول.. نجد فكر رفاعة الطهطاوى - الذى كان النموذج المجسد لتوعية العلاقة بين «تمدننا الإسلامى» وبين «التمدن الأوروبى» - نجد فكر الطهطاوى يشهد على ما نقول «بالإيجاب»!

لقد انفتح الرجل على «التمدن الأوروبى» ككل الانفتاح، وأنجز على درب الاستفادة منه أعظم الإنجازات، وذلك دون أن يفقد هويته القومية والشرقية، وقيمته الإسلامية الخاصة - بل والأشعرية المحافظة! أو يفقد خصائصه الحضارية العربية الإسلامية.

فهو يتحدث عن أن «البلاد الإفرنجية مشحونة بأنواع المعارف والآداب، التى لا ينكر إيمان أنها تجلب الأنس وتزين العمران»<sup>(١)</sup>.. ويدعو - حتى طلاب الأزهر الشريف - إلى دراسة ما

(١) [الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى] ج ١ ص ٩١ - دراسة وتحقيق - محمد عمارة - طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م.

تتيحه لنا الحضارة الأوربية من «معارف بشرية مدنية» و«علوم حكيمية عملية»، لأن النهضة الحقيقية لا بد لها من هذا «التمدن المدني» الذي سيصبح «تمدناً إسلامياً» عندما يجاور - في أرض الواقع الناهض - عقائدنا وقيمنا وخصائصنا الحضارية.. يدعو رفاعة الطهطاوى الأزهريين إلى ذلك، بل ويرى هذا الأمل معقوداً على انخراطهم في هذا الميدان، فهم، بعلومهم الإسلامية - لغوية، ودينية، وأدبية - الذين سيحققون التوازن، فلا تميل الكفة بالتدريج إلى صالح «التغريب الحضارى»<sup>(١)</sup>

يقول الطهطاوى: «إن مدار سلوك جادة الرشاد والإصابة منوط، بعد ولي الأمر، بهذه العصابة - [أهل الأزهر] - التى ينبغى أن تضيف إلى ما يجب عليها من نشر السنة الشريفة، ورفع أعلام الشريعة المثيفة: معرفة سائر المعارف البشرية المدنية، التى لها مدخل فى تقدم الوطنية.. وإن هذه العلوم الحكيمية نقلها الأجانب إلى لغاتهم من الكتب العربية، ولم تزل كتبها إلى الآن فى خزائن ملوك الإسلام كالذخيرة...»<sup>(٢)</sup>

لقد سمع الطهطاوى، فى باريس، ووعى قول المسيو جومار E.F.Jomard [١٧٧٧ - ١٨٦٢م] - الذى أشرف على بعثات مصر العلمية فى فرنسا - عندما خطب فى البعثة التى ضمت رفاعة، فقال لطلابها: «إنكم منتدبون لتجديد وطنكم، الذى سيكون سبباً فى تمدن الشرق بأسره. فإيا له من نصيب ترقص

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٥٢٣، ٥٢٤.

له طريقا القلوب التي تحب الفخر وتدين بالإخلاص للوطن.  
أمامكم مناهل العرفان. فاغترفوا منها بكلتا يديكم.. وبذلك  
تردون إلى وطنكم منافع الشرائع والفنون التي ازدان بها عدة  
قرون في الأزمان الماضية. فمصر، التي تنوبون عنها، ستسترد  
بكم خواصها الأصيلة. وفرنسا، التي تعلمكم وتهذبكم، تفي ما  
عليها من الدين الذي للشرق على الغرب كله»<sup>(١)</sup>.

سمع الطهطاوى هذا القول ووعاه.. فكان، مع جيله من بناء  
 النهضة، المجددين لدنيا الوطن، والباعثين لمجده، «والمستردين  
لخواصه الأصيلة».. على حد تعبير «جومار»!

ولهذا وجدنا الطهطاوى - في ذات الوقت الذي يدعو فيه إلى هذا  
«التمدن المدنى» - يتحفظ كل التحفظ على ما يناقض مميزاتنا  
 الحضارية في حضارة أوربا. فحضارتنا، مثلاً، قد وازنت بين  
«العقل» وبين «النقل».. بين «التوحيد» - الألوهية - وبين  
«الطباع» - العلية والسببية -.. لكن عقلانية الحضارة الأوربية،  
و«الحق الطبيعى» فيها لا يعرف هذا التوازن، الذى هو روح  
حضارتنا ومزاجها.. ومن هنا كان رفض الطهطاوى لتلك  
«القسمات الحضارية» الأوربية.. وهو يحكى كيف أن للأوربيين فى  
العلوم الفلسفية «حشوات ضلالية، مخالفة لسائر الكتب السماوية،  
ويقيمون عليها أدلة يعمر على الإنسان ردها! إن كتب الفلسفة  
بأسرها محشوة بكثير من هذه البدع.. وليس لنا أن نعتمد على ما

(١) عمر طوسون [البعثات العلمية فى عهد محمد على، ثم فى عهدى عباس الأول  
وسعيد] ص ٣٣، ٣٤ - طبعة الإسكندرية سنة ١٩٣٤م.

يحسنه العقل أو يقبحه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه..  
فتحسين التوأميس الطبيعية لا يعتد به إلا إذا قرره الشرع...!!

فـ «العقل» الذى يتحفظ الطهطاوى، هنا على تحسينه أو تقبيحه  
للأشياء - ما لم يؤيد الشرع حسنها أو قبحها - هو «العقل» فى  
الحضارة الأوربية، المنكر «النقل»، والذى لا يقيم من «الوحي»  
إطاراً يتحرك فيه.. أما «العقل» فى حضارتنا العربية الإسلامية،  
ذلك الذى زامل «النقل» وتأخى معه فى الهداية للإنسان، بالتوازن  
الذى أثمره إخاؤهما، فهو ما تتميز به حضارتنا وتمتاز.. ولسنا  
مدعويين، من قبل الطهطاوى والنهضة التى كان علماً عليها، إلى  
التخلي عن هذا الذى يميزنا، حضاريًا، عن الأوربيين..



لكن...

لا بد من الاعتراف بأن الأمور لم يكتمل سيرها فى هذا الاتجاه..  
«فالمؤسسة الدينية» - المفترض تعبيرها عن مقاييسنا  
الإسلامية! - قد تحصنت بفكرية العصور المظلمة، ورفضت  
النهضة وتمدنها.. والدولة الحديثة قد خشيت فرض الإصلاح  
والتطوير داخل صحن الأزهر وحصنه.. فتركت أهله وشأنهم.  
وأقامت «التعليم المدنى» الذى ابتعد شيئاً عن الصلات القوية  
والخيوط المتينة التى تشده إلى الإسلام وتراثه.

والغرب قد رمى بكل ثقله فى بث إشعاعاته الفكرية، فازداد  
تأثير «قيمته» و «ثقافته» وحضارته على مؤسسات الفكر

(١) [الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى] ج ١ ص ١١٤، ١١٥



والعلم والتعليم في بلادنا، بل لقد تحالف العثمانيون مع الغرب ضد طموح نهضتنا إلى استكمال مقومات استقلالها الحضاري، عندما استعانوا بالاستعمار على ضرب استقلال «المشروع المصري - العربي» منذ سنة ١٨٤٠م<sup>١</sup>

ثم كانت منعطفات حاسمة، ومراحل تحولات أساسية احتاجت فيها «الدولة» - كي تستجيب لضرورات الواقع الجديد- إلى تجديد الفكر الإسلامي، بالاجتهاد، وإلى تطوير «الفقه» - فقه المعاملات لتتمكن «المؤسسة القانونية» من الفصل في المعاملات التي استجدت، كما حدث في عصر الخديوي إسماعيل [١٢٨٠ - ١٢٩٦ هـ = ١٨٦٣ - ١٨٧٩م]. ويومها جمد أركان «المؤسسة الدينية»، فلم يستجيبوا لرغبة «الدولة».. بل لقد اعتبروا ذلك مما لا يحل ولا يجوز؟! فكان أن لجأت «الدولة» إلى القوانين الوضعية الغربية فاستوردتها، الأمر الذي أفقد مؤسساتنا القانونية استقلالها، وأفقد حضارتنا شرطاً من شروط الاستقلال.. وكان ذلك نموذجاً لميل الكفة، في هذه النهضة، نحو «التفريب»، وبعدها عن الوفاء الحق بمتطلبات الاستقلال الحضاري الحق.. لقد فتح «كود نابليون» و«المحاكم المختلطة» ثغرة في استقلالنا التشريعي، منذ الاحتلال الإنجليزي، وعلى يد «كرومر» في سنة ١٨٨٣م.

إن المفكر السلفي ابن قيم الجوزية [٦٩١ - ٧٥١ هـ = ١٢٩٢ - ١٣٥٠م] يحكي لنا عن عصره المملوكي موقفاً مماثلاً؛ فيصور في كتابه [إعلام الموقعين] كيف ألجأ جمود القائمين

على الشريعة الإسلامية الملوك والولاة إلى التشريع للناس وفق  
الهوى والشهوات<sup>(١)</sup>.

ولقد تكرر هذا المشهد في عصر الخديوى إسماعيل.. وظل يتكرر  
كلما تحصن «أهل الذكر» - من علماء الشرع - بالجمود، فعاشوا  
خارج العصر.. على حين أخذ الغرب الاستعماري يسارع فى تقديم  
بضاعته الجاهزة والمتسقة للحكام الشرقيين، ويبدل قصارى  
جهده لتكون هذه البضاعة هى البديل الذى يوضع فى التطبيق..



هكذا سارت الأمور.. حتى دخلت أمتنا إلى النصف الثانى من  
القرن التاسع عشر..

■ الحركات الإصلاحية الدينية السلفية: منعها البداوة.. بداوة  
البيئة من أن تولى «التمدن» ما يجعله النموذج الصالح للتعميم  
والوافى باحتياجات النهضة الكفيلة بمواجهة الغزوة الأوربية  
المسلحة بحضارتها الحديثة، وأيضاً الوافى باحتياجات أمة تريد  
تعويض التخلف، وتحصين وطنها لمجابهة ما يأتى به المستقبل  
من تحديات..

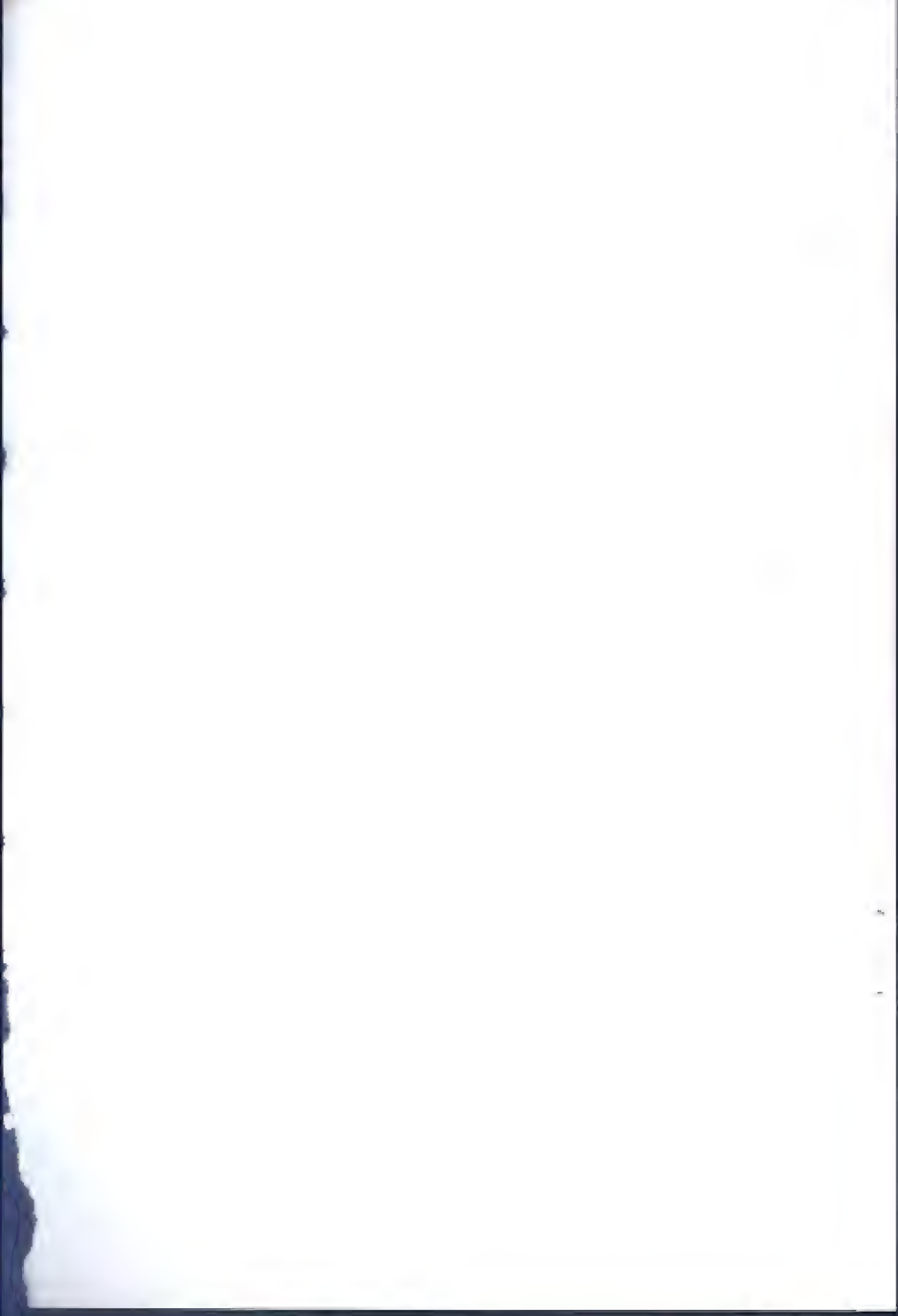
■ ونهضة محمد على - وخاصة بعد حصارها، وفرض القيود  
على استقلاليتها - قد حرمتها المحافظة الدينية والجمود  
الأزهري من فرصة تأسيس «تمدنها» على أسس إسلامية  
خالصة.. فنفذ الغرب من هذه الثغرة، فمال «تمدن» هذه النهضة  
ناحية «التغريب»، فلم يكن الاستقلال الحضارى الذى نريده!

(١) [إعلام الموقعين] ج ٤ ص ٣٧٢، ٣٧٣ - طبعة بيروت سنة ١٩٧٢

فكان أن ظلت الأمة تبحث عن التيار الفكرى الذى يجمع، فى أطروحاته كل فضائل النهضة الحضارية، وجميع شروط استقلالها. وعندما تبلور هذا التيار فى دعوة [الجامعة الإسلامية] وحركتها، التى قادها جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده، حاربه دعاة «التغريب»، وأنصار «الجمود» معاً!

وحالوا بين فكره فى النهضة وبين أن ينتشر أو يوضع فى التطبيق!

لكن ذلك لم يمنع من أن يكون هذا التيار - «السلفى - العقلانى - المستنير» - هو أكثر تيارات التجديد، التى عرفت بها أمتنا حديثاً، استجابة لمتطلبات الاستقلال الحضارى لأمتنا العربية الإسلامية.



## تيار الجامعة الإسلامية والاستقلال الحضارى

### أعلام هذا التيار:

أعلام تيار [الجامعة الإسلامية] كثيرون، وانتشارهم، بالذات أو بالفكر، قد غطى أنحاء الوطن العربى والعالم الإسلامى، وقد يتميز واحد منهم بقسمة فكرية عن آخر، وقد تدعو البيئة أو الأولويات أو طبيعة التحديدات إلى أن يكون تركيز بعضهم على قضايا بعينها دون القضايا الأخرى، لكنهم، فى مجموعهم، قد جمعتهم القسمة العامة التى ميزت هذا التيار التجديدى عن غيره من التيارات..

■ وأول أعلام هذا التيار هو جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤هـ = ١٨٢٨ - ١٨٩٣م].. عربى النسب - وإن ولد ونشأ فى بلاد الأفغان - فنسبه يرجع إلى الإمام الحسين بن على بن أبى طالب، رضى الله عنهما.. وعربى العقل والفكر منذ نشأته الأولى، فقبل أن يبلغ الثامنة عشرة من عمره كان قد درس علوم العربية، والتاريخ، وعلوم الشريعة، من تفسير وحديث وفقه وأصول، وكلام وتصوف، والعلوم العقلية، من منطق وحكمة عملية سياسية ومنزلية تهذيبية، وحكمة نظرية، طبيعية وإلهية،

والعلوم الرياضية، من حساب وهندسة وجبر وهيئة أفلاك،  
ونظريات الطب والتشريح!

وهو سنى المذهب، فى نشأته، توثقت علاقاته الشخصية  
والفكرية بعلماء الشيعة وفكرها ومراكزها، بالعراق، منذ صدر  
شبابه.. فلما تبلورت دعوته للتجديد واليقظة، كان عقله قد وصل  
به إلى حيث أصبح فوق المذاهب التى فرقت المسلمين، لأن  
سلفيته فى الدين تسبق المذاهب، وعقلانيته ترفض البقاء فى  
أسر خلافاتها التى تجاوزها العصر، واستنارته تراها عقبة أمام  
ما يريد تحقيقه لأمة من نهضة وانطلاق..

وكان عداؤه للاستعمار مبكراً.. ولم يكن بالعداء الفكرى  
والنظري فقط، فلقد انخرط منذ شبابه فى التيار الوطنى الأفغانى  
الذى قاده الأمير محمد أعظم خان لِمناوأة النفوذ الإنجليزى  
الطامع فى أفغانستان. ووصل جمال الدين فى هذا النشاط  
الوطنى إلى منصب «الوزير الأول» فى البلاد، وقاد معارك حربية  
ضد المتعاونين مع الإنجليز، الذين تزعمهم الأمير شير على.. فلما  
انتصر خصومه، اضطر للسفر للهند سنة [١٢٨٥هـ - ١٨٦٨م].

فلما ضيق عليه الإنجليز فيها الخناق، بدأ رحلته إلى الوطن  
العربى، فوصل إلى مصر سنة ١٢٨٦هـ ١٨٦٩م.. ثم الأستانة..  
ثم رجع إلى مصر فأقام بها قرابة تسع السنوات [١٢٨٨ -  
١٢٩٦هـ = ١٨٧١ - ١٨٧٩م] كانت أخصب فترات حياته  
الفكرية والنضالية، وفيها تبلور تياره ومذهبه فى اليقظة  
والثورة والتجديد.



ففيها أملى على تلاميذه الأمالي والتعليقات التي شرح بها كتباً قديمة في الفلسفة الإسلامية.. وكان عهد مصر قد انقطع بهذا اللون من ألوان الفكر منذ أن زالت الدولة الفاطمية، وأحلت «دول العسكر» تكايا الصوفية وخوانقها والمدارس الأشعرية محل [دار الحكمة] و[مجالس الدعاة] ومنهاج [الأزهر] العقلاني؛ وفيها أنشأ ورعى تيار الصحافة غير الحكومية، وكانت من قبله حكومية في الأساس، فكانت صحف: [مصر] التي رأسها أديب إسحاق [١٢٧٢ - ١٣٠٢هـ = ١٨٥٦ - ١٨٨٥م] و[التجارة] التي رأسها سليم نقاش، طليعة الصحافة الشعبية في البلاد.. وكان الأفغانى يكتب فيها بتوقيع: «مزهر بن وضاح».. كما كان يملأ على تلاميذه مقالات ينشرونها بأسمائهم، حتى نشأت من حوله كوكبة من الكتاب الشباب، جددت أساليب العربية في الإنشاء، وأدخلت فيها فن «المقال» الحديث؛

وفيها تبلور من حوله التيار الشعبى فى التنوير.. ومن قبله كان جهاز الدولة المصرية هو المصدر الوحيد للتنوير.. وفيها كانت التربة الخصبة التى استقبلت بذور أفكاره أطيب استقبال، حيث نبتت ونمت وأينعت، وآتت من الثمار ما لم توت فى بلد آخر أقام فيه هذا الفيلسوف العظيم.

وفيها أنشأ [الحزب الوطنى الحر] الذى جمع تلاميذه وأنصار دعوته، وهو الحزب الذى قاد الثورة العرابية، وبعد هزيمتها هبأ نفر من بنيها لنشأة [الحزب الوطنى] الذى قاده مصطفى كامل [١٢٩١ - ١٣٢٦هـ = ١٨٧٤ - ١٩٠٨م] ونفر آخر منهم انضم

إلى جمعية [العروة الوثقى] السرية، التي قادها الأفغانى، وأصدر مجلتها من باريس..

ولما نفى جمال الدين من مصر، بإيعاز من القشاشل الأوربيين للخبير توفيق [١٢٩٦هـ - ١٨٧٩م]، ذهب إلى الهند. وهناك منع من الحركة حتى تمت هزيمة العربيين، فسافر إلى باريس [١٣٠٠هـ - ١٨٨٣م] ثم إلى لندن. ثم عاد إلى باريس فأصدر مجلة [العروة الوثقى] ومعه الشيخ محمد عبده.. فلما توقفت ذهب إلى شبه الجزيرة العربية فموسكو، فميونيخ، فايران ثانية [١٣٠٧هـ - ١٨٩٠م]، فالعراق [١٣٠٨هـ - ١٨٩١م]، فلندن..

وفى كل هذه المواطن لم يعرف الرجل لنفسه حرفة سوى حرفة الثورة على البالى، والدعوة إلى اليقظة والتجديد، ولم يتخذ لنفسه أسرة سوى الأنصار والتلاميذ الذين أعدمهم ودفع بهم فى الصراع ضد الزحف الاستعماري الغربى. الذى كان يحث الخطا لالتهاام بلاد العرب وأقطار الإسلام.. وظل ذلك شأنه حتى نجح السلطان عبد الحميد [١٢٥٨ - ١٣٣٦هـ = ١٨٤٢ - ١٩١٨م] فى استقدامه إلى الآستانة [١٣١٠هـ - ١٨٩٢م]، وهناك أحاطه بالعيون والجواسيس، فعاش فى «قفص السلطان الذهبى» حتى فاضت روحه إلى بارئها [١٣١٤هـ - ١٨٩٧م].

■ وثانى أعلام هذا التيار: الإمام محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥م]، الذى تقلد على الأفغانى، ثم

(١) انظر دراستنا عن حياته فى تقديمنا لأعماله الكاملة - طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.

فأفقه في التركيز على الإصلاح الديني، وإن لم يبلغ شأن أستاذه في الفكر السياسي.. وهو فلاح مصري.. فقير في المال، بلغ بعقله وفكره إلى مكان هابته فيه الملوك، فقال عنه خصمه الخديو عباس حلمي الثاني [١٢٩١-١٣٦٣ هـ = ١٨٧٤-١٩٤٤ م]: «إنه يدخل على كفرعون».. وداعبه أستاذه الأفغاني متسانلاً: «قل لي، ابن أي ملك من الملوك أنت؟»

دخل الأزهر صغيراً، فصدّه عن علومه جمود شيوخه وعقم وسائل التعليم فيه.. ثم أعانته نهج الصوفية المتنسكين على مواصلة الدراسة.. حتى كان لقاءه بالأفغاني [١٢٨٨ هـ - ١٨٧١ م] فحدث له التحول الكبير.. فمن التصوف النسكي تحول إلى التصوف الفلسفي.. ومن أفق طلاب الأزهر المحدود انطلق إلى حيث استشراف الأفاق التي كان يستشرفها أستاذه.

وفي صحبة الأفغاني بمصر، كان أبرز مريديه.. ثم أصبح بعد نفيه «روح الدعوة» إلى التجديد.. وأسهم، من موقع الاعتدال، في الثورة العربية.. ثم نفى فيمن نفى من قادتها، فعاش زمناً ببأريس، يحرر [العروة الوثقى]، وينوب عن الأفغاني في رحلات سرية لشتون الجمعية التنظيمية.. ثم أقام ببيروت.. فلما سمح له بالعودة إلى مصر، هجر العمل السياسي، وركز على محاولة إصلاح المؤسسات الإسلامية: الأزهر، والأوقاف، والقضاء الشرعي، مع التركيز على التجديد الديني بتحرير العقل المسلم من أسر التقليد، وتجديد اللغة العربية وتطويرها.. ولقد أصاب الكثير من النجاح في العديد من الميادين.. ولكن صداه مع الخديوي عباس حلمي أعاق الكثير من مشروعاته الإصلاحية، كما أن

جمود أغلب شيوخ الأزهر قد منع جهوده الإصلاحية من بلوغ ما أراد لها في إصلاح الأزهر، حتى لقد مات كمدًا بسبب هذا الإخفاق [١٣٢٣هـ - ١٩٠٥م] <sup>(١)</sup>.

■ وفي المشرق العربي كان عبد الرحمن الكواكبي [١٢٧٠ - ١٣٢٠هـ = ١٨٥٤ - ١٩٠٢م] من أبرز من مثلت أفكاره القسمات الفكرية لهذا التيار. وهي الأفكار التي خلفها لنا في كتابيه [أم القرى] و [طبائع الاستبداد].

ولقد ولد الكواكبي في حلب، لأسرة كانت فيها نقابة الأشراف قبل أن يغتصبها منها الشيخ أبو الهدى الصيادي [١٢٦٦ - ١٣٢٧هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٩م].

وفي [١٢٩٥هـ - ١٨٧٨م] أصدر الكواكبي صحيفة [الشهباء]، أول صحيفة عربية تصدر في ولاية حلب.. فلم يمهلها العثمانيون أكثر من خمسة عشر عددًا.. فأصدر في العام التالي، جريدة [الاعتدال].. ولقد أوصله تضالّه إلى هجران الوظائف، وإفلاس التجارة، وتعرض حياته للخطر.. ثم قاده إلى السجن [١٣٠٣هـ - ١٨٨٦م]، فلما اضطر العثمانيون إلى الإفراج عنه تحت ضغط جماهير الولاية، أطلقوا سراحه، ثم عادوا لإلقاء القبض عليه، ولفقوا له الاتهام بالاتصال بدولة أجنبية، وحكموا بإعدامه!.. ولكن الجماهير عاودت ضغطها، فأجبرت العثمانيين على إعادة محاكمته خارج الولاية، فعرضت القضية على محكمة بيروت، التي حكمت ببراءته!

(١) انظر دراستنا عن حياته في تقديمنا لأعماله الكاملة ج ١ - طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م.

وفى تلك الأثناء كان الكواكبي قد أنشأ [جمعية أم القرى]، وهي الجمعية التي عقدت مؤتمرها السرى بمكة، والتي أصبحت مداولات مؤتمرها هذا أساس كتابه [أم القرى]، وفى هذا المؤتمر حضر ممثلون للبلاد العربية والإسلامية وللجاليات الإسلامية التى تعيش خارج العالم الإسلامى.

ولما أضحت حياة الكواكبي مهددة فى حلب، قرر الهجرة منها إلى مصر، فوصل إليها سراً [١٣١٦هـ - ١٨٩٩م].. وفى مصر أقام من تناقضات كانت بين حكومتها والدولة العثمانية يومئذ، فنشر كتابيه، فصولاً فى الصحف، ثم جمع الفصول فصدرت فى الكتابين.. ومنها قام برحلة إلى بلاد المشرق العربى، والمناطق العربية والمسلمة فى إفريقيا.

وبعد نحو أربع سنوات قاضت روحه إلى يارثها، بمؤامرة دس فيها السم له جاسوس من جواسيس السلطان عبد الحميد، فكان استشهاده [١٣٢٠هـ - ١٩٠٢م]<sup>(١)</sup>.

■ أما فى المغرب العربى، فإن الشيخ عبد الحميد بن باديس [١٣٠٥ - ١٣٥٩هـ = ١٨٨٧ - ١٩٤٠م] يعد أبرز ممثلى هذا التيار.. وهو من مواليد قسطنطينة، بالجزائر، وفيها تعلم علوم العربية والإسلام، ومن شيوخه فى تلك المرحلة: الشيخ حمدان الوئيسى، الذى أخذ عليه عهداً أن يقاطع الحكومة الاستعمارية، فالتزم العهد، وصار يأخذه على تلاميذه فيما بعد!

(١) انظر دراستنا عن حياته فى تقديمنا لأعماله الكاملة - طبعة بيروت سنة ١٩٧٥م

وفى التاسعة عشرة من عمره [١٣٢٦هـ - ١٩٠٨م] ذهب إلى جامعة الزيتونة، بتونس، فدرس فيها ما لم يكن يستطيع أن يدرسه بالجزائر فى ظل الاستعمار الفرنسى، الذى كان يحرم العربية ويطارد السمات القومية للجزائريين كى يسحقها، وليجعل منهم فرنسيين «مسلمين» ومن وطنهم الامتداد الفرنسى، عبر البحر المتوسط، فى القارة الإفريقية!

وفى [١٣٣٠ - ١٩١٢م] سافر، حاجًا، إلى الحجاز. وهناك التقى بعدد من الشيوخ الجزائريين الذين هاجروا وجاوروا بمكة والمدينة، فعرض عليه بعضهم أن يجاور - مثلهم - الحرمين الشريفين، ولكنه كان قد شرع يفكر فى مقاومة الاستعمار الفرنسى بالجزائر، فرفض الهجرة، وقال: «نحن لا نهاجر». وقبل عودته إلى الجزائر اتفق مع الشيخ البشير الإبراهيمى على خطة لتنفيذ البرنامج الذى لخصته كلماته هذه. وكانت الخطة هى إعداد جيل من الرجال الذين يواجهون محاولة السحق القومى فى الجزائر، ويعيدون الجزائر إلى «العروبة والإسلام والقومية». رجال «يملكون وضوحًا فى الهدف، وفكرة صحيحة توصل إليه، حتى وإن كانوا ذوى علم قليل» ويعرفون حدود غاياتهم، التى تنتهى عند تسليم الأمانة لجيل ثان يعلن الثورة. ويستخلص الاستقلال من المستعمرين».

ولقد مكث ابن باديس ثمانية عشر عامًا بعد هذا الجيل، قاتلاً. أنا لا أولف الكتب، وإنما أريد صنع الرجال.. فكان يعظ فى المساجد، ويفسر القرآن، ويعلم العربية للأطفال، ويجوب القرى



والمدن ويصعد الجبال، فاجتمع له من [١٣٣١هـ - ١٩١٣م] حتى [١٣٣٦هـ - ١٩١٨م] ألف من هؤلاء الرجال!

وعندما أقامت فرنسا احتفالاتها الصاخبة والاستفزازية، بمناسبة مرور قرن على احتلالها للجزائر [١٣٤٩هـ - ١٩٣٠م] كان رد ابن باديس هو إعلان المشروع الذي خطط له منذ [١٣٣٠هـ - ١٩١٢م]، فقامت [جمعية العلماء المسلمين الجزائريين] في [نوى الحجة ١٣٤٩هـ - مايو سنة ١٩٣٠م] حاملة رسالة العودة بالجزائر إلى هويتها العربية الإسلامية، وممهدة الطريق لجيل الثورة المسلحة على الاستعمار.

وكانت «الطرق الصوفية» سنداً أساسياً للسلطة الاستعمارية بالجزائر، فحاربها ابن باديس منذ سنة [١٣٤٣هـ - ١٩٢٤م]، وتعرض بسبب ذلك لمحاولة اغتياله [٣٤٥هـ - ١٩٢٧م].

وفي [١٣٤٣هـ - ١٩٢٥م] بدأ نشاطه الصحفى.. فشارك في تحرير صحيفة [النجاح].. ثم أصدر مجلة [المنتقد] سنة ١٣٤٤هـ - ١٩٢٦م، وكان شعارها «الحق فوق كل أحد، والوطن قبل كل شيء»، فعطلها الاستعمار بعد ثمانية عشر عدداً. لكنه عار فإصدر صحيفة [الشهاب]، أسبوعية، ثم شهرية.. كما أصدر صحفاً أخرى تعرضت للمصادرة والإلغاء، منها [الشريعة]، و[السنة المحمدية] و[الصراط].

وقبل أن ينتقل ابن باديس إلى جوار ربه في [ربيع الأول سنة ١٣٥٩هـ - إبريل سنة ١٩٤٠م] كان قد وضع وطنه بيد الجيل الذى أعاده إلى أحضان العروبة والإسلام، والذى صنع جيل الثورة

المسلحة التي تفجرت ضد فرنسا [١٣٧٤هـ - ١٩٥٤م] وحقق  
بدماء «المليون شهيد» استقلال الوطن الجزائري العربي المسلم  
سنة [١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م]. فشقق الهدف الذي رسمه ابن  
باديس، بمكة، قبل نصف قرن، يوم قال: «نحن لا نهاجر، نحن  
حراس الإسلام والعربية والقومية في هذا الوطن... فأتيت أن  
الإسلام والعربية والقومية لن تضيع، ولن يضيع من أحضانها  
الوطن إذا كان لها حراس من أمثال عبد الحميد بن باديس... وأثبت  
أيضاً أنه أبرز ممثلي تيار [الجامعة الإسلامية] وأعظم أعلامه في  
بلاد المغرب العربي على الإطلاق»<sup>(١)</sup>.

هذا عن أبرز أعلام هذا التيار..

#### والمناخ الذي تبلور فيه

في مصر - أكثر المجتمعات العربية الإسلامية تحضراً وتطوراً -  
تبلور تيار [الجامعة الإسلامية] حول رائده جمال الدين  
الأفغانى.. ولذلك، فلقد كان مستحيلاً أن يصطبغ فكر هذا التيار  
بصبغة «البدعوة» التي اصطبغت بها دعوات تجديدية إسلامية  
تبلورت في محيط بدوى، «كالوهابية»، مثلاً.. وكان مستحيلاً أن  
يقف هذا التيار من «العقلانية» ومن «التمدن» موقفاً غير ودى..  
كما كان مستحيلاً، كذلك، بحكم الانتماء الإسلامى والمنطلقات  
الإسلامية، لهذا التيار، أن يسلك إلى التجديد طريق «التغريب»<sup>(٢)</sup>.

لقد كان تبلور هذا التيار بمصر، طليعة قيام «التيار الشعبى»  
المتميز عن «جهاز الدولة» - الذى انفرد بالتطوير والتطوير

(١) انظر الفصل الذى كتبناه عنه بكتابنا (مسلمون ثوار) - مطبعة بيروت سنة ١٩٧٤.

للمجتمع حتى ظهور هذا التيار في سبعينيات القرن التاسع عشر - وهو لم «يتميز»، فقط، عن «جهاز الدولة»، بل اتخذ منه موقف «المعارضة» في الكثير من الأحيان.. ولذلك فإن هذا التيار قد برئ من «التغريب»، الذي مالت إليه تجربة النهضة المصرية، خاصة على عهد الخديو إسماعيل [١٢٧٩ - ١٢٩٦ هـ = ١٨٦٣ - ١٨٧٩ م] بحكم إسلاميته وشعبيته.. ثم هو - بحكم موقفه «التجديدي» - قد رفض «جمود» المؤسسات الدينية التقليدية، تلك التي وقفت عند فكرية العصر «المملوكي - العثماني»، فأسهمت بسلبيتها تجاه النهضة الحديثة، في إسلام التجربة «للتغريب».. فكان أن اتسم فكر هذا التيار بسمه «التوازن»، المميّزة لحضارتنا العربية الإسلامية. عندما طرح تصوره لقسمات المشروع الحضاري المستقل لأمتنا العربية الإسلامية.

لقد تجسد في تيار [الجامعة الإسلامية] بحث هذه الأمة عن ذاتها، وسعيها للنجاة من خطر المد الاستعماري، المسلح «بالتقدم» الحضاري الغربي، والمستعين على غزونا «بالتخلف» «المملوكي - العثماني»! وللنجاة، كذلك، من «التخلف» «المملوكي - العثماني»، الذي تحول إلى قيد يعوق الأمة عن التصدي لعاصفة الاستعمار و«التغريب»!

ولقد تحول بحث أمتنا عن ذاتها، في فكر هذا التيار، إلى دعوة للتجدد الذاتي في الدين والدنيا، ينهض فيها «العقل» بدور المصباح الذي ينير الطريق - طريق الدنيا، وأيضاً طريق الدين! وصولاً إلى بلورة حضارة مستقلة تصنع تمدناً إسلامياً متميزاً، وتكون الطور العصري لحضارتنا التي ازدهرت في حقبة سابقة من التاريخ.

ولقد أذن هذا التيار، بصوت الأفغانى، فى ربوع الشرق بالنهضة. وبشر بها عندما قال: «لقد أوشك فجر الشرق أن يتبثق، فقد ادلهمت فيه ظلمات الخطوب، وليس بعد هذا الضيق إلا الفرج». إن هذا الشرق، وهذا الشرقى لا يلبث طويلاً حتى يهب من رقاده، ويمزق ما تقنع وتسربل به هو وأبناؤه من لباس الخوف والذلل، فيأخذ فى إعداد عدة الأمة الطالبة لاستقلالها، المستنكرة لاستعبادها. (١)

وبحكم الانتماء الإسلامى لأعلام هذا التيار، ولأنهم الأول للإسلام «الدين» و«الحضارة»، كان وضوح فكره عن أن الإسلام هو أساس هذه النهضة، وهو أداتها، وهو الحافز إليها. فالإسلام هو «فكرية» - [أيديولوجية] - الأمة، الفعالة، إذا تجددت، فى بعث طاقاتها ودفعها لبناء حاضرها ومستقبلها. على نحو مستقل ومتميز حضارياً. وأمام هذا «الكفر» الذى يمثل «الفرصة» الطبيعية والمواتية. لا منطق عند الذين يتركونه ثم يبحثون عن «البديل»! فهذه سبيل لمريد الإصلاح فى المسلمين لا مندوحة عنها، فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين يحوجه إلى إنشاء بناء جديد، ليس عنده من مواده شئ. ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحداً. وإذا كان الدين كافلاً بتهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها. ولأهله كل الثقة فيه. وهو حاضر لديهم، والنعاء فى إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إمام لهم به، فلم العدول عنه إلى غيره! (٢)

كما يقول، ويتساءل الإمام محمد عبده!

(١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٢٣، ٢٤٣

(٢) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٣ ص ٢٢١

إن أهل المدينة لا يلبون أذان من يؤذن لهم من خارج السور  
وفى أحسن الفروض سيتبع هذا المؤذن «صفوة» من السهل  
حصارهم، وتوجيه الاتهام إلى فكرهم الواحد، ثم اقتلاع هذا الفكر  
من الجذور. وليس كذلك الحال مع فكر هو «أيديولوجية» الأمة  
كلها، إذ لا قبل لأعداء هذه الأمة بالتصدي له، إن هو تحول  
بالتجديد، إلى طاقة خلاقة تحرك الأمة نحو تحقيق أهدافها!

لكن كون الإسلام هو أساس النهضة، وأداتها، وحافزها، لا  
يعنى أن فى مآثورات هذا الدين، وفكر السلف، وتطبيقات  
الماضين كل ما تحتاجه «دنيا» حاضرا ومستقبلا. فهو فى  
هذا الميدان «حافز» يحمل النفوس على «طلب السعادة من  
أبوابها»، بصرف النظر عن لون هذه الأبواب، ومصادرها،  
وعقائد مبدعيها، وأجناسهم القومية، ومواقعهم على خريطة  
الكوكب الذى نعيش فيه.. شريطة ألا تتعارض مع «الأطر»  
و«المثل» و«الغايات والمقاصد» و«الفلسفات» التى حدها  
«الإسلام الدين»، فـ «السلفية فى الدين» تزاملها وتواكبها، فى  
فكر تيار [الجامعة الإسلامية] «المستقبلية والاستنارة والتفتح  
فى القمدين والحضارة».. ومن هنا يأتى المعنى العميق والموحى  
لكلمات الإمام محمد عبده التى تقول: «...لو رزق الله المسلمين  
حاكما يعرف دينه، ويأخذهم بأحكامه، لرأيتم قد نهضوا،  
والقرآن الكريم فى إحدى اليدين، وما قرر الأولون وما اكتشف  
الأخرون فى اليد الأخرى، ذلك لأخريتهم، وهذا لدنياهم، ولساروا  
يزاحمون الأوربيين فيزحمونهم»<sup>(١)</sup>.

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٥٨، ٢٥٢.

ذلك أن حضارتنا العربية الإسلامية موقفاً أصيلاً وقديماً يميز بين ما هو داخل في السمات والقسمات التي تتميز بها هذه الحضارة، وبين ما هو داخل في «الأدوات» التي تتخذ سبلاً لتطوير الدنيا وتقدمها وللاستدلال والنظر في الموجودات، فالخصوصية والتميز لا تعنى الانغلاق وسد المنافذ والأبواب دون التفاعل مع حضارات الآخرين.. وقديماً عرض أبو الوليد بن رشد [٥٢٠ - ٥٩٥ هـ = ١١٢٦ - ١١٩٨ م] لهذه القضية فقال: «إنه يجب علينا أن نستعين، على ما نحن بسبيله، بما قاله من تقدمنا في ذلك.

وسواء أكان ذلك الغير مشاركاً لنا أم غير مشارك في الملة، فإن الآلة التي تصح بها التذكية لا يعتبر في صحة التذكية بها كونها آلة لمشارك لنا في الملة أو غير مشارك، إذا كانت فيها شروط الصحة. وأعني بغير العشارك: من نظر في هذه الأشياء من القدماء قبل ملة الإسلام»<sup>(١)</sup>.

لكن الشرط الذي لا بد من تحقيقه حتى ينهض الإسلام بهذا الدور النضالي والبناء في تجديد «دنيا» الأمة، هو أن يتجدد هذا «الدين»، فينفض مجدوده عنه البدع والخرافات والإضافات، التي جعلته غريباً إذا نحن عقدنا المقارنة بينه وبين حقيقته وجوهره، كما تلقاه نبيه، عليه الصلاة والسلام عن الله سبحانه وتعالى... فلا بد، أولاً من «حكماء» لا يبالون بغوغاء العلماء المرانين

(١) ابن رشد [فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال] ص ٢٦ - دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢ م. [والتذكية هي الذبح].



الأغبياء، والرؤساء القساء الجهلاء، يجددون النظر في الدين، نظر من لا يحفل بغير الحق الصريح، وبذلك يعيدون النواقص المعطلة في الدين، ويهذبونه من الزوائد الباطلة، مما يطرأ عادة على كل دين يتقدم عهده، فيحتاج إلى مجديدين يرجعون به إلى أصله المبين..» كما يقول عبد الرحمن الكواكبي<sup>(١)</sup>.

فبالسلفية العقلانية يتجدد الدين.. ومن ثم يلعب دوره الخلاق في تجديد الدنيا، التي لابد لتجديدها من الاستنارة والنظرة المستقبلية، المنفتحة على مختلف التيارات الحضارية، من موقع الراشد الناضج، المدرك لما بين «الثوابت» و«المتغيرات» من فروق!

### الموقف الوسطي (المتوازن):

ولقد كان واضحاً أن تيار [الجامعة الإسلامية] يمثل الموقف الثالث، والوسط بين التيارين اللذين استقطبا جمهور الأمة وقادتها في ذلك التاريخ.. فعن يمينه أهل «الجمود» المتحصنون بالمؤسسات العريقة العتيقة التقليدية، أولئك الذين توقف بهم «الفكر» عند نمط العصر «المملوكي - العثماني» في التفكير.. وعن يسارهم دعاة «التغريب»، الذين بهرتهم حضارة أوروبا، وزادهم بها إيماناً وانبهاراً نفورهم من الصورة التي يقدمها للإسلام وتراثه أهل «الجمود».. والإمام محمد عبده يحكي كيف بشر تيار [الجامعة الإسلامية] بهذا الموقف الوسطي الجديد، فيقول -وهو «يترجم» لنشأته وتربيته ومذهبه- لقد «نشأت كما نشأ كل واحد من الجمهور الأعظم من الطبقة الوسطى من

(١) [الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي] ص ١٨٦ - ١٨٧

سكان مصر. ودخلت فيما فيه يدخلون، ثم لم ألبث، بعد قطعة من الزمن، أن ستمت الاستمرار على ما يالفون. واندفعت إلى طلب شيء مما لا يعرفون، فعثرت على ما لم يكونوا يعثرون عليه، وناديت بأحسن مما وجدت، ودعوت إليه، وارتفع صوتي بالدعوة إلى تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة، قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه إلى منابعها الأولى، واعتباره من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه، وتقل من خلطه وخبطه، لتتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الإنساني، وأنه على هذا الوجه يعد صديقاً للعلم، باعثاً على البحث في أسرار الكون، داعياً إلى احترام الحقائق الثابتة، مطالباً بالتعويل عليها في أدب النفس وإصلاح العمل. كل هذا أعده آمراً واحداً.

وقد خالفت في الدعوة إليه رأي الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة

■ طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم.

■ وطلاب فنون هذا العصر، ومن هو في ناحيتهم.

ثم يتحدث الإمام محمد عبده عن موقعه في هذا التيار، الذي كان الأفغانى رائده، فيقول: «... نعم، إننى لم أكن الإمام المتبع، ولا الرئيس المطاع، غير أنى كنت روح الدعوة، وهى لا تزال بى، فى كثير مما ذكرت قائمة»<sup>(١)</sup>.

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٢ ص ٣١٨، ٣٢٠.

فنحن هنا بإزاء موقف ثالث.. وموقع ثالث.. وتيار ثالث.. يتوسط بين أهل «الجمود» وبين دعاة «التغريب»

وإذا كان هذا التيار يدعو إلى «السلفية الدينية»، وإلى «فهم الدين على طريقة سلف الأمة، قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه إلى منابعها الأولى».. فإنه لا يتطابق، في هذا الموقف، مع نمط السلفية «البدوية» التي وقفت عند «النص»، واتخذت من «العقل» موقفًا غير ودي.. والتي - لهذه «البداءة» - لم تتعاطف مع «التمدن» والموقف المستقبلي في الحضارة وشئون الدنيا.. فهذا التيار ينتقد صراحة هذا اللون من «السلفية النصوصية»، بل ويرى أن أصحابها كانوا «أضيق عطفًا [أفقًا] وأحرج صدرًا من المقلدين! فهم، وإن أنكروا كثيرًا من البدع، ونحووا عن الدين كثيرًا مما أضيف إليه، وليس منه، إلا أنهم يرون وجوب الأخذ بما يفهم من لفظ الوارد، والتقييد به، دون التفات إلى ما تقتضيه الأصول التي قام عليها الدين، وإليها كانت الدعوة، ولأجلها منحت النبوة، فلم يكونوا للعلم أولياء، ولا للمدنية أحياء...»

وعلى حين اتخذت «سلفية البداءة النصوصية» هذه موقفًا غير ودي من «العقل» في «الفكر الديني»، انعكس على موقفها من «العلم والمدنية»، رأينا تيار [الجامعة الإسلامية] يعلى من سلطان العقل في حقلي «الدين» و«الدنيا» جميعًا. بل لقد اعتبر «الدين» «من ضمن موازين العقل البشري»، التي وضعها الله لترد

(١) السابق، ج ٢، ص ٢١٤.

من شطط هذا العقل، وتقل من خلطه وخبطه، لتتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الإنساني..» فالصلة بينهما - بين «الدين» و«العقل» - متينة، والعروة بينهما وثقى؛ فالدين صديق للعلم، يحرك الإنسان للبحث في أسرار الكون، ويحترم الحقائق العلمية الثابتة، ويعول عليها في الإصلاح.

وإذا كان الدين ميزاناً من موازين العقل البشري، فإن هذا «العقل هو جوهر إنسانية الإنسان.. وأفضل القوى الإنسانية على الحقيقة»<sup>(١)</sup>.. وهو نقطة الاقتراق التي ميزت الإنسان عن غيره من الحيوانات.. جعلها الله محور صلاحه وفلاحه<sup>(٢)</sup>!

وبينما رفضت «سلفية البداءة التصوفية» الحكمة [الفلسفة] بل «وعلم الكلام» تحدث تيار [الجامعة الإسلامية] عن «الحكمة» باعتبارها «مقننة القوانين، وموضحة السبل، وواضحة جميع النظامات، ومعينة جميع الحدود، وشارحة حدود الفضائل والردائل. وبالجمل، فهي : قوام الكمالات العقلية والخلقية.. فهي أشرف الصناعات»<sup>(٣)</sup>!

وهذا المقام الرفيع الذي احتله «العقل» في نهج تيار [الجامعة الإسلامية]، لم يقف عند حدود فكر «الدنيا.. والحضارة.. والمجتمع».. بل تعدى هذا الإطار إلى ميدان «الفكر الديني».. فالنظر العقلي هو السبيل الذي يصل به المسلم إلى اليقين في

(١) المصدر السابق، ج ٥ ص ٤٢٨، ج ٣ ص ٢٩٨

(٢) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ٢٥٦، ٢٥٧

(٣) المصدر السابق، ص ٢٦٠.

العقائد. إذ «لا يقين مع التخرج من النظر، وإنما يكون اليقين بإطلاق النظر في الأكوان، طولها وعرضها. وحتى يصل إلى الغاية التي يطلبها بدون تقييد.. فالله يخاطب، في كتابه، الفكر والعقل والعلم، بدون قيد ولا حد.. والوقوف عند حد فهم العبارة مضر بنا، ومناف لما كتبه أسلافنا من جواهر المعقولات، التي تركنا كتبها فراشاً للأتربة وأكلتها للسوس، بينما انتفعت به أمم أخرى أصبحت الآن تنعت باسم: النور»

والقرآن - وهو وحده المعجز الخارق - قد دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم.. فهو معجزة عرضت على العقل، وعرفته القاضى فيها. وأطلقت له حق النظر في أبحاثها، ونشر ما انطوى في أبحاثها.. فالإسلام لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلى والفكر الإنسانى الذى يجرى على نظامه الفطرى. فلا يدهشك بخارق للعادة، ولا يفشى بصرك بأطوار غير معتادة، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية.. والمرء لا يكون مؤمناً إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به.. فمن ربي على التسليم بغير عقل، والعمل، ولو صالحاً، بغير فقه، فهو غير مؤمن. لأنه ليس القصد من الإيمان أن يذلل الإنسان للخير، كما يذلل الحيوان. بل القصد منه أن يرتقى عقله وتنزكى نفسه بالعلم بالله والعرفان في دينه، فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضى لله، ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة ضررته في دينه ودنياه»<sup>(١)</sup>.

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٣ ص ١٥١، ٢٧٩، ٢٨١، ج ٤ ص ٤١٤

ولقد كانت هذه «العقلانية الإسلامية» عاملاً من عوامل تمييز تيار [الجامعة الإسلامية]، لا عن «سلفية البداوة النصوصية»، وحدها، بل وعن أهل «الجمود»، الذين تصوروا توحيد الله وتفريده بالخلق مستلزمًا لإنكار قيام المسببات على أسبابها الطبيعية، ولإنكار وجود القوانين الكونية والطبيعية الثابتة والحاكمة في الكون والمجتمعات.

كذلك كانت عقلانية هذا التيار مميزة له عن تيار «التغريب»، الذي تبنى نفر من أهله مادية الغرب الفلسفية، تلك التي ظن أهلها أن التسليم بوجود السنن والقوانين الثابتة في الكون والمجتمع يستلزم نفى الألوهية والوحي والرسالات..

فهذه «العقلانية الإسلامية» جدد تيار [الجامعة الإسلامية] نظرة الإنسان المسلم للكون، عندما أقام الموازنة والتوازن بين «التوحيد» - الألوهية - وبين «الطبايع» - السنن والقوانين والعليّة والارتباط الضروري بين الأسباب والمسببات -.. وعندما ميز بين مهام الرسل والوحي وبين «عالم العقل ونطاقه». ورأى أن «حاجة العالم الإنساني إلى الرسل هي حاجة روحية، وكل ما لامس الحس منها فالقصد فيه إلى الروح، أما تفصيل طرق المعيشة، والحدق في وجوه الكسب، وتطاول شهوات العقل إلى درك ما أعد للوصول إليه من أسرار العلم، فذلك مما لا يدخل للرسالات فيه إلا من جهة العظة العامة والإرشاد إلى الاعتدال فيه كي لا يحدث ريباً في الاعتقاد ولا يصيب أحداً من الناس بشر في نفسه أو عرضه أو ماله بغير حق.. فمثلاً، حقيقة البرق والرعد



والصاعقة، وأسباب حدوثها، ليست من مباحث القرآن، لأنها من علم الطبيعة [أي الخليفة]، وحوادث الجو التي في استطاعة الناس معرفتها باجتهادهم، ولا تتوقف على الوحي. وإنما تذكر الظواهر الطبيعية في القرآن لأجل الاعتبار والاستدلال، وصرف العقل إلى البحث الذي يقوى به الفهم والدين. لا تقريراً للقواعد الطبيعية، ولا إلزاماً باعتقاد خاص في الخليفة!"

فهذه «العقلانية الإسلامية» تميز هذا التيار «السلفي - العقلاني - المستنير» عن «سلفية البداوة النصوصية». وعن «أهل الجمود». وعن «دعاة التغريب»!

■ فأنصار «سلفية البداوة النصوصية» قد نفضوا عن العقائد والتصورات والعبادات الدينية غبار البدع والخرافات. لكنهم وقعوا أسرى لظواهر النصوص. ثم هم «لم يكونوا للعلم أولياء، ولا للمدنية أحياء»!

■ و«أهل الجمود»: «لا يتعلمون، في الأزهر، من الدين إلا بعض المسائل الفقهية وطرفاً من العقائد على نهج يُبعد عن حقيقتها أكثر مما يقرب منها». وجل معلوماتهم: تلك الزوائد التي غرست على الدين، ويخشى ضررها، ولا يرجى نفعها. وأبناء الأزهر، المعروفون «بالعلماء». أقرب للتأثر بالأوهام والانتقياد إلى الوسواس من العامة، وأسرع إلى مشايعتها منهم! فبقاؤهم فيما هم عليه مما يؤخر الرعية!»<sup>(١)</sup> كما يقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده..

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٢٠، ٤٢٣، ج ٤ ص ٩٤.

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ١١٢ - ١١٤.

■ أما «دعاة التخريب» سواء منهم من درس في عواصم الغرب، فاندھش بحضارته، وأصبح داعية لتقليدها، أو من تعلم منهم في المؤسسات التعليمية التي أقامها محمد علي بمصر، أو العثمانيون بتركيا، فإن نهجهم ليس كافلاً لاستقلال الأمة حضارياً.. بل لقد أصبح هؤلاء بمثابة السبل والقنوات التي يتسلل منها العدو إلى عقل الأمة ووجدانها كي يثبت في وطنها الأقدام ويحكم حول عنقها الأغلال

والأفعالي يتحدث عن هذا الفريق فيقول: «لقد شيد العثمانيون عددًا من المدارس على النمط الجديد، وبعثوا بطوائف من شبانهم إلى البلاد الغربية ليحملوا إليهم ما يحتاجون من العلوم والمعارف والآداب، وكل ما يسمونه «تمدناً». وهو في الحقيقة تمدن للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنساني.. فهل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك، وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة نعم، ربما وجد بينهم أفراد يتشددون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية [القومية] وما شاكلها. وسموا أنفسهم زعماء الحرية. ومنهم آخرون قلبوا أوضاع المباني والمسكن وبدلوا هياكل المآكل والملابس والفرش والأنية، وسافر الماعون، وتنافسوا في تطبيقها على أجود ما يكون منه في الممالك الأجنبية، وعدوها من مفاخرهم.. فتقوا بذلك ثروة بلادهم إلى غير بلادهم، وأماوا أرباب الصنائع من قومهم.. وهذا جدد لأنف الأمة، يتنوه وجهها، ويحط بشأنها. لقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة،

المنتحلين أمتوار غيرها، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها. وطلّاع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات، يمهّدون لهم السبيل، ويفتحون الأبواب، ثم يثبّتون أقدامهم»<sup>(١)</sup>

فكما أن النهضة يعوقها «الجمود» عند فكرة عصر التراجع الحضارى وتحلف التّمدن الإسلامى.. فإن «التّغريب» يفقدها استقلالها، ويلبس الأمة غير ثيابها، ويجردها من إمكاناتها وعوامل قوتها. ويبدد طاقاتها فيما يفيد غدوها، فيزيد ضعفها فى مواجهة التحديات. كل ذلك على وهم أن تصبح جزءاً من حضارة الغزاة. والطريقان - «الجمود» و«التّغريب» - كلاهما مرفوضان من تيار [الجامعة الإسلامية]، الذى يستعين على النهضة بـ«الأصالة» و«التجديد والتطور».. فلا نقف حيث وقف «سلف» العصر «العملوكى - العثمانى».. ولا نبدأ من حيث انتهى الأوروبيون.. ذلك «أن الظهور فى مظهر القوة، لدفع الكوارث، إنما يلزم له التمسك ببعض الأصول التى كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم. ولا ضرورة، فى إيجاد المنفعة، إلى اجتماع الوسائط وسلوك المسالك التى جمعها وسلكتها بعض الدول الغربية الأخرى. ولا ملجئ للشرقى فى بدايته أن يقف موقف الأوربى فى نهايته، بل ليس له أن يطلب ذلك. وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوقر نفسه. وأتمته وقراً أعجزها وأعوزها»<sup>(٢)</sup>

(١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ١٩٥ - ١٩٧

(٢) أى أعجزها، وأذلها، وصدعها

(٣) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٥٣٣

ففى «الجمود».. وفى «التغريب» كليهما: «جدع لأنف الأمة، يشوه وجهها، ويحط بشأنها».. ويفقدها الاستقلال الحضارى!

\* \* \*

وإذا كانت «السلطة السياسية» الممثلة فى رأس الدولة [ال خليفة - الإمام] وفى مؤسسات «الدولة» قد اكتسبت، فى العصر العثمانى، «قداسة دينية»، غريبة عن روح الإسلام، وهى قداسة ادعاها السلاطين العثمانيون، وباركها فقهاء هؤلاء السلاطين من أهل «الجمود».. ثم جاء دعاة «التغريب» ليرفضوها بـ «العلمانية» الغربية التى «تفصل» الدين عن الدولة، على النحو الذى صنعتة أوروبا فى عصر نهضتها وإحيائها وتنويرها.. فإن تيار [الجامعة الإسلامية] قد سعى إلى تجديد نظرة المسلم إلى المجتمع والدولة، برفض «وحدة» السلطتين - الدينية والزمنية - وأيضاً برفض «فصلهما»، وذلك عندما «ميز» بينهما، وأبصر علاقاتهما، التى لا ترقى إلى درجة «الوحدة»، ولا تقضى إلى حد «الانفصال».. وقال بتأسيس النهضة على الدين، مع تجريد مؤسسات «الدولة» من «الصبغة الدينية».. فالدولة إسلامية.. وكذلك المجتمع، والحضارة. لكن السلطة فى هذه «الدولة» «مدنية»! لأن مصدر السلطات فى المجتمع هو الأمة، والحاكم نائب عنها، ومسئول أمامها، وخادم لها، ومنفذ لقوانينها المدنية، والمحكومة بأطر الشريعة الإلهية فى ذات الوقت - وليس هذا الحاكم ظلاً لله ولا سيفاً مسلطاً على رقاب عباد الله!

فهذه الشئون «الدينيوية»: «بشرية»، وليست «إلهية»، ومصدرها العقل الإنسانى والتجربة الإنسانية - المحكومان بأطر مقاصد الشريعة، وليس مصدرها الرسالة والرسول والأنبياء.. وكما يقول الإمام محمد عبده فإن كل «ما يمكن للإنسان أن يصل إليه بنفسه، لا يطالب الأنبياء ببيانه، ومطالبتهم به جهل بوظيفتهم، وإهمال للمواهب والقوى التى وهب الله إياها ليصل بها إلى ذلك..» ولقد أرشدنا نبينا ﷺ إلى وجوب استقلالنا دونه فى مسائل دنيانا فى واقعة تأبير النخل، إذ قال: «أنتم أعلم بأمور دنياكم»<sup>(١)</sup>. والإسلام لا يرضى، فضلاً عن أن يسعى لمثل ما كانت عليه أوروبا الكاثوليكية فى عصورها الوسطى والمظلمة عندما «كانت السلطة الحقيقية مدنية سياسية دينية فى نظام واحد، لا فصل فيه بين السلطتين.. فهذا الضرب من النظام هو الذى يعمل البابوات وعمالهم من رجال «الكنيسة» على إرجاعه، لأنه أصل من أصول الديانة المسيحية عندهم، وإن كان ينكر وحدة السلطة الدينية والمدنية من لا يدين بدينهم.. فليس فى الإسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه.. وضالون من يرمون الإسلام بأنه يحتتم قرن السلطتين فى شخص واحد.. ليس فى الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة، والدعوة إلى الخير، والتنفير عن الشر، وهى سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم، كما خولها لأعلاهم يتناول بها من أدناهم.. ولذين يقولون إن لم يكن

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٤ من ٤٨٦ - ٤٨٧ .

للخليفة ذلك السلطان الديني. أفلا يكون للقاضي أو للمفتي أو شيخ الإسلام؟ أقول إن الإسلام لم يجعل لهؤلاء أدنى سلطة على العقائد وتقرير الأحكام، وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية! ذلك أن أصلاً من أصول الإسلام - وما أحله من أصل - قلب السلطة الدينية، والإتيان عليها من أساسها لقد هدم الإسلام بناء تلك السلطة، ومحا أثرها، حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ولا رسم؟! <sup>(١)</sup> كما يقول الإمام محمد عبده..

فلا «كهانة» أهل «الجمود» و«سلطتهم الدينية».. ولا «علمانية» دعاة «التغريب» وفصلهم الدين عن الدولة والمجتمع.. وإنما «التمييز» بين الدين والدولة، بتأسيس النهضة على الإسلام، وتقرير «مدنية» السلطة السياسية في المجتمع، بجعل الأمة مصدر السلطات والسلطان!



ولقد كانت «القداسة الدينية» لرأس السلطة السياسية في المجتمع تثمر - ضمن ما تثمر - تكريس الاستبداد السياسي، بل وإضفاء بعض من هذه «القداسة» عليه، فجاء فكر تيار [الجامعة الإسلامية] عن «مدنية» السلطة في الدولة الإسلامية ليُفسح المجال في فكر هذا التيار للحديث عن «الشورى»، كفلسفة للنظام السياسي الإسلامي، ولتسليط الضوء، بل والسهام على «الاستبداد السياسي» كعدو أول لنهضة العرب والمسلمين.. فالكواكبي، الذي ينفى أن يكون في الإسلام سلطة دينية أو نفوذ

[١] المصدر السابق، ج ٢، ص ١٧٥، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٨.



ديني في غير مسائل إقامة شعائر الدين<sup>(١)</sup> يقرر أن حكومة دولة الخلافة الراشدة كانت «مؤسسة على أصول الإدارة الديمقراطية، أي العنصرية». وأن سبب انحطاط المسلمين «هو تحول نوع السياسة من نيابية اشتراكية، أي ديمقراطية تمامًا، إلى سلطة شبه مطلقة...»<sup>(٢)</sup>. وهو يرفض رأي أهل «الجمود» الزاعمين بأن سبب الفتور والانحطاط الذي طرأ على المسلمين هو «التهاون في أمور الدين». ويقول: «... والأمر الغريب أن كل الأمم المنحطة، من جميع الأديان، تحصر بلية انحطاطها السياسي في ثهاونها بأمور دينها، ولا ترجو تحسين حالتها الاجتماعية إلا بالتمسك بعروة دينها تمسكًا مكثيًا، ويريدون بالدين العبادة! ولنعم الاعتقاد لو كان يفيد شيئًا، ولكنه لا يفيد أبدًا. ذلك أن الدين بذر جيد لا شبهة فيه، فإذا صادف مغرسًا طيبًا ثبت ونما. وإن صادف أرضًا قاحلة مات وفات، أو أرضًا مغرقًا هاف ولم يثمر. وما أرض الدين؟! أرض الدين هي تلك الأمة التي أعصى الاستبداد بصرها وبصيرتها، وأفسد أخلاقها ودينها، حتى صارت لا تعرف للدين معنى غير العبادة والنسك، اللذين تكون زيادتهما عن حدهما المشروع أضرم على الأمة من نقصهما، كما هو مشاهد في المتنسكين<sup>(٣)</sup>!...» ثم يتحدث الكواكبي عن القوى التي تمكن للاستبداد السياسي في المجتمع، فيعدد: «قوة الإرهاب، وقوة الجند - لا سيما إذا كان الجند غريب الجنس -

(١) [الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي] ص ١٤٨

(٢) المصدر السابق، ص ٣٥٧ - ١٤٧ - ٣٥٠

وقوة المال، وقوة الألفة على القسوة، وقوة رجال الدين، وقوة أهل الثروات، وقوة الأنصار من الأجانب»<sup>(١)</sup>.

أما الأفغانى فإن حديثه عن «الشورى» و«الحكم النيابى» وحكم البلاد بأهلها «حكماً دستورياً صحيحاً» هو حديث واضح وحاسم ومستفيض<sup>(٢)</sup>.

■ وفى «الدين»: سلفية جديدة، تتخذ من «العقل» أداة وحكماً وسلطاناً.

■ وفى «الدنيا»: مشروع حضارى مستقل، يبرأ من «كهانة» أهل «الجمود» و«سلطنتهم الدينية»، ومن «علمانية» دعاة «التقريب» وفصلهم الدولة عن الدين.

ويتبنى: تأسيس النهضة على الإسلام، وجعله حافزاً للإنسان كى يطلب سعادته من «كل الأبواب»، شريطة أن يبقى للحضارة العربية الإسلامية طابعها الوسطى المتوازن، الذى مثل روح هذه الحضارة فى عصرها الذهبى.

■ وفى «الدولة»: يتبنى هذا التيار «مدنية» السلطة، بما تعنيه وبما يترتب عليها من تأسيس الحكم على «الشورى»، وتنقية الفكر السياسى الإسلامى من الشبهات التى تيرر الاستبداد!

**العروبة المتميزة فى المحيط الإسلامى:**

بعض الناس لا يستسيغون القول بأن لتيار [الجامعة

(١) المصدر السابق، ص ١٨٧، ٢٢٥.

(٢) انظر [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٤٧٣

الإسلامية] موقفًا «قوميًا عربيًا»، أبصر تميز العرب، قوميًا، في المحيط الإسلامي، بل وعقد لهم لواء القيادة في هذا المحيط لا يستسيغون هذا القول، ويتساءلون، منكرين ومستنكرين: أتى يوجد للفكر القومي مكان عند دعاة الجامعة الإسلامية؟ ألا يدخل ذلك في باب الجمع بين المتناقضات؟

لكننا نقول: إن هذا الرأي لا يعدو أن يكون ثمرة من ثمرات النظرة السطحية للأمور، النابعة من الكسل العقلي، الذي يمنع هؤلاء من فتح الفكر والمواقف التي بلورها تيار [الجامعة الإسلامية] حول هذا الموضوع..

فالأفغانى الذى قال: «لقد علمنا، وعلم العقلاء أجمعون أن المسلمين لا يعرفون لهم جنسية [أى قومية] إلا فى دينهم واعتقادهم...» والذى دعا المسلمين قاطبة إلى الاعتصام «بحبال الرابطة الدينية، التى هى أحكم رابطة اجتمع فيها التركى العربى، والفارسى بالهندي، والمصرى بالمغربى، وقامت لهم مقام الرابطة النسبية...»<sup>(١)</sup> هو ذاته الذى يقول: «إنه لا سبيل إلى تمييز أمة عن أخرى إلا بلغتها. والأمة العربية هى عرب قبل كل دين ومذهب.. وهذا الأمر من الواضوح والظهور للعيان بما لا يحتاج معه إلى دليل أو برهان...»<sup>(٢)</sup>

وفى الوقت الذى مارس فيه الأفغانى الدعوة لقيام رابطة [للجامعة الإسلامية] بقيادة السلطان العثمانى عبد الحميد

(١) المصدر السابق، ص ٣٠٧، ٣١٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٣٧.

الثاني [١٢٥٨ - ١٣٣٦ هـ = ١٨٤٢ - ١٩١٨ م] لتجميع عالم الإسلام ضد التدخل الاستعماري الأوربي، كان صوته يعلو بنقد الدولة العثمانية لرفضها الاستعراب، وتحويل الترك، بواسطة اللغة والحضارة، إلى «جزء من الأمة العربية».. فكتب عن هذا «الخطأ العثماني القاتل» يقول: «لقد أهمل الأتراك أمراً عظيماً.. وهو اتخاذ اللسان العربي لساناً للدولة.. والسعي لتعريب الأتراك.. وإنما فعلت العكس، إذ فكرت بتترك العرب، وما أسفها سياسة وأسقمه من رأي؟! فكيف يعقل تترك العرب. وقد تبارت الأعاجم في الاستعراب وتسابقت، وكان اللسان العربي لغير المسلمين، ولم يزل، من أعز الجامعات وأكبر المفازة! إنها لو تعربت لانتفت من بين الأمتين النعرة القومية، وزال داعي التفور والانقسام، وصاروا أمة عربية..»<sup>(١)</sup> واحدة!

ومحمد عبده، وهو المهندس الأعظم لمدرسة التجديد الإسلامي. وروح تيار [الجامعة الإسلامية] هو القائل عن الإسلام، عندما كانت السلطة والدولة في أهله عربية «كان الإسلام عربياً، ثم لحقه العلم فصار عربياً، بعد أن كان يونانياً»<sup>(٢)</sup>

لكن.. هل هي «المتناقضات» التي يستحيل اتساقها؟.. وإذا لم يكن الأمر كذلك، فكيف يستقيم الحديث عن أن المسلمين «لا جنسية لهم إلا في دينهم واعتقادهم» الديني، مع الحديث عن أن

(١) المصدر السابق، ص ٢٢٤، ٢٣٦، ٢٣٧

(٢) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٢ ص ٢١٧

«الأمّة العربية هي عرب، قبل كل دين ومذهب»، والدعوة إلى  
تعرب الترك، ليصبحوا جزءاً من «الأمّة العربية» بل والحديث عن  
«الإسلام ديناً عربياً»!

إنها ليست «متناقضات»... بل هي الفكر المتسق، الذي وازن  
به تيار [الجامعة الإسلامية] بين «الخصوصية القومية  
للعرب»، كأمة، بالمعنى القومي، في محيط إسلامي ضم أمماً  
تدينت بالاسلام الدين، وبين «عموم» الرابطة والجامعة  
الاعتقادية والملية التي جمعت كل من تدين بهذا الدين. وفي  
هذه الموازنة تكمن عبقرية هذا التيار في هذا الميدان!

فبين «الأقوام المسلمين» رابطة مؤسسة على عقائد الإسلام،  
ومتمثلة في آدابه.. وهي بالنسبة لهم جميعاً بمثابة «الجنسية  
الإسلامية»... لكن هذه الشعوب الإسلامية تسكن أقاليم متعددة،  
وتنتمي إلى قوميات تميزها لغات مختلفة، الأمر الذي أثمر تمايزاً  
في العوائد والأخلاق... «وتحت هذه المؤثرات - الإقليم، واللغة،  
والأخلاق، والعوائد، كما يقول الأفغانى - تحصل للأقوام ميزة،  
وتتأصل فيهم محبة البقاء على مألوفهم، والنود عنه، واعتبار من  
خالفه أنه ليس منهم، بل هو غيرهم بمعنى الغيرية المطلقة»<sup>(١)</sup>.

وهذه «الغيرية» القومية، التي تمثل واقعاً قائماً في المحيط  
الإسلامي، الذي تجمعه رابطة الإسلام، هي التي جعلت الأفغانى  
ينبه على أن مطلب تيار [الجامعة الإسلامية] لا يرقى «للوحة  
السياسية» للأمم الإسلامية، «فإن هذا ربما كان عسيراً، ولكنى

(١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٤٢٧، ٤٢٨.

أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن، ووجهة وحدتهم الدين، وكل ذي ملك على ملكه، يسعى بجهد له حفظ الآخر ما استطاع، فإن حياته بحياته، وبقائه ببقائه...»<sup>(١)</sup>

فهى رابطة «التضامن الإسلامى والنصرة الإسلامية»، تشد الأمم الإسلامية، التى تقوم وحدة كل منها، سياسيًا، وتتأسس على رابطتها القومية التى تميزها فى المحيط الإسلامى الأكبر والأوسع.. فهنا «أمة» إسلامية، و«جنسية» [قومية] إسلامية، قوامها رابطة الملة والاعتقاد.. وفى محيطها تتميز وتتمايز «أمم» و«قوميات»، بالمعنى القومى الأخص، تتأسس على السمات القومية المتميزة فى إطار المحيط الإسلامى الكبير..

وعند ابن باديس - وهو إمام الجناح المغربى لتيار [الجامعة الإسلامية]- نجد وضوحًا كاملاً فى تصوير العلاقة بين «الأمة العربية»، المتميزة قومياً، وبين «الأمم الإسلامية» غير العربية.. فالعرب أمة فى القومية.. وفى السياسة.. والوحدة السياسية، بمعنى وحدة الدولة أمر وارد، بل واجب بين من يتمتعون منهم بالاستقلال عن مناطق نفوذ الاستعمار وسيطرته.. أما الأمم التى تجمعها رابطة الملة والاعتقاد الدينى، دون رابطة العروبة القومية، فإن رابطة الدين تثمر لها وحدة فى النواحي الأدبية والاجتماعية- دون السياسية - ومن ثم دون الدولة الواحدة.. وبعبارة ابن باديس: فنحن إذا قلنا العرب، فإننا نعنى هذه الأمة الممتدة من المحيط الهندى شرقاً إلى المحيط الأطلنطيقى غرباً. والتى تنطق

(١) المصدر السابق ص ٣٤٥



بالعربية، وتفكر بها، وتتغذى من تاريخها، وتحمل مقداراً عظيماً من دمها، وقد صهرتها القرون في بوتقة التاريخ حتى أصبحت أمة واحدة. هذه الأمة تربط بينها - زيادة على رابطة اللغة - رابطة الجنس، ورابطة التاريخ، ورابطة الألم، ورابطة الأمل. فالوحدة القومية والأدبية متحققة بينها لا محالة. وبين الشعوب العربية المستقلة تمكن الوحدة السياسية، بل وتجب. أما المسلمون الذين تنوزعهم عدة قوميات، فإن علاقتهم شاملة ناحيتين:

■ ناحية سياسية دولية..

■ وناحية أدبية اجتماعية..

فأما الناحية السياسية الدولية، فهذه من شأن أمهم المستقلة، وأما الناحية الأدبية الاجتماعية فهي التي يجب أن تهتم بها كل الأمم الإسلامية.. إنها مهمة جماعة المسلمين، وهم أهل العلم والخبرة الذين ينظرون في مصالح المسلمين الدينية والأدبية..<sup>(١)</sup>

هكذا وضحت الرؤية، وتحددت العلاقات، والتصورات.

ولقد برز تيار [الجامعة الإسلامية] من شبهة تأسيس التمايز القومي للأمة العربية في المحيط الإسلامي على أسس عرقية أو عنصرية.. فالعروبة - عند أعلام هذا التيار - مؤسسة على ثمرات التميز في اللغة، والإقليم، والعادات والتقاليد.. وعندهم أن اللغة «لها آداب، ومن هذه الآداب تحصل ملكة الأخلاق، وعلى حفظها

(١) [كتاب آثار ابن باديس] ج ٣، ص ٣٩٨، ٣٣٩، ٤١١. جمعها ونشرها الدكتور عمار طالبى. طبعة الجزائر سنة ١٩٦٨م

تتكون العصبية!... وللغة «تأثير - معنوي - علاوة على التأثير المادي - يجعلها من أكبر الجوامع التي تجمع الشتات، وتنزل من الأمة منزلة أكبر المفاخر»، حتى لتصبح طوق النجاة للأمة، تجمع شملها القومي إذا غالتها وحاولت اغتيال وحدتها التجزئة المفروضة على وطنها القومي من قبل الغزاة! «فكم رأينا دولاً اغتصب ملكها الغير، فحافظت على لسانها [لغتها] محكومة، وترقيت الفرص، ونهضت بعد دهر، فريدت ملكها، وجمعت من ينطق بلسانها إليها، والعامل في ذلك إنما هو اللسان قبل سواه، ولو فقدوا لسانهم لفقدوا تاريخهم، ونسوا مجدهم، وظلوا في الاستعباد إلى ما شاء الله...»<sup>(١)</sup>

وأعلام هذا التيار يؤصلون «المعيار اللغوي للعروبة» بحديث الرسول ﷺ، الذي يقول فيه «أيها الناس، إن الرب واحد، والأب واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب. وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هي اللسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربي»<sup>(٢)</sup>.

وهم لا يقفون، فقط، عند تقرير حقيقة تمييز العرب قومياً في المحيط الإسلامي، بل ويتبنون الدعوة إلى دور قائد للأمة العربية في هذا المحيط.

■ قالأفغاني قد دعا إلى تعرب الترك، ليصبحوا جزءاً من «الأمة العربية» الواحدة!

(١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ٢٢٩، ٢٢٤

(٢) رواه ابن عساکر، بسنده، عن مالك الزهري، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن - [تاريخ دمشق]

■ والإمام محمد عبده رأى أن عظمة هذه الأمة قد تحققت عندما «كان الإسلام عربياً.. فلما تغلب الجند غير العرب «من الترك والديلم وغيرهم» على الخلافة العربية، «هناك استعجم الإسلام وانقلب أعجمياً» فكان الانحطاط»<sup>(١)</sup>.

■ والكواكبي - وهو إمام الجناح المشرقي لتيار [الجامعة الإسلامية] - يعقد للعرب لواء القيادة في تجديد عالم الإسلام والشرق فيقول: إن «العرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية، بل الكلمة الشرقية.. وهم أنسب الأقوام لأن يكونوا مرجعاً في الدين وقدوة للمسلمين، حيث كان بقية الأمم قد اتبعوا هديهم ابتداءً، فلا يأنفوا عن اتباعهم أخيراً»<sup>(٢)</sup>.

■ وابن باديس يرى أن «العرب قد رُشحوا لهداية الأمة، وأن الأمم التي تدين بالإسلام وتقبل هدايته ستتكلم بلسان من يتكلم لغتها، ويهتدون مثلها بهدى الإسلام...» فالعروة وثقى بين الإسلام والعروبة.. ونمو الإسلام يعنى نمو الأمة العربية.. ولذلك فإن رسول الإسلام، ﷺ، كان «رسول الإنسانية.. ورجل القومية العربية، والأمة العربية في أن واحد.. نهتدى بهديه، ونخدم القومية العربية خدمته، ونوجهها توجيهه، ونحيا لها، ونموت عليها..» كما يقول ابن باديس<sup>(٣)</sup>.

هكذا تميز موقف تيار [الجامعة الإسلامية] من قضية العروبة وتميز العرب قومياً، ومن علاقة هذا الكيان القومى

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٢ ص ٢١٧ - ٢١٨.

(٢) [الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي] ص ٣٥٨.

(٣) [كتاب آثار ابن باديس] ج ٤ ص ١٧ - ١٩ - ٢١.

العربي بالمحيط الإسلامي.. فأعلام هذا التيار لم يقفوا عند العروبة. رافضين روابط الملة والاعتقاد الديني - كما صنع «القوميون العلمانيون» -.. ولم ينحازوا إلى الرابطة الإسلامية. زاعمين تناقضها مع التمايز القومي، الذي هو أخص منها - كما صنع فريق من العاملين في الحقل الإسلامي -.. وإنما وازنوا بين الرابطتين، ودعوا إلى دور قائد للأمة العربية في المحيط الإسلامي، سواء في تجديد الدين أو في النهضة التي تجدد للعرب والمسلمين دنياهم، وتعيد لهم استقلالهم الحضاري الذي ميزهم تاريخياً عن أمم وحضارات أخرى..

### حضارة جديدة.. ومتميزة،

لقد أبصر تيار الجامعة الإسلامية الهدف الاستعماري الأوربي القديم.. ذلك الهدف الذي تجلّى في كل موجات الغزو التي تعرض لها وطن العروبة خلال هذا الصراع التاريخي الطويل.. فالغرب يريد أن يحرز النصر على الجبهة الحضارية، باحتواء العرب حضارياً، حتى يختم دورات هذا الصراع بانتصار حاسم ونهائي. ومن ثم فهو - وقد عاد مسلحاً هذه المرة بالثورة الصناعية وثمارها العديدة من أدوات القوة المتنوعة، وبالحضارة الأوربية المتألّفة والمنفردة على خريطة الكوكب الذي يسكنه الإنسان - يريد ألا تظل حضارته هذه حضارة جاليته الأوربية ومستوطنيه فقط في مستعمراته العربية والإسلامية. وذلك كي لا تتكرر قصته القديمة يوم زالت حضارته بزوال الدولة الاستعمارية القديمة. إغريقية.. وبطلمية..

وبيزنطية.. وسواء كانت السبل هي القهر بالمسح القومي والسحق للهوية الحضارية، كما حاول الفرنسيون بالجزائر، أو بالإغراء كما صنعوا هم من خلال مدارس التبشير وغيرها. وكما صنع الإنجليز في مستعمراتهم، فإن الهدف واحد ومحدد، وهو أن ينسلخ العرب والمسلمون عن هويتهم الحضارية المتميزة، فيصبحون غريبا، وتتم عملية الاحتواء التي تكرس النصر للغرب في هذا الصراع الحضارى الطويل. وفى حديث الكاتب والسياسى الاستعماري الفرنسى «جابريل هانوتو» عن هذا الصراع الحضارى بين الحضارة الأوربية، التي يسميها «المدنية الأرية المسيحية»، وبين الحضارة العربية الإسلامية، التي تشد العرب - كما يقول - إلى «الماضى الآسيوى»، يتجلى فرخ المستعمرين بما لاح لهم من نجاح هذا المخطط «التغريبي» فى بعض أقطار الشمال الإفريقى - تونس - وهو النجاح التغريبي الذى تحدث عنه هانوتو بقوله: «يوجد الآن بلد وأرض تنقلت شيئا فشيئا من مكة ومن الماضى الآسيوى»<sup>(١)</sup>..

وحتى لا يتحقق للاستعمار هذا الهدف الكبير، القديم والجديد، كانت دعوة تيار الجامعة الإسلامية إلى تجديد الحضارة العربية والإسلامية، تجديدها وليس التخلي عنها، ولا استبدالها.. ففي الوقت الذى تصدى فيه هذا التيار للتحديات التى مثلت قيود العصور الوسطى على حركة الأمة ويقظتها ونهضتها وتتصدى للغزوة الاستعمارية الأوربية، كاحتلال عسكري ونهب اقتصادي،

(١) [الإسلام والرد على منتقديه] - مجموعة أبحاث - من ٢٧ طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨م

تصدى كذلك لدعاة إحلال حضارة الغرب محل حضارتنا العربية الإسلامية، التي لم تكن صورتها التي تقدمها المؤسسات التقليدية يومئذ تغرى بالاستلهاهم أو تبعث على الاحترام..

ولقد انطلق هذا التيار في دعوته لتجديد حضارتنا المتميزة من عدة منطلقات يجمعها ويربطها خيط واحد.

١ - فنحن أمة عريقة، ولحضارتنا مزاج متميز وطابع خاص.. وتتميز هذه الحضارة بالموقف المتوازن والموازن بين المتناقضات، وتمثيلها «للضمير» في مواجهة حضارات تميل عادة إلى طرف واحد من طرفي الظاهرة يعطى حضارتنا هذه مزية، ويعصمها من مخاطر وأخطار يشكو منها الآخرون..

٢ - إن للمزاج الحضاري المتميز علاقة عضوية بتكوين الأمة، ومقومات هذا التكوين، وإذا كانت الأمة - كما هو حال أمتنا - ذات عراقة حضارية وتراث غني ودور بارز في تاريخ الإنسانية وصراعاتها الحضارية، فليس من السهل تجريدها من ثوبها الحضاري الخاص، والقذف بها تحت عباءة الآخرين..

بل قد يستحيل ذلك حتى لو أراد نفر من بنيتها، مخلصين كانوا أم مخادعين.. وبعبارات ابن باديس عن «الغيرية الحضارية» - أي التميز للجزائر عن فرنسا - «إن هذه الأمة الجزائرية ليست هي فرنسا، ولا تستطيع أن تصبح فرنسا ولو أرادت..»

٣ - إن الدعوة إلى «حضارة عربية إسلامية متميزة» لا يعنى تقديس الماضي، ولا العودة إليه كي نعيش في قوالبه، بل ولا الأخذ بجميع أصوله.. وإنما الذي تعنيه هذه الدعوة هو الأخذ



«بالثوابت» من «الأصول» التى تمثل القسّمات المميزة للشخصية الحضارية العربية الإسلامية. وهذه الأصول التى تحمل صلاحيات العطاء المعاصر، وتمثل قوة دفع وطاقة تحريك للأمة نحو التقدم، إنما تمثل بما لها من قداسة فى نفوس الأمة مناهجاً ملائمة يسرع بحركة الأمة كى تنخرط فى عملية التجديد واليقظة والتطور، على عكس حالها إذا ما دعيت إلى نمط جديد وغريب ليس لأصوله فى ضميرها قداسة واحترام.. ففارق بين أن تقتنع صفوة مستنيرة بنمط حضارى معين، فتنخرط فى العمل لسيادته وتسويده، وبين أن تدخل الأمة عصر تجديد حضارتها الخاصة، الممثلة لذاتيتها، والمجسدة لخصوصيتها القومية. مسوقة إلى ذلك بقيم وأفكار وموارث لها فى نفوسها وضمائرها هالات المقدسات.. فنطاق «التحديث» فى الحالة الأولى، محدود، ومن السهل حصاره واقتلاعه - علاوة على انتفاء علائمه وجدواه - أما فى الحالة الثانية، فإن السعى فى «التجديد» سيكون سريعاً وحثيثاً، ونطاق انتشاره سيكون عاماً وشاملاً، واقتلاع الأعداء لآثاره سيكون مستحيلاً.. وذلك فضلاً عن جدواه النابعة من علائمه للأمة التى تنهض بهذا «التجديد».

إذن، فالمطلوب هو البدء من بعض أصول الماضى - أى «الثوابت» - الصالحة، والتى تمثل «الروح الحضارية» للأمة، والضامنة لها استمرارية مسيرتها الحضارية.. وبعبارة الأفغانى - فى المنهاج الذى تحدّد لـ [العروة الوثقى] «فإن

الظهور في مظهر القوة، لدفع الكوارث، إنما يلزم له التمسك ببعض الأصول التي كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم<sup>(١)</sup>.

وهذه «الأصول - الثوابت» - كما يقول محمد عبده - هي التي ستجعل الأرض، إنسانياً وفكرياً، ممهدة للإصلاح والتجديد والنهضة.. فالناس سيصغون «للمؤذن»، ويلبون نداءه، لأنه يؤذن فيهم من داخل سور مدينتهم، وبلغتهم، وبما هو مألوف لهم.. وليس من خارج السور، برطانة الأعاجم والخواجات.. وعندما يكون الأمر «تجديداً» للأصول الثوابت فستكون لدعوته في قلوب الأمة وعقولها قواعد ومقدمات تعين على انخراط الأمة في مشروعها القومي النهضوي، تشدّها إليه «العوامل الطبيعية للانتماء».. وبعبارة محمد عبده: «فهذه سبيل لمريد الإصلاح في المسلمين لا مندوحة عنها، فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين يحوجه إلى إنشاء بناء جديد، ليس عنده من مواده شيء، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحداً وإذا كان الدين كافلاً بتهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله من الثقة فيه ما يبنّاه، وهو حاضر لديهم، والعناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إمام لهم به، فلم العدول عنه إلى غيره؟»<sup>(٢)</sup>.

والتمسك بالأصول الثوابت، والروح الحضاري للأمة العربية الإسلامية لا يعني - في رأي أعلام هذا التيار - الرجوع للعيش

(١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ٥٣٣.

(٢) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٣ ص ٢٢١.

فى الماضى، فلقد عابوا على «السلفية النصوصية» - كما سبقت إشارتنا - موقفها غير الودى من العقل والتمدن والتحضّر - وهو لا يعنى الاكتفاء بالتراث الدينى وعلوم الشرع فى النهضة والإصلاح، ولا العزلة الرافضة للتفاعل الحضارى.. ذلك أن الإصلاح الدينى شىء، والإصلاح المدنى والتجديد الحضارى شىء آخر، يتمايزان، مع الارتباط والاتصال.. والاستعانة بالدين فى تحريك الأمة إلى التجديد الحضارى، مستعينة بمنابعه النقية، لا يعنى أن التجديد الحضارى هو ذات الإصلاح الدينى.. وبعبارة محمد عبده: «لو رزق الله المسلمين حاكماً يعرف دينه ويأخذهم بأحكامه، لرأيتمهم قد نهضوا، والقرآن الكريم فى إحدى اليدين، وما قرر الأولون وما اكتشف الآخرون فى اليد الأخرى. ذلك لأخرتهم، وهذا لديناهم، ولساروا يزاحمون الأوربيين فيزحمتهم»<sup>(١)</sup>.

فالعلاقات لا تعنى طمس التمايز والفروق، أو تحويل الوسائل إلى غايات!

٤ - وكما رفض تيار الجامعة الإسلامية «سلفية الجمود» عند فكرية العصور المملوكية العثمانية.. كذلك رفض طريق «التغريب»، الذى مثل أصحابه «السلفية الغربية»! التى انبهر تيارها بالغرب، فدعا إلى أن نبدأ من حيث انتهى الغرب، وأن نسلك نفس الوسائل والوسائط التى سلكها الغرب إلى ذات الغايات والأهداف التى استهدفها. رفض هذا التيار سبيل التغريب، لمنافاته حقيقة «التمايز الحضارى» لأمتنا عن الحضارة

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٥١، ٢٥٢.

الغربية.. وكتب الأفغانى فى منهاج [العروة الوثقى] يقول: «إنه لا ضرورة، فى إيجاد المنفعة، إلى اجتماع الوسائط وسلوك المسالك التى جمعها وسلکها بعض الدول الغربية الأخرى ولا ملجئ للشرقى فى بدايته أن يقف موقف الأوربى فى نهايته، بل ليس نه أن يطلب ذلك، وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوفر نفسه وأمنه وقرأ أعجزها وأعوزها...»<sup>(١)</sup>

والأفغانى يرى فى هؤلاء «المتغربين»، الذين افتقدوا الثقة بالذات والأصالة والأمل فى بناء الحضارة المتميزة، حتى لقد استحكمت منهم «عقدة الأوربى».. يرى فيهم خطراً يفتح للاستعمار فى حياتنا الثغرات، فيقول: «إن أشد وطأة على الشرق، وأدعى إلى تهجم أولى المطامع من الغربيين، وتذليل الصعاب لهم، وتثبيت أقدامهم، هم أولئك الناشئة، الذين بمجرده تعلمهم لغة القوم والتأدب بأسفل آدابهم، يعتقدون أن كل الكمالات إنما هى فيما تعلموه من اللسان، على بساطته، وفيما رأوه من بهرج مظاهر الحالات، وقراءة سير وسير من قطع مراحل من الغربيين فى سبيل الأخذ فى ترقية أمته، بدون أن يسبروا من ذلك غوراً، أو يفهموا التدرجهم معنى. ويعتقد الناشء الشرقى أن كل الرذائل ودواعى الحطة ومقاومات التقدم إنما هى فى قومه، فيجربى مع تيار غريب من امتهان كل عادة شرقية، ومن كل مشروع وطنى تتصدى له فئة من قومه أو أهل بلده، ويأنف من أى عمل ما لم يشارك فيه الأجنبى!...»<sup>(٢)</sup>

(١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٥٢٢

(٢) المصدر السابق ص ١٩٠ .

فالاعتراض هنا ليس على «سبر غور» أسرار التقدم الغربى،  
للتمييز بين «الضرورى - النافع»، و«الضار - غير الملائم»،  
للاستفادة بالأول، بالتمثل الطبيعى والصحى، مع تجنب الثانى  
ورفضه. فمن قبل صنع العرب ذلك يوم أخذوا، من موقف  
المستقل وموقع القادر على التمييز، عن الفرس والهنود  
واليونان، كى يصنعوا الذاتى والجديد والمتميز. وإنما الاعتراض  
على «تقليد المنيهر»، الذى أفقده «الانبيهار» الثقة بالذات،  
والقدرة على التمييز!

فالتمايز الحضارى، الذى هو «حقيقة واقعة»، يدعونا إلى أن  
نبصر ما لكل حضارة من خصوصية. وهذه الخصوصية لا تنفى  
وجود ما هو عام وميراث إنسانى تشترك فيه كل الحضارات..  
وفتح النوافذ على مختلف الحضارات يجب أن يكون واعياً بما هو  
«خاص» وما هو «عام». ومن غير الطبيعى، وغير المفيد زرع  
الأجسام الحضارية الغريبة فى بيئات لا تحتاجها ولا تفيد منها.  
وبهذا الفهم علينا أن ننظر لخصوصية التمدن الأوربى، باعتباره  
- كما يقول الأفغانى - «فى الحقيقة تمدناً للبلاد التى نشأ  
فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنسانى». أما الذين  
يقلدون هذه الخصوصية، المقدمات منها والنتائج، فانهم - وفق  
عبارة الأفغانى - «ينفون ثروتهم إلى غير بلادهم.. ويميتون أرياب  
الصنائع من قومهم». وهذا جدع لأنف الأمة، يشوه وجهها، ويحط  
من شأنها! فلقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة،  
المنتحلين أطوار غيرها، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها.

وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات، يمهّدون لهم السبيل،  
ويقنحون الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم»<sup>(١)</sup>.

فالتمدن: نبت طبيعي، ونمو طبيعي، بينه وبين مقدماته  
وموروثه وملايساته علائق تجعل له تمايزًا عن نظيره الذي  
تختلف عنده المقدمات والمواريث والملايسات.. الأمر الذي يمايز  
بين الحضارات والشخصيات القومية للأمم هذه الحضارات.

وهذا التمايز الحضاري إذا كان يعنى الرفض «التبعية»  
الحضارية، والانسحاق أمام عدوانية الحضارة الغربية وغزوها  
الفكرى واستعلائها.. فإنه لا يعنى الانغلاق الرافض لاستلها  
مصادر القوة التى تدعم وتنمى النهضة المستقلة والتميز  
لحضارتنا العربية الإسلامية.. فرفض «التبعية» لابد أن يقترن  
برفض التقوقع والعزلة والانغلاق، فالتعددية الحضارية حقيقة  
من حقائق الواقع.. واكتفاء حضارة ما بذاتها عن غيرها من  
الحضارات هو خرافة من الخرافات<sup>(٢)</sup>.

على هذا النحو فكر تيار الجامعة الإسلامية.. وبهذا النهج  
صاغ معالم مشروع النهضة الحضارية المستقلة، لا يزال بانتظار  
من يطوره.. ويضعه فى الممارسة والتطبيق.

(١) المصدر السابق ص ١٩٥ - ١٩٧



---

## الموروث .. والوافد

---

## تاريخ القضية

القضية المثارة هي: قضية «الموروث» و«الوافد».. أو «الوافد» و«الموروث». وفى اعتقادى أن إثارة هذه القضية، والجدل الذى يدور حولها هو أمر طبيعى، ليس فيه أى افتعال..

فمن الأمور الطبيعية، بل والضرورية، بالنسبة لأية أمة أو حضارة أن تتأثر هذه القضية، ويدور الجدل حول العلاقة ما بين «الوافد» و«الموروث»، وحول الموقف من «الموروث» أو الموقف من «الوافد»، عندما يكون هناك احتكاك بين حضارتين، بين ثقافتين، بين منظومتين فكريتين تنتسب كل منهما لأمة من الأمم، ويقوم بينهما تمايز أو خلاف فى الروح أو السمات والقسمات.

وهذه القضية - قضية العلاقة بين «الموروث» و«الوافد» - بالنسبة لنا، ليست حديثة الظهور، وليس صحيحاً أنها بنت اليوم.. كما أنها ليست مفتعلة - كما أشرت - بأى حال من الأحوال.. قد يكون الصوت - الذى يثيرها - يعلو الآن بالجدل حولها أكثر من ذى قبل.. لكننا إذا رجعنا لتراجع صفحات مضت فى تاريخنا الحديث، ونظرنا إلى «خريطة» حياتنا

الفكرية في بداية الغزوة الاستعمارية الحديثة للشرق، ولوطن العروبة وعالم الإسلام على وجه التحديد. فسنجد أن هذه القضية قد أثّرت بصدد الموقف من الفكرية التي جاءت إلينا في ركاب هذه الغزوة الاستعمارية الحديثة. فمنذ غزوة بونابرت [١٧٦٩ - ١٨٢١م] وحملته على مصر سنة ١٧٩٨م كانت البعثة العلمية، وكانت المطبعة، وكان الفكر مجسداً «للوافد» الذي جاء مع هذه الحملة وأيضاً كان ذلك «الوافد» الفكري مميزاً لهذه الغزوة الحديثة عن سابقتها الصليبية التي دأبنا في العصور الوسطى [٤٨٩ - ٦٩٠هـ = ١٠٩٦ - ١٢٩١م] فالصليبيون كانوا فرسان إقطاع، همجاً، لا يملكون سوى القوة الغاشمة، وكما يقول أحد المؤرخين العرب الذين عاصروا تلك الغزوة الصليبية - وهو أسامة بن منقذ [٤٨٨ - ٥٨٤هـ = ١٠٩٥ - ١١٨٨م] - فإن الفرسان الصليبيين هؤلاء كانوا «كالبهائم، ليست لهم «فضيلة» إلا القتال». فيتعبير ذلك المؤرخ كانوا فرسان إقطاع، جاءوا من مجتمعات مظلمة ومتخلفة، بالمقاييس الحضارية. وبالتالي فقد تعلموا من الشرق الإسلامي، ولم يكن لديهم فكر يغرون به هذا الشرق. لقد أقاموا كيانات استيطانية صليبية لاتينية في قلب وطن الأمة العربية الإسلامية، لكنهم لم تكن لديهم إضافة فكرية لأن أوروبا، في ذلك التاريخ، كانت متخلفة. تعيش عصورها الوسطى والمظلمة، على حين كان الشرق العربي الإسلامي هو المتقدم حضارياً.

ونحن نعلم أن هذا الاحتكاك العنيف بين الغزاة الصليبيين وبين الشرق المتحضر نسبياً، في ذلك التاريخ، كان من مثيرات

ومؤثرات وأسباب النهضة الأوروبية فيما بعد، لأنهم قد تعلموا من الشرق أثناء هذا الاحتكاك العنيف.. كما تعلموا من احتكاكهم السلمي والعنيف بحضارتنا على أرض الأندلس.

أما الغزوة الاستعمارية الحديثة، التي تعرض لها وطن العرب وعالم الإسلام، فلقد تميزت عن الغزوة الصليبية، لأنها جاءت، ليس فقط بالمدفع والبارود والجيش المنظم، تنظيماً حديثاً، وليس فقط بالشركات الرأسمالية والنهب الاقتصادي الاستعماري المنظم، وإنما جاءت أيضاً بفكرية الحضارة الغربية، فكرية عصر النهضة الأوروبية، هذه الفكرية التي تألفت وأبدعت في مختلف مجالات العلوم والفنون.. كانت هذه ميزة تميزت بها هذه الغزوة الحديثة، ومن هنا كانت حملة بوناپرت شاملة للقوة ولل فکر معاً. وكذلك كان حال كل الحملات الاستعمارية التي جاءت بعد ذلك التاريخ لتخضع الشرق لهيمنة الاستعمار الحديث.

لقد نشأ منذ ذلك التاريخ ما يسمى بفكرية «التغريب» و«التغريب» و«المتغربين».. ذلك أن الحضارة الغربية، على عكس الحضارة العربية الإسلامية، قد نهجت نهجاً سيئاً، استعلائياً وعدوانياً في كل المجتمعات التي غزتها.. فنحن نعلم أن العرب المسلمين، عندما فتحوا البلاد التي فتحوها، قد احتضنوا الموارث الحضارية القديمة.. فالمواريث التي كانت قد هجرت وماتت أحيوها، ودخلت هذه الموارث - وبالتحديد: الصالح للعطاء من هذه الموارث - في نسيج الحضارة العربية الإسلامية الجديدة، أما الحضارة الأوروبية الغازية، فلقد مارست

سياسة النسخ والمسح والتشويه مع الموارد الحضارية للشعوب والبلاد التي فتحتها هذه الغزوات الاستعمارية الحديثة.. فكما صنعوا مع الهنود الحمر، أرادوا وحاولوا أن يصنعوا مع الموارد الحضارية للشعوب الإفريقية، وفي آسيا، وفي كل البلاد التي غزوها، فهذه «الفكرية التغريبية» أرادت لهذه الشعوب المستعمرة أن تتحول لا إلى الحضارة الغربية، كما زعموا ويزعمون، قهمل لا يمكنون هذه الشعوب من أن تصبح مثلهم في الحضارة، بامتلاك مصادر القوة في الحضارة الغربية - وهي كثيرة وغنية - وإنما أرادوا أن تتحول هذه الأمم وهذه الشعوب إلى «هامش حضارى».. مجرد «هامش حضارى».. إلى موقع «التبعية الحضارية» للمركز الأوربي، وكان الهدف، ليس تحضر هذه البلاد ونهضتها، لأن الاستعمار، بدهاة، ليس حريصاً على هذا الهدف وهذه الغاية، وإنما كان الهدف هو أن يصبح العقل عندنا تابعاً «للمركز الأوربي» والغربي، لأن هذا هو السبيل الأمثل والأضمن لتأييد، بل وتأييد الغزوة الاستعمارية والنهب الاستعماري، وهذا هو الضمان الرئيسي كي تتحول إلى «هامش أمني» يحمي أمن «المركز الأوربي» والغربي!.. فكان سعي هذه الغزوة الاستعمارية الحديثة ليس فقط إلى أن تصبح قواعد لأمن الغرب، وليس فقط إلى أن تصبح سوقاً ویداً عاملة رخيصة لاحتكارات الغرب الرأسمالية، وإنما أيضاً وحتى يدوم ويتأبد هذا، لابد من تكبيل هذا العقل في الوطن العربي والإسلامي بقيود التبعية الفكرية.. لقد وقفوا موقف العداء من «خلافنا الحضارى» لهم، و«اختلافنا

الحضارى» عنهم. وكل ما مثوا علينا به من حرية فى «الخلافا» و«الاختلاف» هو أن نختلف خلافتهم وننقسم انقسامهم، فتكون «محافظةتنا» هى «محافظةتهم»، و«ليبراليتنا» هى «ليبراليتهم» و«تقدميتنا» هى «تقدميتهم» و«شموليتنا» هى «شموليتهم».. فلا نخرج عن إطار «التبعية والاحتواء».. لقد كان هذا هو «الخيار» - إن جاز أن يسمى خياراً - الذى سمحوا به لعقلنا، حتى لقد أصبحت التبعية للغرب هدفاً يسعى إليه المستضعفون، وصارت «قيذاً - لذيذاً» تجرى وراءه النخبة والصفوة، لتجعل وطننا قطعة من أوروبا، ولتجعل هذه الأمة أوربية العقل والحياة، نأكل كما يأكل الأوروبيون، وتلبس كما يلبسون، ونفكر كما يفكرون، ونصيب كما يصيبون، ونخطئ كما يخطئون، ونعيش كما يعيشون؛

ولقد بلغ الحال، فى إطار هذه التبعية الفكرية التى فرضت علينا، إلى الحد الذى أصبح فيه كل رجال الفكر فى بلادنا لا يستطيعون أن يؤثروا فى الأمة - وفى تحديد أذواقها وأزيائها مثلاً تأثير صاحب دار أزياء فى مركز من مراكز الغرب.. وقس على ذلك مدارس الفكر، ومذاهب وأدوات الإبداع.. فإذا كانت عندهم «وجودية»، نجتهد، فنجهد الحقيقة لنفتعل عندها «وجودية»! وإذا كان عندهم «اغتراب».. نفتعل عندها «اغتراباً»! وإذا كانت عندهم «بنيوية».. فلا بد أن تكون لنا «بنيوية»!.. وهكذا نصبح، بالفعل، راقصين على الأنغام الفكرية الأوروبية، دونما اعتبار للبديهيات التى تقول إن لكل أمة نمطاً فى التطور، ولكل



حضارة عريقة وغنية مزاجاً في التطور. وأن الفكرية  
[الأيدولوجية] لابد أن تطبع بطابع الواقع الذي تعيشه الأمة  
وتتفاعل فيه.

كان مطلوباً إلغاء هذا المنطق البديهي، لتصبح التبعية هدفاً  
يسعى إليه المستضعفون في الأرض، من شعوب الأمم التي  
ابتليت بهيمنة الاستعمار الحديث، وذلك كي تتأبد تبعية هذه  
الشعوب وتترسخ في مختلف الميادين وشتى المجالات.

## تيارات ثلاث

أمام هذه الهجمة «التغريبية» الاستعمارية، ماذا حدث لحياتنا الفكرية؟ وكيف استقبل مفكرون ومثقفون هذا «الوافد» التغريبي؟ لقد تشكلت الصورة على النحو التالي:

كانت لدينا مؤسسات «فكرية - تعليمية - تهاديبية» تقليدية من مثل: الأزهر.. والزيتونة.. والقرويين.. والطرق الصوفية.. إلخ.. وأمام هذه الهجمة التغريبية، جفلت هذه المؤسسات وانزعجت، فانكفأت على ذاتها، وانغلقت على موروثها، مخافة الزوال والذوبان، الذي هو خطر من مخاطر «التغريب»..

وللأسف الشديد، فإن «الذات» التي انكفأت عليها هذه المؤسسات التقليدية لم تكن هي الذاتية الحقيقية والبنقية والحية للحضارة العربية الإسلامية العقلانية المستنيرة، التي تألقت في عصر ازدهار هذه الحضارة، وإنما كانت ذاتية فكرية عصورنا الوسطى.. عصور التراجع والجمود التي توقفت فيها الإبداع الذاتي والتفاعل الحضاري تحت تسلط المماليك وسُلطان آل عثمان، ففي

ظل هذا التسلط ذيلت عقلانية الفكر الإسلامى، وذيلت استنارة هذا الفكر، وتوقف الاجتهاد والخلق والإبداع فى ظل هذه القرون التى قاربت السبعة [٦٤٨ - ١٣٤٢ هـ = ١٢٥٠ - ١٩٢٤ م].. وأخذنا نجتر «الحواشي» و«المتون»، التى نظمت نظاماً ركيكاً.. وغرقنا فى «الحكايات» اللفظية والمحسنات الشكلية التى كونت المساحة العظمى من الذاتية الفكرية لهذه المؤسسات!

لقد انكفأت هذه المؤسسات التقليدية على الذات خوفاً من خطر التغريب، ورفضت أن تستعين بتراتها الأصيل، تراثها العقلانى لمواجهة هذا الخطر الوافد.. ونحن نقرأ فى أدبيات تلك الفترة كيف أن الشيخ محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] قد ناضل طويلاً من أجل أن تدخل علوم مثل «الحساب» و«التاريخ» و«الجغرافيا» فى مناهج الأزهر التعليمية.. ولقد سمى «الجغرافيا» باسمها القديم [تقويم البلدان] كى يألفوها فيقبلوها.. ومع ذلك وقفوا ضده واعتبروا محاولاته هذه ثورة جامحة، بل وحسبوها «تغريباً» يجب رفضه.. ودارت بين الرجل وبين شيوخ الأزهر فى عصره مناقشات، بل ومعارك، مات الرجل بسببها حسرة وكماً!

ونحن نقرأ فى أدبيات تلك الفترة، كيف أن شيخاً جليلاً هو الشيخ عيش [١٢١٧ - ١٢٩٩ هـ = ١٨٠٢ - ١٨٨٢ م] عندما سمع أن الشيخ السنوسى [١٢٠٢ - ١٢٧٦ هـ = ١٧٨٧ - ١٨٥٩ م] يدعو إلى فتح باب الاجتهاد، حمل عصاه «الشهيرة - الغليظة» وأخذ يبحث عن الشيخ السنوسى ليؤديه!

وتعرف أن نفس الشيخ عlish هذا عندما علم أن كلمة «المعتزلة» قد ذكرت في صحن الأزهر، على لسان محمد عبده، الذي كان لا يزال طالباً بالأزهر، يتتلمذ على جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ = ١٨٢٨ - ١٨٩٧ م] بمتزله فى «خان الخليلى» ويذهب إلى صحن الأزهر فيعيد على نجباء «المجاورين» ما سمع من شروح الأفغانى على أمهات كتب «علم الكلام» الإسلامى.. عندما علم الشيخ عlish أن كلمة «المعتزلة» قد ذكرت بصحن الأزهر، هم أن يهشم عظام محمد عبده بعكازه الغليظ..

كان هذا هو مستوى المؤسسات الفكرية التقليدية، سواء أكانت تعليمية.. أم صوفية تحول لديها التصوف من تصوف «عقلانى - فلسفى» أو «تهذيبى - شرعى» إلى شعوذة وحيل واحتيال وبدع وخرافات..!

لقد انكفأت هذه المؤسسات على أسوأ ما فى ذاتينا الفكرية.. انكفأت على السلبي والجامد والمتخلف، ورفضت، فى جمود شديد، ليس «ما جاء من الغرب كوافد، فقط، وإنما رفضت كذلك، جوهر الموروث العربى الإسلامى، كما تألق قبل عصر الركاة والجمود.. ولقد كان تراث هذه المؤسسات الفكرية، الذى كون فكريتها فى ذلك التاريخ، لا يبعث على السرور أو الاحترام.. وكان مستحيلأ على هذا التراث أن يناقش «الوافد» الغربى، الذى يمثل إبداع عصر النهضة والثورة الصناعية.. فلم تكن تلك المؤسسات، فى ذلك التاريخ تعرف حقيقة «موروث» هذه الأمة.. بل إن الذين يدعوا تحقيق النصوص القديمة، والذين بدءوا يكتبون الدراسات

حول موروثنا الحضارى كانوا هم المستشرقين.. وكان موقف مؤسساتنا التقليدية من جوهر تراثنا كمثّل موقف السفهاء الذين ورثوا كنوزاً غنية لكنهم لا يعرفون قيمتها ولا قدرها.. والذين يقرءون للمستشرق الروسى كراتشكوفسكى [١٨٨٣ - ١٩٥١م] ما كتبه عن [المخطوطات العربية] يصيبهم الأسى والألم.. إنه يحكى كيف كان الشيخ المؤمن على مخطوطات مكتبة الأزهر جاهلاً بقيمة هذه المخطوطات، بل وعدوا - بسبب هذا الجهل - لتراث أمته.. فلقد احتال عليه كراتشكوفسكى. فحدثه عما فى مخطوط إحدى رسائل أبى العلاء المعرى [٣٦٣ - ٤٤٩ هـ = ٩٧٣ - ١٠٥٧م] من زندقة وإلحاد، فما كان من هذا الأمين - أمين المكتبة - إلا أن جمع «سلة» من مخطوطات المعرى وألح على كراتشكوفسكى أن يأخذها، لتطهر مكتبة الأزهر الشريف مما يهذه المخطوطات من زندقة وإلحاد..

كان هذا هو موقف هذه المؤسسات التقليدية من «الموروث» الحقيقى للأمة.. لم تكن تعرف حقيقة التراث فى منابعه الجوهرية والأصيلة، لأنها كانت تعيش على زاد ضحل ومظلم ومتخلف، عندما يوضع فى كفة، ويوضع «وافد» الحضارة الغربية فى الكفة الأخرى، تصبح المعركة والمنافسة - وهكذا أصبحت - غير متكافئة بين هذا «الوافد» وذلك «الموروث»! والذى حدث، عند هذه المنافسة وهذه المقارنة أن الصفوة والنخبة الحديثة، والراغبة فى «الحداثة والتحديث»، قد أدارت ظهرها لهذا «الموروث» لأنها - ويكل الإخلاص للوطن - قد رأت أن السبيل إلى القوة والتحضر والتطور كامن فى أن نصيح غرباً

كالغربيين في كل شيء! وتلك كانت بداية نشأة التيار الذي نسميه «تيار التغريب» في واقعنا الحضارى.

لقد نشأ هذا «التيار التغريبى»، نشأة طبيعية، بعد هذه الهجمة الاستعمارية الحديثة، فتكونت الصفوة والنخبة الحديثة، التي رأت أن ما يسمى بـ «الموروث»، أو «الصورة المملوكية- العثمانية للإسلام» لا تبعث على السرور، وليست جديرة ولا مؤهلة لأن تقبل هذه الأمة من عثرتها، وتنهض بها كي تواجه الأوربيين.. فقالت هذه النخبة: إن السبيل لمواجهة أوربا، والطريق للقوة اللازمة لنا -كى نتحرر من الاستعمار- هو أن نستعير الحضارة الغربية.. فكان أن دعت هذه النخبة إلى ما دعا إليه الدكتور طه حسين [١٣٠٦-١٣٩٣هـ = ١٨٨٩ - ١٩٧٣م] فى كتابه [مستقبل الثقافة فى مصر].. دعت إلى أن نفكر كما يفكر الأوربيون، ونحيا كما يحيون.. نصيب كما يصيبون، بل ونخطئ كما يخطئون! إلى آخر مقولات تيار التغريب.

وبالطبع، فإذا كان هناك عذر للذين تغربوا فى ذلك التاريخ، فلقد كانت هناك فضيلة لتلك المؤسسات التقليدية لا يصح لنا أن ننكرها أو تغفل عن إبرازها، وهى أن الحفاظ على الذاتية، حتى فى صورتها المتخلفة، كان أفضل من كارثة الذويان النهائية فى الحضارة الغازية، ومن تسليم القلاع جميعها وفتح كل المعاقل، أمام غزوة «التغريب»!

وهنا لا بد أن نتذكر ونذكر ما حدث فى الجزائر، خلال معركتها ضد الفرنسة والمسح القومى الذى أراد به المستعمرون الفرنسيون أن تتحول الجزائر العربية المسلمة إلى الامتداد الفرنسى اللاتينى



لفرنسا الأم عبر البحر الأبيض المتوسط، وعلى الشاطئ الإفريقي.. ففى معركة الجزائر هذه، دفاعاً عن هويتها وموروثها الحضارى ضد الغرسة، وجدنا هذا الشعب البطل، عندما أهدت به المخاطر، وأصبح ظهره للحائط، ونزعت أسلحته.. وجدناه يقاوم ويحارب أحياناً حتى بالأسلحة الغربية.. فالجزائر قد تسلحت وحاربت حتى «بالجهل والأمية»! من يتصور أن يصبح «الجهل» وتصبح «الأمية» أسلحة يدافع بها الشعب عن «ذاته» ضد الغزاة؟ لقد حدث هذا! ذلك أن الذين تعلموا وتثقفوا قد أصبحوا فرنسيين، يندمجون وينتمون إلى الوطن الأم «فرنسا» أو يسجنون فى سجن الفرنسية وثقافتها.. أما الذين ظلوا على جهلهم وأميتهم فهم الذين احتفظوا بهويتهم، وبموروثهم الحضارى، وبذاتيتهم المتميزة عن المسيح المشوه الذى أراد الاستعمار.. ولقد استمر ذلك إلى أن جاءت [جماعة العلماء المسلمين فى الجزائر] بقيادة شيخها عبد الحميد بن باديس [١٣٥٩ - ١٣٥٩هـ = ١٨٨٧ - ١٩٤٠م] فأبرزت الوجه المشرق للتراث، وصنعت جيل الرجال الذين ولدت من أحضانهم ومن أحشائهم [جبهة التحرير الوطنى الجزائرية]، التى رفعت السلاح وحررت الجزائر، وأعادتها إلى أحضان العروبة والإسلام، بعد احتلال قرن وثلث القرن!

إذن، فى ظل هذه الهجمة التغريبية، كان الانكفاء على الذات، رغم سلبياته، من حيث عجزه عن تقديم البديل الحضارى القادر، بجدارة، على مناقسة الحضارة الغربية وفكرية التغريب - وهذه هى السلبية الكبرى للجمود وأهله.. فهم بجمودهم قد عجزوا عن أن

يقدموا البديل الصالح لنهضة الأمة أمام تحدى التغريب - ولكن هذا الجمود، وهذا الانكفاء على الذات، رغم تخلقه، ورغم أنه لا يمثل جوهر العقلانية الإسلامية الحقيقية، فإنه احتفظ بالموروث حتى يأتى بعد ذلك جيل يطور هذا الموروث، ويتجاوز تخلفه، وينفض عنه الغبار، ويأتى - بالاجتهاد والتجديد - فيبعث ويبلور المشروع الحضارى الذى تواصل به الأمة مسيرتها الحضارية المتميزة..

إذن، نستطيع أن نقول: إن هذا الاحتكاك، الذى بدأ مع الغزوة الأوروبية الحديثة، قد ولد فى واقعنا الفكرى تيارات ثلاثة:

■ تيار الجمود الذى أشرنا إليه..

■ وتيار التغريب.. الذى ظن واعتقد - مخلصًا - أن سبيل القوة هو أن نتغرب، ونصبح فى الحضارة غربيين..

■ ثم التيار الوسطى.. التيار التجديدى، الذى نسميه تيار «الجامعة الإسلامية»، أو تيار «التجديد الدينى»، الذى ارتاده جمال الدين الأفغانى، والذى تكونت من حوله صفوة من المفكرين فى مصر وفى المشرق وفى المغرب، قادت الكثير من الحركات الوطنية، وقادت الكثير من حركات التجديد الفكرية والدينية فى وطن العروبة وعالم الإسلام.

لقد رفض هذا التيار التجديدى الوقوف عند جمود الجامدين، وبشر بضرورة تجاوز فكرية العصور الوسطى والمظلمة، والعودة إلى منابع الجوهرية والنقية..

وهذه العودة إلى منابع هى التى تسمى بـ [السلفية].. وهذا المصطلح قد أصبح - للأسف الشديد - واحدًا من المصطلحات

«سيدة السمعة» لدى كثير من المثقفين المستشرقين والتقدميين، في التيار العلماني.. فهم يعتقدون أن «السلفية» مرادف للبدائية والتخلف والمحافظة والجمود إلخ.. إلخ.. ونحن نعتقد أن هذا الفهم الخاطئ والمغلوط يغفل عن حقيقة أن «السلفية» ليست تياراً واحداً في الفكر الإسلامي.. وعن حقيقة أن كل حركات التجديد والإصلاح في إطار وطن العروبة وعالم الإسلام قد بدأت جميعاً كحركات ودعوات «سلفية».. ذلك أنه في الدين، في الثوابت، في الأصول، في العقائد والشعائر، في الشئون المتعلقة بالغيب والآخرة، لأبد من العودة إلى المنابع.. وهذه العودة إلى المنابع إذا اكتفت بالوقوف عند «النصوص»، ولم تنظر فيها بالعقل المستنير وبراهينه، كانت «سلفية نصوصية».. تورث أصحابها المحافظة والجمود، فإذا ما نظر هؤلاء «السلفيون النصوصيون» في «المتغيرات الدنيوية» بمتجههم هذا، السلفي النصوصي، كانوا -لأبد- نموذجاً للجمود الباعث على النفور، بل والبراءة..

أما إذا عنت «السلفية» العودة للمنابع، والنظر فيها بالعقل المستنير، والاقتصار فيها على الثوابت والأصول والعقائد، ثم المزاوجة بينها وبين «المستقبلية» فيما يتعلق «بالمتغيرات الدنيوية»، كانت النهج الأمثل «للتجديد».. لأنها بالعودة إلى المنابع تمثل الثورة التجديدية ضد البدع والخرافات والزوائد التي رانت على الثوابت والأصول، وهي بذلك تسهم في تحرير العقل من الأثقال عندما تخفف عنه أحمال عصور الانحطاط. ثم إنها، فيما يتعلق بعمران الأرض وتطور المجتمع والمشروع

الحضارى المنشود لإنهاض الأمة، وكل شئون الدنيا، تبذع فى إطار الكليات الدينية، وفق مصلحة مجموع الأمة، التى هى فى فلسفة الإسلام التشريعية: «نص من النصوص»! ولذلك، فلقد غلب رأى القائل بأنه إذا تعارضت «المصلحة» مع «النص» وجب تقديم «المصلحة» على «النص»، لأن «المصلحة» بنص الحديث النبوى الشريف.. حديث: «لا ضرر ولا ضرار» تعتبر من «النصوص».. فعندما نقدم «المصلحة» على «النص» فنحن نقدم «نصاً» على «نص» آخر.. ولستأ نخرج بذلك عن التزام ثوابت الدين وأحكامه!

هذا هو نهج مدرسة «التجديد الدينى» الحديث، فيما يتعلق بالثوابت، فيما يتعلق بالطابع الحضارى الذى يميز هذه الأمة. لقد قالوا: إننا نتميز عن الحضارة الغربية، ولابد أن نحرص على هذا التميز، وهذا التميز ليس انغلاقاً ولا عداء حضارياً.. أما فيما يتعلق بشئون الدنيا، بالعلوم الطبيعية، وبتطبيقات هذه العلوم الطبيعية، وبكل العلوم التى تؤسس حقائقها على قوانين، وأيضاً بكل ما يدخل فى «عوامل القوة» اللازمة لتقوية الذاتية الحضارية المتميزة، فلا بد أن نتفتح فيها على مختلف الحضارات، نستلهم منها ونتمثل، ونتبادل الأخذ والعطاء..

ولقد كانت مدرسة «التجديد الدينى»، بهذا المتجه وهذه الدعوة، الممثل الحقيقى لموقف حضارتنا العربية الإسلامية التاريخى فى هذا الموضوع، فالعرب والمسلمون قديماً قد انفتحوا على الحضارة اليونانية والفارسية والهندية، لكنهم

لم يتحولوا إلى فرس أو يونان أو هنود، وإنما هم تمثلوا ما زاد سماتهم وخصوصياتهم تميزًا، وهم قد صنعوا ذلك من موقع صاحب الشخصية المستقلة، من موقع صاحب الجسد الصحيح والصحي، فكانت لهم قدرة التمثل والاستلهام، دونما تبعية أو مسخ أو تشويه.

لقد ترجموا فلسفة اليونان، لكنهم لم يستوردوها ولم يتبنوا مقولاتها لتكون التعبير عن روحهم الحضارى وتصوراتهم للكون والوجود، وإنما قرأوا هذه المقولات الفلسفية اليونانية قراءة إسلامية؛ حتى لقد أصبحت «فلسفة إسلامية». أما الذين قلدوا- من فلاسفتنا - مقولات الفلسفة اليونانية فلقد ظلوا مجرد هامش فى التراث الفكرى الإسلامى، بل لقد كان فلسفة هذه الأمة الحقيقية، ومظهر عبقريتها وإبداعها فى ميدان الفلسفة، هو «علم الكلام الإسلامى»، الذى جسد وسطية الحضارة الإسلامية عندما وازن ما بين «العقل» و «النقل»، فتأسست فلسفته على قواعد «الدين»!

إذن، هذه الأمة لها طابع حضارى متميز، وإلى هذا دعا تيار «التجديد الدينى».. دعا إلى أن تحتفظ لهذه الأمة بهذه الهوية الحضارية المتميزة، ودعا إلى أن تتفتح على علوم الحضارة الغربية ورائد هذا التيار: جمال الدين الأفغانى، هو القائل: «إن العلم أمه وأبوه: الدليل».. فأينما يكن العلم مؤسسًا على الدليل فليس له وطن ولا جنس ولا حدود ولا قوميات.. أما فى الإنسانيات، أما فى الفلسفة والثقافة، أما فيما تميز فيه الحضارات العريقة المتميزة، فلا بد من الاحتفاظ بالهوية..

هنا كانت عبقرية هذا التيار الوسطى، الذى رفض «جمود الجامدين»، والذى رفض، أيضاً «تغريب المتغربين».. ومن يقرأ ما كتبه الإمام محمد عبده فى الصفحات التى تحدث فيها عن «سيرته الذاتية» يجده يقول: «لقد نشأت كواحد من أبناء الطبقة المتوسطة فى مصر، وتعلمت ما كان الناس يتعلمون، ورأيت جمهور الأمة وقد استقطب إلى تيارين: طلاب فنون الدنيا.. وطلاب علوم الدين».. ثم ينتقد الفريقين فلم يكن الأولون سالكين طريق التحضر الصحيح.. ولم يكن الأخيرون سالكين طريق الدين القويم!.. ثم يقول: ولقد اتخذت بينهما موقفاً وسطاً، وثالثاً، يجمع ما فى الموقفين من حق صحيح!.

ومن يقرأ كلمات الأفغانى ويفقه سيرته، فى كل المواقع التى ناضل فيها، يجد أنه كان واعياً بموقعه الوسطى بين تيارى «الجمود» و«التغريب».. وما كتبه عن المدارس «الحديثة» التى أنشأها محمد على باشا [١١٨٤ - ١٢٩٥هـ = ١٧٧٠ - ١٨٤٩م].. وتلك التى أنشأتها الدولة العثمانية، وما قام فى الشرق الإسلامى من «تحديث» على النمط الغربى، يجد مصداق هذا الذى نقول.. لقد كتب الأفغانى مسفهاً أحلام الذين ظنوا أن «الحداثة الغربية» صالحة، بتعميم وإطلاق، لتكون «الحداثة العربية الإسلامية» فقال: «.. لقد شيد العثمانيون عدداً من المدارس على النمط الجديد، وبعثوا بطوائف من شبانهم إلى البلاد الغربية ليحملوا إليهم ما يحتاجون من العلوم والمعارف والآداب، وكل ما يسمونه «تمدناً»، وهو فى الحقيقة تمدن للبلاد



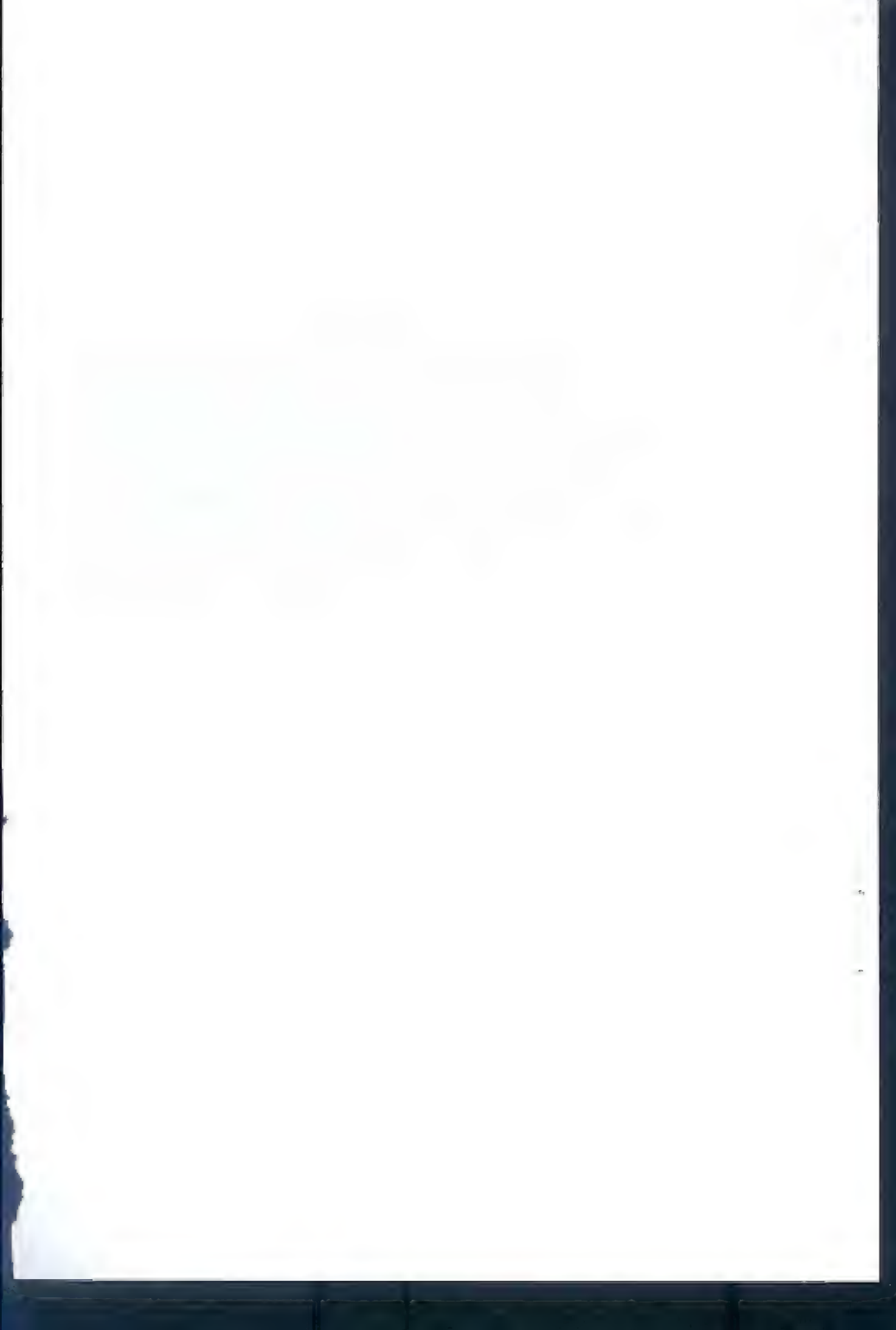
التي نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنساني. فهل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك، وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة؟ نعم، ربما وجد بينهم أفراد يتشدقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية [القومية] وما شاكلها، وسموا أنفسهم، زعماء الحرية! ومنهم آخرون قلبوا أوضاع المباني والمساكن، وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفروش والآنية، وسائر الماعون: وتناقسوا في تطبيقها على أجود ما يكون منها في الممالك الأجنبية، وعدوها من مفاخرهم، فنفخوا بذلك ثروة بلادهم إلى غير بلادهم! وأماتوا أرباب الصنائع من قومهم، وهذا جدع لأنف الأمة، يشوه وجهها، ويحط من شأنها! لقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة، المنتحلين أطوار غيرها، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها. وطلّاع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات، يمهّدون لهم السبيل، ويفتحون الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم!..

تلك كلمات جمال الدين الأفغانى، شاهدة على أن مشكلة الموقف من «الموروث» ومن «الواقد» قديمة قدم الهجمة التغريبية الاستعمارية التي دهمت بلادنا مع مطلع العصر الحديث.. وشاهدة كذلك، على أن حركتنا الفكرية قد انقسمت إزاء هذه القضية إلى تيارات ثلاثة:

■ أهل الجمود.. الذين انكفئوا على الذات، التي لم تكن تمثل الوجه الحقيقي والمشرق للموروث. ورفضوا أي تفاعل أو انفتاح على الواقد الأوربي الجديد..

■ والمتغريون.. الذين دعاهم تفورهم من صورة الموروث، كما تجسدت في فكرية المؤسسات التقليدية، إلى نبذ هذا الموروث، والسعى إلى تبني «النموذج الغربي في التحديث»..

■ وتيار التجديد الديني.. الذي رام تجديد الدنيا عن طريق تجديد الدين، ولم يقف بحياد بين «الموروث» و«الوافد».. وإنما انطلق من الالتزام بالأصول الجوهرية والنقية لموروث الأمة، وسعى إلى دعم استقلالها الحضاري بما في الحضارة الغربية من عوامل القوة والتقدم التي أبدعها الأوروبيون!



## الجديد فى حقبة السبعينيات

- لكننا نسأل - السؤال نفسه الذى سألته ويسأله الكثيرون:  
■ لماذا اشتد وعلا الصوت بالحديث عن «الواقف» و«الموروث»  
بعد هزيمة سنة ١٩٦٧م؟
- ولماذا انتشرت ظاهرة العودة إلى «الموروث»، والتحصن به  
فى حقبة السبعينيات؟
- ولماذا اندفع الشعب، فى مصر، بتلقائية وعفوية ينشد نشيد:  
«بلادى، بلادى، لك حبى وفؤادى»، فى جنازة البطل الشهيد  
الفريق عبد المنعم رياض؟

\* \* \*

- ولماذا اندفع الشبيبة، وليس الكهول إلى حيث الموسيقى  
العربية بعد هزيمة ١٩٦٧م، وخلال حقبة السبعينيات؟
- ومتى انخرطت أفواج الشبيبة فى تنظيمات «الموروث»  
[الإسلام]، تتحصن به كما لم تتحصن بشئ من قبل، حتى  
بأسكاله ورموزه - [اللحية.. والجلباب.. والسواك]؟

■ بل ومتى أحس الناس بالحاجة إلى قيام «لجان الدفاع عن الثقافة القومية»؟!

متى حدث ذلك؟ ولماذا هذا الانتشار لظاهرة التحصن «بالموروث»؟ والجدل الذي يعلو صوته حول قضية «الوافد» و«الموروث»؟!

لقد حدث ذلك في مواجهة هزيمة سنة ١٩٦٧م.. التي أفرزت، ضمن ما أفرزت، تجريد المشاريع «التحديثية- العلمانية» [الوافدة] من مصداقيتها وجدارتها بإنهاض الأمة من كبوتها الحضارية.. ومن ثم فلقد انعطفت جماهير الأمة إلى «الموروث».. تتحصن به، وتدعو إلى سلوك سبيله لمواجهة التحديات المفروضة على الأمة، واثقة من فعالياته اليوم، لأن أسلافها قد انتصروا على تحديات الأمس بهذه الفعاليات!

وحدث ذلك في مواجهة الهجمة «التغريبية» التي جاءت بها حقبة السبعينيات.. تلك الهجمة التي تجسدت في شيوع التحلل الاقتصادي، الذي أسماه «انفتاحاً».. وشيوع «ثقافة» السرائح الانفتاحية.. وسيادة قيم شارعى «الشواربى» و«الهرم» فى أجهزة الإعلام!.. وشيوع الأنماط الاستهلاكية التى تستنفر غرائز النهم والشراهة والشهوة فى الإنسان!

لقد رُحِّقت هذه القيم والظواهر التغريبية على واقعنا، فى حقبة السبعينيات، حتى كادت تطمس ضياء ذلك الشهاب الذى لمع فى أفقنا فى السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣م.. ولذلك لم يكن غريباً أن يختلج ضمير الأمة ويشتفض جسدها باحثاً عن

الحماية في ترسانته الحضارية التاريخية. ومتحصنًا بموروثه،  
ومتّرسًا بالقلعة التي تترس بها أسلافه وهم يواجهون أمثال  
هذه التحديات التي مرت بها هذه الأمة عبر تاريخها الطويل..  
ذلك هو تفسير «الشيوع» لهذه الظاهرة، في السبعينيات..  
لقد كان شيوعًا لظاهرة لم تولد في السبعينيات»



## قانون الاحتكاك الحضارى

إن سير أحداث القصة التى حدثت لأمتنا، عندما احتكت هذا الاحتكاك العنيف بالحضارة الغربية هو أشبه ما يكون - فى اعتقادى - بـ «القانون» الذى يحكم ظاهرة «التماس الحضارى» و«اللقاء بين الحضارات»..! سواء أكان هذا «التماس» سلمياً أم عنيفاً.. فنحن إذا راجعنا تاريخ الحضارة الغربية، عندما كانت فى سبيلها إلى النهضة، نراها قد احتكت بالحضارة العربية الإسلامية.. ونحن نعرف دور الأندلس، والترجمة، وإشعاع الجامعات فى الأندلس.. إلى آخر القصة المعروفة التى يحفظها الجميع..

ماذا كان موقف أوروبا من هذه الحضارة المغايرة؟.. ومن «الوافد» الذى تمتلئه؟! ما موقفها من حضارتنا، عندما احتكت بها، سلمياً وعنيفاً فى الأندلس، وعنيفاً فى الحروب الصليبية، وهى بسبيلها إلى النهوض؟..

لقد انقسمت الحياة الفكرية الأوروبية، يومئذ، إزاء «الوافد» العربى الإسلامى إلى تيارات ثلاثة؟:

■ وأول هذه التيارات، يومئذ، كان تيار «الكنيسة الكاثوليكية».. الذي مثل «أهل المحافظة والرجعية والتخلف والجمود».. لقد رفضوا أى انفتاح على الحضارة العربية الإسلامية، رفضوا الدين الإسلامى وعقلانيته، والقيم والأخلاق، والفكر والثقافة جميعاً.. لقد أبصروا ما يحمله لهم الدين الإسلامى من «توحيد» بلغ أرقى صورته وأنقاها، حتى ليرفض أى «حلول» أو تجسيد» أو تعددية فى ذات المعبود سبحانه!! إلخ.. ولذلك رفضوه، ورفضوا الفلسفة الإسلامية، بما فيها من عقلانية.. رفضوا فكرية الحضارة الإسلامية بكاملها، ديناً وعلومًا وحضارة، فلقد كانت علوم هذه الحضارة حاملة فى ثناياها الروح الإيمانية للإسلام!

■ وكان هناك تيار يسميه البعض بـ «الرشديين اللاتين»، الذين ساروا مع ابن رشد، وحاولوا التبشير بفكره.. وكان فى هذا التيار قطاع متحمس لتبنى الحضارة العربية الإسلامية، يتسلح بـ «وافدها» هذا فى حربه ضد الكنيسة وتيار الجمود.. ولقد ذهب هذا القطاع فى حماسه للوافد العربى الإسلامى إلى الحد الذى جعله يتمنى أن تنطبع به أوروبا انطباعاً كاملاً وتاماً.. فتمنوا أن يسود الإسلام وحضارته أوروبا، وكتب «أناطول فرانس» [١٨٤٤ - ١٩٢٤م] معبراً عن نزوع هذا التيار بقول: «يا ليت الإسلام كان قد بسط فكره على أوروبا من الأندلس حتى تركيا، ويا ليت مآذن المساجد قد ارتفعت بدلاً من الكنائس، ويا ليتنا سمعنا ترتيل القرآن بدلاً من الأناجيل.. إذن لأقلعت أوروبا من عصورها المظلمة والقرون المتخلفة التى عاشتها»!

على هذا النحو فكر وقدر فريق من مفكرى أوروبا، كان يرى أن الموقف الأمثل هو تبني هذا «الوافد» العربى الإسلامى، ليكون البديل الذى ينهض بأوروبا ويخرجها من عصورها المظلمة..

■ أما التيار الأساسى، الذى صنع عصر النهضة الأوروبية، وبنى دعائمه، فلقد وقف إزاء الحضارة العربية الإسلامية موقفًا متميزًا عن موقف «الرفض الكامل» الذى وقفته الكنيسة وأنصارها، وعن موقف «التبنى الكامل» الذى وقفه فريق من «الرشديين اللاتين»..

لقد سعى هذا التيار إلى حضارتنا فوعاها، ثم استلهم وتمثل منها: «المنهج التجريبي»، و «العلوم الطبيعية».. أما قسمة العقلانية الإسلامية، فلقد ميز هذا التيار «عقلنا» عن «نقلنا»، فرفض ما فى عقلانيتنا من «نقل» و«وحى إسلامى» وأخذ فقط الانحياز إلى «براهين العقل» فكأنه قد أخذ عثًا عقلانيته اليونانية، وترك ما تميزت به عقلانية الإسلام..

لقد كان المنهج، عند اليونان، هو: «القياس»، فأصبح فى حضارتنا هو: «الاستقراء» والتجريب».. وهذا هو الذى تمثله الأوروبيون من حضارتنا. وتمثلوا معه علوم هذه الحضارة، من طب وحساب وجبر وبصريات.. إلخ.. إلخ.. لكنهم تحفظوا إزاء القيم والأخلاقيات والروح الحضارية للحضارة العربية الإسلامية.. أخذوا علوم العرب والمسلمين، التى نسميها «العلوم الطبيعية»، وتطبيقات هذه العلوم، ثم طوروها فى عصر النهضة.. ولكنهم، فيما يتعلق بالإنسانيات تحفظوا.. لقد رفضوا «التوحيد»، وهو جوهر فكرية - [أيديولوجية] - هذه الأمة،

ومعيار نظرتها وتصورها لهذا الكون.. ورفضوا قيم حضارتنا.. ورفضوا «الوسطية الإسلامية»، التي هي الموقف المعتدل والمتوازن الذي ألفت به حضارتنا بين ما هو «دين» وما هو «دنيا».. وبين «الدنيا» و«الأخرة».. وبين «الجسد» و«الروح».. وبين «الحكمة» و«الشرعة» إلخ.. وهذه «الوسطية» هي المزاج الحضارى والروح الحضارية التي تميزت بها حضارتنا العربية الإسلامية..

لقد أخذوا الجانب العلمى، المؤسس على الحقائق العلمية، وطوروه.. أما فيما يتعلق بالعلوم الإنسانية، وبالقيم، وبالأخلاقيات، والطابع الحضارى، والذى يشبه «البصمة»، و«المزاج الحضارى» و«الروح الحضارية» فلقد رقصوها.. رفضها هذا التيار، الذى أسس وبنى وصنع وقامت على أكتافه فكرية عصر النهضة فى أوروبا..

هذه هى التيارات الأوربية الثلاث، التى واجهت «الوافد» العربى الإسلامى إبان سعى أوروبا إلى النهضة.. والتى تقابل تياراتنا الثلاث فى موقفها من فكرية «التغريب».. تبلورت فى الواقع الفكرى الأوروبى.. كما تبلورت فى واقعنا الفكرى، إزاء ظاهرة الاحتكاك الحضارى بين الحضارتين، لتشهد على عموم هذا القانون..

«فأهل الجمود».. يرفضون أى انفتاح على أى حضارة من الحضارات، وينكفئون على الذات، بصرف النظر عن صلاح وصلاحية هذه الذات..

وقوم - هم «المتغريون» - يرون أن الصلاح والأصلح هو أن  
نتحول إلى الجانب «المتحضر» في كل شيء، ونصبح مثله في كل  
المجالات والميادين..

والتيار الذي نسميه - في حالتنا - تيار «التجديد الديني» قد  
أبصر رواده أن لأمتهم مشروعاً حضارياً متميزاً، يرتفع على  
قاعدتين، ويظير بجناحين: بالمميزات الحضارية الخاصة  
وبالعلوم والنظم، التي تمثل «مصادر القوة» في الحضارة الغربية..

لقد قال جمال الدين الأفغاني - وهو رائد هذا التيار - : «إن  
العلم ابن الدليل».. وقال أيضاً: «ليس على الشرقي أن يبدأ من حيث  
انتهى الأوروبيون، وإنما لابد من الاحتفاظ ببعض من الأصول التي  
كان عليها أسلافنا الشرقيون».. فهذا موقف التمييز بين العلوم  
التي لا وطن لها، ولا جنس. ولا حدود تحد صلاحها وصلاحيتها..  
وبين الإنسانية والاجتماعيات والفلسفات والفكر الذي يحدد  
للإنسان تصورات له للكون، وكل ما يتميز بتميز الواقع الحضاري..

وهذا التمايز الحضاري - كما أشرت - هو غير الانغلاق  
أو العدا الحضاري..

وعلى سبيل المثال، فنحن لو نظرنا إلى «خريطة» هذا الكوكب  
الذي تعيش عليه، من الزاوية الحضارية.. هل يستطيع إنسان أن  
ينكر أن الصين حضارة متميزة؟.. وأن الهند حضارة متميزة؟..  
وأن الغرب حضارة متميزة؟.. وأيضاً، أن العرب والمسلمين  
حضارة متميزة؟.. وأن التواصل الحضاري يجب أن يبدأ من  
«التبعية» و«الذويان».. وأن يبدأ كذلك من «العداء الحضاري»  
و«الخصومة» الحضارية؟

انظروا إلى ماوتسى تونج [١٨٩٣ - ١٩٧٦ م].. ألا يقولون: إنه قد طوع الماركسية - وهى «وافد» - للواقع الصينى - «الموروث»؟.. فأصبحت شيئاً جديداً، عندما يقارنه خصومه بالأصل الأوروبى، نراهم يتهمون «ماو» بالهرطقة والمراجعة والردة والانحراف!.. لكننا نقول: هنا، كانت الصين، بموروثها الفكرى، بوتقة حضارية متميزة، وفى هذه البوتقة كان على «الوافد» أن يطوّع «الموروث» فيتشكل بشكل جديد..

وهذا المثل الصينى يذكرنا بما أشرت إليه من أن أسلافنا العرب المسلمين، عندما ترجموا الفلسفة اليونانية، فإنهم «قرأوها قراءة إسلامية».. لقد تمثلوها من موقف المستقل وموقع الراشد الصحيح فأنطبعت بروحهم الحضارى المتميز ومزاجهم الحضارى الخاص.. والذين يفقهون - ولا أقول: يقرأون! - شروح ابن رشد على أعمال أرسطو [٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م] - وهو الشارح الأكبر لأرسطو - يرون فى إضافات ابن رشد وإبداعه ما يمثل ابن رشد المسلم، والمتكلم، والقاضى، والفقهاء.. هنا كانت الإضافة الممثلة لروحنا الحضارى حتى فى الشروح الرشدية على أعمال أرسطو.. أما إذا أردنا ابن رشد فى صورته الحقيقية المتكاملة، فلا بد أن نبحث عن ذلك فى الأعمال التى أبدعها، كمتكلم ومشرع وفقهاء.

هذا هو القانون الذى حكم احتكاكنا العنيف بفكرية «التغريب»، عندما بدأت الغزوة الأوروبية الحديثة.. وهو ذات القانون الذى حكم احتكاك الغرب بحضارتنا إبان نهضته.. ومن قبل ذلك حكم احتكاك العرب المسلمين، أواخر العصر الأموى وفى



العصر العباسي، بالحضارات التي أخذوا منها وترجموا عنها..  
حضارات اليونان والفرس والهنود.

ونحن عندما نتأمل في تجربة مصر تحت قيادة محمد علي باشا، تجد ما يفيدنا في هذا الموضوع.. إن البعض منا عندما يفتح كتاب [البعثات العلمية في عهد محمد علي وعباس وسعيد]، وهو الكتاب الذي وضعه الأمير عمر طوسون [١٢٨٩ - ١٣٦٣هـ = ١٨٧٢ - ١٩٤٤م].. إن هذا البعض يردد كلاماً شائعاً - ولكنه مخطئ - يقول: إن من سلبيات محمد علي أنه قد بعث المبعوثين الذين درسوا العلوم والفنون العملية من طب وزراعة وهندسة وعسكرية وقناطر وجسور واستحكامات وطباعة ونسج وغزل.. إلخ.. إلخ.. ولم يرسل مبعوثاً واحداً ليدرس إنسانيات الحضارة الأوروبية وفلسفاتها.. وحتى الذين برعوا في إبداع الفكر الإنساني، من هؤلاء المبعوثين، فإن براعتهم هذه لم تكن وليدة ما درسوه في أوروبا بهذا الميدان.. فعلى مبارك [١٢٣٩ - ١٣١١هـ = ١٨٢٣ - ١٨٩٣م] الذي برع في التأريخ للمجتمع من خلال [الخطط] كانت دراسته في أوروبا عن الاستحكامات العسكرية.. والطهطاوى [١٢١٦ - ١٢٩٠هـ = ١٨٠١ - ١٨٧٣م] قد تخصص هناك في ترجمة علوم الصناعة والفنون العملية.. فكانت ريادته لهذا الميدان عودة وإعابة لريادة طلائع المترجمين العرب في العصر الأموي، عندما بدأوا بترجمة علوم الصناعة منذ ثمانينيات القرن الهجري الأول تحت قيادة خالد بن يزيد [٩٠هـ - ٧٠٨م]..

ونحن لا نرى في صنع محمد علي باشا هذا سلبية، كما يرى الآخرون.. فهو لم يقتصر - في البعثات إلى أوروبا - على علوم الصناعة وأصولها العلمية - العلوم الطبيعية - لأنه كان متخلفاً ومصاباً بالثنائية والأزدواجية، كما يفهم البعض خطأ، ويحكم ظلماً، وإنما صنع ذلك لأنه كان واعياً «بالضروري» الذي هو في حاجة إليه، وعارفاً بماهية «الوافد» الذي نحتاجه، وماهية «الموروث» الذي لا بد من الاحتفاظ به. لقد تعلم الطباعة من أوروبا، وأقام المطبعة التي طبعت علوم أوروبا العملية. كما طبعت ذخائر «الموروث». في أول مشروع قومي لإحياء التراث في عصرنا الحديث..

والطهطاوى.. الذي يجمع الجميع على أنه صاحب «المذهب الإنساني»، وعلى أنه هو الذي أوقد سراج التنوير.. إلخ.. إلخ.. نقرأ في أعماله حديثاً طيباً عن الأوربيين، باعتبارهم أهل التمدن والتقدم والصناعات، الذين يجب علينا أن نأخذ عنهم هذه العلوم وتطبيقاتها. بلا عقد ولا حدود.. ولكننا نتعلم منه، أيضاً، أن مراده وهدفه من هذا الانفتاح الذي دعا إليه هو علوم «التمدن المدني» و«العلوم الحكيمية العملية».. وهو يكرر هذا ويلح عليه.. فإذا جاء إلى «الفلسفة الغربية» وتصور الأوربيين للكون وفلسفتهم في التشريع تحفظ على ذلك، وحدثنا عن «أن لهم في الفلسفة حشوات ضلالية تخالف كل الكتب السماوية».. وهنا، أيضاً، نجد البعض يعيب ذلك على الطهطاوى؛ لأنه يتمنى أن لو تبنى الرجل كل ما في أوروبا، حتى الفلسفة واللاهوت.. ويرى هذا البعض في موقف الطهطاوى هذا «ثنائية.. وأزدواجية.. وعجزاً عن تبني الحضارة الغربية ككل».. وأنا أقول: إن هذه هي العبقرية عند

الطهطاوى، وهذا هو الموقف الأصيل، الذى تجسدت فيه «الأصالة والمعاصرة على النحو النافع والمطلوب... لقد عرف الطهطاوى ما الذى نحتاجه من أوربا، كى تقوى شخصيتنا الحضارية المتميزة، فبحث عن «الوافد» الذى يقوى به «موروثنا» المتميز، وليس عن «الوافد» الذى يطمس هذه الذاتية الحضارية المتميزة!

ونموذج محمد على باشا.. ونموذج رفاعة الطهطاوى من النماذج الحية التى ترىنا فعل هذا القانون الذى أبصره هؤلاء العباقرة المصلحون والمجددون.. وأبصروا حكمه لظاهرة الاحتكاك بين الحضارات ذات العراقة والغنى والاستمرار.. ماذا نحتاج؟ وما العلوم التى لا وطن لها؟ والتى لا خطر على ذاتيتنا المتميزة من وقوعها؟. والتى لا بد لنا وأن نسعى إليها سعياً جاداً وحثيثاً. وما الذاتية الحضارية التى لا بد من تجديدها، والنهوض بها، وتطويرها؟ مع المحافظة على الأصول والسمات والقسمات التى تضمن بقاء تمايزها المتسق مع الشخصية القومية للأمة... لأنها، بالنسبة للأمة... كالبصمة بالنسبة للفرد.. فكما أن لكل إنسان «بصمة»، وهو يضافح الكل دون أن يفقد تميزه ببصمته هذه عن الآخرين، كذلك، هناك الذاتية الحضارية المتميزة، والتى يجب أن نبحث عنها فى «الموروث».. ونحن عندما نسعى لامتلاك العلوم وحققها والاستفادة من تطبيقات هذه العلوم، والاستفادة من تجارب الأمم والحضارات الأخرى، فإننا نسعى لامتلاك «مصادر القوة»، التى تقوى بها ذاتيتنا الحضارية المتميزة، دون أن نخلطها بتلك المصادر التى تمسح بشخصيتنا أو تشوه ذاتيتنا، أو تنسخها من الأساس!

إن الإنسان الصحيح - [المستقل] - يزداد صحة بتمثل  
المناسب من الغذاء.. بينما هذا الغذاء قد يودي بحياة المريض..  
والإنسان ينمو ويتطور، فتتغير فيه أشياء، ولكن هناك ثوابت  
تجعله هو هو رغم النمو والتطور الذي يعتريه.. وكذلك مثل  
الحضارات، فيها الثوابت والأصول والقسمات التي تمثل هويتها،  
وفيها المتغيرات التي تفسح الهوامش للتفاعل والأخذ والعطاء  
مع الحضارات الأخرى.. وعلينا أن نبصر ذلك جيداً.. وأن نميز  
بينه جيداً، حتى نتجنب مخاطر «التبعية والذويان»... ومخاطر  
«الجمود والانغلاق»!

## أى موروٲ؟.. وأى وافتد؟..

إذن، فالقضية ليست قضية: «موروٲ» و«وافد»، على الإطلاق والتعميم.. وإنما هى قضية: ما الصالح والصحى من «الموروٲ»، ومن «الوافد»؟..

بل إتنا سنجد فى كل «موروٲ» حضارى «وافداً».. ذلك أن بعض «الوافد»، لصالحه وملاءمته للروح الحضارية، يتحول، بعد تمثله، إلى «موروٲ».. فالوافد الجديد يمكن أن يكون نافعاً وصالحاً، ويمكن أن يكون ضاراً.. إذن، فالموقف ليس: هل أنا مع «الموروٲ» بشكل مطلق؟ أو مع «الوافد» بشكل مطلق؟.. وإنما لابد لنا أن نبحث عن «الهوية» الحضارية؟ فيم تتمثل؟ وأين الثوابت؟ وأين المتغيرات، التى فى هامشها مساحة ومكان للوافد، الممثل لمدد القوة والصحة للهوية وللثوابت الحضارية الموروثة؟..

وعلى سبيل المثال: فأنا عندما أجد فى الموروٲ العربى الإسلامى «قيم التواكل والزهد»، الذى قد يصل إلى درجة إدارة الظهر للدنيا وللعمران.. فأبنى أعرف أن هذا التواكل وزهد

الذراويش. هو، في الأصل، «وافد» فارسي، دخل إلى الحضارة العربية الإسلامية ووفد عليها من الموروث الفارسي القديم، وكان وسيظل ضاراً. لقد أصبح «موروثاً»، ومع ذلك فأنا ضده، عندما كان وافداً. وضده بعدما أصبح جزءاً من بنية هذه الحضارة، فهو «موروث»، لكنه موروث ضار، كما كان وافداً ضاراً!!

و«قيم عصر الحريم»، فيما يتعلق بوضع المرأة، والنظرة إليها. لقد بدأت «وافداً» تركياً مملوكياً دخيلاً على حضارتنا العربية الإسلامية. ومن يقرأ فتاوى الإمام محمد عبده عن رأي الإسلام في تعدد الزوجات يجد حديثه عن هذه الحقيقة. ولقد تحولت هذه القيم إلى «موروث»، إلى الحد الذي جعل الكثيرين يتصورون أن قيم عصر الحريم هذه هي المعايير الإسلامية التي نظر بها الإسلام إلى المرأة المسلمة!.. ونسى هؤلاء أن صورة المرأة المسلمة، في صدر الإسلام كانت المرأة المقاتلة، والمناضلة، والعاملة، والعالمة، والتي تدافع عن حقوقها حتى بالمظاهرات!.. والتي تذهب إلى الرسول ﷺ، وتقول له: إن الرجال قد استأثروا بك دوننا، وأنت مبعوث للجميع، فاجعل لنا يوماً تحدثنا فيه وتعلمنا أمور الدين!.. ينسى هؤلاء الناس الصورة الإسلامية للنساء المسلمات اللاتي حملن السلاح ودافعن عن الرسول في غزوة أحد، عندما فر كثير من الرجال.. إلخ.. إلخ.. فصورة المرأة المسلمة المناضلة قد انزوت وكادت تتلاشى في صفحات موروثنا، وأصبحت قيم عصر الحريم، وصورة المرأة



التي خلقت لتكون لعبة الرجال وموطن شهواتهم ودمية تنزين بها البيوت - هي موروثنا الذي أضفى عليه البعض قداسة الدين. محاولين تخليده ليصبح جزءاً من الهوية الحضارية لأمتنا.

و«الطبقية المستغلة».. إنها، هي الأخرى، «وافد» فارسي وبيزنطي، غريب عن الموروث العربي الأصيل، الذي تميز بالعدل والمساواة وقيم الاشتراك العمومي بين أفراد القبيلة ثم الأمة في أمور المعاش!

والذين يتأملون مغزى موقف الخليفة الراشد عمر بن الخطاب من أبهة الملك وامتيازات الوالي التي كان عليها معاوية بن أبي سفيان عندما كان والياً لعمر على الشام.. الذين يتأملون موقف عمر هذا يدركون كيف كان معاوية - بالآبهة.. والحجابه.. والطبقية - يمثل شيئاً وافداً وغريباً عن الفكرية الإسلامية البسيطة في شبه الجزيرة العربية.. ولقد علل معاوية إدخال هذا «الوافد» في حياته وأسلوب حكمه لولايته، بضرورة ذلك لنفاذ هيبة الوالي إلى قلوب الناس.. فهذه الأبهة والطبقية من موارث البيزنطيين، التي غدت موروث ولاية الشام.. ولقد كان جواب عمر على تبرير معاوية هذا:

- لا أمرك، ولا أنهاك؟..

فلقد كان بإزاء واقع مختلف عن واقع شبه الجزيرة العربية البسيط.. وأمام وافد غريب عن البساطة والجماعية التي سادت شبه الجزيرة في ذلك التاريخ.

وهذا «الوافد» الفارسي والبيزنطي قد أصبح «موروثاً».. والأُن.  
نجد أصحاب «الخيار الطبقي»، الذين يحبذون الطبقيّة المستغلة،  
يضيفون عليه قداسة الموروث، بل وقداسة الدين.. فيتحدثون عن  
مشروعية «الطبقيّة المستغلة» وضرورتها لبتخذ بعض الناس  
البعض الآخر سخرياً!! إلخ.. إلخ.. وهم بذلك، إنما يضيفون قداسة  
الإسلام الحنيف، دين العدل والمساواة والجماعية والتكافل  
الاجتماعي، يضيفون قداسة هذا الدين الحنيف على هذا «الوافد»  
الطبقي الاستغلالي، الذي جاء من حضارات وثنيّة مشرّكة  
ومجتمعات طبقيّة لم تعرف بساطة البقعة التي ظهر فيها الإسلام!  
إنّ، فواجبتنا ألا نتعصب للموروث لمجرد أنّه موروث.. وألا  
نرفض الوافد لمجرد أنّه وافد.. وإنما لا بد أن نبحث عن مكان  
الموروث من هوية الأمة الحضارية، ومن الثوابت والأصول التي  
تمثّل السمات التي تميّز بها وتمتاز عن الأمم الأخرى.. ودور هذا  
الموروث في المحافظة على التواصل الحضاري في مسيرة الأمة  
التاريخية ومكانه من ترسانة الأسلحة اللازمة للأمة في  
صراعها ضدّ تحديات العصر الذي تعيش فيه.

وأن نبحث، كذلك، عن ماهية «الوافد».. وهل هو عامل قوّة  
ضروري لأمتنا؟ وعن مدى اتساقه مع روحنا الحضارية التي  
تميّز أمتنا؟ فإن كانت نهضتنا تقتضيه، ومشروعنا الحضاري  
يستدعيه، فلا بد أن تسعى إليه سعياً جاداً وحثيثاً.. فهو أولى بنا،  
ونحن أولى به من «موروث» قد أصبح قيداً يحول بيننا وبين  
الانطلاق!

## ما هي الهوية؟

وإذا كان المعيار في الموقف من «الموروث» ومن «الوافد» هو «هوية» هذه الأمة، والثوابت الحضارية التي تتميز بها. والروح الحضارية المكونة لمزاج حضارتها.. فلا بد أن نحدد ما هي هذه «الهوية»؟

### هل الهوية هي كل التراث؟

نحن نجيب بالنفي.. ذلك لأن تراث الأمة هو كل الموروث، هو كل ما ورثناه، سواء منه ما كان من «علوم الشرع» أو من «العلوم العقلية»، أو في «العلوم التجريبية».. كل هذا هو تراث الأمة. وهذا التراث ملئ بالمواقف والاتجاهات المختلفة، بل والمتناقضة والمتعارضة، لأنه ثمرة لإبداع تيارات فكرية ومدارس فكرية متميزة بل ومتناقضة عاشت وأبدعت في ذلك الواقع القديم.. وهذا الواقع، الذي تبلور فيه هذا التراث، متطور أبدًا ومتغير حتمًا، بحكم قانون التطور، الذي هو سنة من سنن الله، سبحانه، في الكون.. وهذا التطور لابد أن يستدعي تجاوز

قطاعات من هذا التراث، وهي التي نسميها «المتغيرات».. ولذلك، فليست عتاقة الكتب واصفرار أوراقها وغرابة حروف مخطوطاتها ولا قدم مقولاتها، ليست هذه بالمؤهل ولا بالحجة التي تضيف على الموروث القداسة أو المصداقية.. ومن ثم فنحن اليوم لسنا ملزمين بالتزام معارك القدماء، ولا بمناهجهم، ناهيك عن مقولاتهم وما أبدعوا من نظريات.. والقول بذلك الإلزام عبث.. والذين يفكرون على هذا النحو إنما يعبثون!

ذلك لأن القضية ليست الحفاظ على كل الموروث، حتى ولو تجاوزته التطور.. فليس كل الموروث هو «الهوية الحضارية التي تميز الأمة حضارياً»..

ونحن عندما نبحث عن تعريف «الهوية»، سنجد أن مصطلحها ليس غريباً عن موروثنا القديم.. فهو واحد من المصطلحات التي ضمتها معاجمنا القديمة.. سنجد الجرجاني [٧٤٠ - ٨١٦ هـ = ١٣٤٠ - ١٤١٣ م] يعرف الهوية في كتابه [التعريفات] - وهو قاموس للمصطلحات - يعرفها بأنها «هي الحقيقة المطلقة، المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق».. أي أنها تعني: الذاتية، الخاصة، البصمة التي تميز الظاهرة عن الظواهر التي تشبهها..

أما «مجمع اللغة العربية»، فهو يعرف «الهوية»، حديثاً، فيقول: إنها «حقيقة الشيء، الشخص، المطلقة: المشتملة على صفاته الجوهرية، وليست أي صفات، والتي تميزه عن غيره»..

هذا هو تعريف «الهوية» قديماً وحديثاً، ولذلك، فإننا إذا قلنا - بصدد الحديث عن الشخصية القومية والشخصية الحضارية -

- ماذا تعنى الهوية بالنسبة للحضارة؟

كانت الإجابة:

- إنها الصفات الجوهرية التى تميزها عن غيرها من الشخصيات القومية والحضارية إنها «البصمة» الممثلة للقدرة الثابتة والجوهرى والمشارك من السمات العامة التى تميز شخصاً ما عن غيره أو قومية عن غيرها أو حضارة عن غيرها من الحضارات، إنها هى النواة، وهى الجوهر..

وإذا كنا نقول: إن موروثنا فيه الثوابت وفيه المتغيرات، فهذا يعنى أن فيه ما هو «هوية»، وفيه ما هو «متغيرات»، التغير فيها والتطور وارد على نحو أكيد.

وهنا لا بد أن نضرب على ذلك بعض الأمثلة:

فالعروبة.. بالنسبة لهذه الأمة، هوية، لأنه على مر العصور، ومنذ أن اندمجت هذه الجماعة البشرية، بالتعريب: فى هذه الأمة الجديدة، تعرب البشر، وأصبح ولاؤهم للعروبة، بالمعنى الحضارى. وليس بالمعنى العرقى والعنصرى.. ومن يقرأ ما كتبه العلماء العرب، الذين انحدروا من أصلاب وأصول عرقية غير عربية، يعرف كيف كان ولاؤهم للعروبة وانتماؤهم لها كاملاً وخالصاً.. ومن هؤلاء العلماء، على سبيل المثال: ابن جنى [٣٩٢هـ - ١٠٠٢م] الفارسى الأصل، والذى كتب كتابه

[الخصائص] فجاء أعظم ما كتب في فلسفة العربية.. يكتب ابن جنى فيحدثنا كيف أنه لقي الكثير من علماء العربية ذوي الأصول النسبية غير العربية، والمنحدرين منهم من أصل فارسي على وجه الخصوص، فسألهم عن مقام العربية بالنسبة للفارسية؟ فوجد إجماعهم على رقي العربية وارتقائها، حتى لقد أنكروا مجرد المقارنة والقياس؟

فهؤلاء العلماء، قد تعربوا، وأصبحوا يفكرون ويقرءون ويكتبون بالعربية وخلص ولاؤهم وانتماؤهم للعروبة، رغم انحذارهم من أصلاب عرقية غير عربية.

والمواريث التي سبقت الفتح العربي والإسلامي، هي كذلك قد تعربت - كما تعرب البشر - ودخلت - أثناء «عصر التدوين» - في نسج الحضارة الجديدة، تلك التي تبلورت كثمرة لإسهام الجميع، جميع أمم الشرق، وكل مواريث هذه الأمم على امتداد عمق حضاراتها الضارب في أعماق التاريخ.. حتى أنني لو قلت إن نصيب غير العرب الأقحاح في هذه الحضارة العربية الإسلامية أكبر من نصيب عرب شبه الجزيرة العربية، لما كنت مبالغاً ذلك أن الفتح العربي لم يمارس مع هذه المواريث الفكرية والحضارية سياسة المسخ أو النسخ أو التشويه.. وإنما أحيائها، وعربها. وصبغها بصبغة الإسلام، وأدخلها في نسج الحضارة الجديدة. وعندما حضر عمرو بن العاص إلى مصر، فاتحاً لها، ومحرراً إياها من القهر البيزنطي، وجد أن الذين يمثلون فكرية مصر القومية وأصالتها - وهم الأقباط «اليعاقة» - وجدهم



مضطهدين، قد فروا إلى المغارات والأديرة في أعماق الصحارى..  
 ووجد «الملكانيين» الممثلين لمذهب البيزنطيين الغزاة -  
 والممثلين «للوافد» الفكرى الرومانى - وجدهم قد انفردوا  
 واستبدوا بمؤسسات الفكر فى مصر، وسيطروا على الكنائس.. فماذا  
 صنع عمرو بن العاص «للموروث» المقهور والمضطهد؟ وماذا  
 صنع بد «للوافد» المستبد والمسيطر؟.. لقد اقتلع الملكانيين [الوافد]  
 من كنائس مصر ومؤسساتها اللاهوتية والفكرية، وأعاد كل ذلك  
 إلى قوم مصر: اليعاقبة الأقباط! فعادت فكرية مصر القبطية  
 اليعقوبية إلى السيادة من جديد.. ثم تعربت هذه الفكرية وموروثها  
 ودخل الناس فى دين الله أفواجا.. لقد أسلمت الأغلبية الساحقة من  
 السكان، ومن لم يسلم تعرب، وأسهم وأيدع مع من أسلم فى هذا  
 البناء الحضارى الجديد.. ووجدنا «الإسلام الدين» «الإسلام  
 العقيدة» قد وقف عند حدود الذين آمنوا به، وأسلموا وجههم لله وفق  
 عقائده، التى يشر بها محمد، ﷺ منذ فجر البعثة.. أما الحضارة  
 العربية الإسلامية، التى تبلورت فى عصر التدوين، فلقد جاءت  
 ثمرة لإبداع كل الذين تعربوا، وكل الذين طبعوا بهذه الهوية  
 الحضارية الجديدة، على اختلاف شرائع الأديان والمعتقدات..

وهذه العروبة، التى اتسعت دائرتها، وزاد عمقها، قد عاشت  
 وصمدت لكل التحديات، فالمماليك والعثمانيون، قد حكمونا  
 قرونا زادت على القرون التى حكم فيها العرب الذين سبقوهم!  
 وفى ظل حكمهم ظهرت دعوى التفرقة بين «العروبة» وبين  
 «الإسلام» عندما زعمت السلطة أن «العروبة» تتناقض مع

«الإسلام».. بدأ هذا الزعم في ظل الدولة المملوكية، ورأيناها يتصاعد في ظل الدولة العثمانية إلى حد اضطهاد العروبة والعربية، حتى لقد سعى الأتراك إلى تترك الأمة العربية.

ثم رأينا، في الجزائر الجهود الاستعمارية المصمومة لفرنسة الشعب الجزائري، عندما حاولت فرنسا تحويل الجزائر إلى امتداد لآفنتى فرنسى لها عبر البحر المتوسط.

ورأينا الجهود التغريبية التى بذلت - فى قوة واستمرارية وانتظام وشمول - حرباً على العربية وتراثها ودينها، لقطع الروابط التى تجمع هذا الثالوث - العربية.. والتراث.. والدين - فمرة يريدون كتابتها بالحروف اللاتينية، ومرة يريدون استبدال العامية بها.. وفى كل الأحوال هم يشككون فى أصالة تراثها، ويعزلون الإسلام عن عرش الحياة المدنية.. ولما لم يبلغوا، على هذه الجبهات، كل الذى أرادوا، حاربوا العربية بالتجاهل لها وبالجهد بها.. حتى وجدنا خطباء ومتحدثين فى أجهزة الإعلام المسموعة والمرئية، ومعهم «كتبة» فى وسائل الإعلام المقروءة تشع منهم وتتقاطر علينا الأخطاء الفاحشة باللغة القومية.. بل لقد وصلت الأخطاء الفاحشة إلى منبر خطبة الجمعة وخطبائها.. وعمت الشعر العربى، وغزت القرآن الكريم والحديث الشريف، على ألسنة كثير من الخطباء!

ومع كل ذلك، فلقد وجدنا هوية «العروبة» تكمن، صامدة أمام كل تلك التحديات، لقد كمنّت فى الجزائر، كمنون النواة، والجوهر، والحقيقة المطلقة، حتى حان الحين فأعادت الجزائر مرة أخرى إلى أحضان العروبة والإسلام..

وكل تيارات التغريب التي رأيناها، قد اعترأها ويعتريها الوهن، ولم تلن للهوية «العروية» قنأاً. حتى الذين بدءوا حياتهم الفكرية يبشرون بالتغريب.. ماذا صنعوا؟ وماذا صنعت بهم الحياة؟.

إن بعض الناس يتحدث، بسطحية وتبسيط للأمر، مثلاً، عن «حقبة كتابة الإسلاميات» في حياة أعلام ومفكرين من أمثال عباس محمود العقاد [١٣٠٦ - ١٣٨٤هـ = ١٨٨٩ - ١٩٦٤م] والدكتور طه حسين [١٣٠٦ - ١٣٩٣هـ = ١٨٨٩ - ١٩٧٣م] والدكتور محمد حسين هيكل [١٣٠٥ - ١٣٧٥هـ = ١٨٨٨ - ١٩٥٦م]. يتحدث هذا البعض عن هذا التحول فيرجعه إلى أنهم قد طعنوا في السن، وقاربوا الموت، فأصابتهم نكسة التراجع عن «الفتوة والتألق والثورية»، وبدأت مرحلة «الدروشة»، التي اقترنت بتصفية بقايا ثورية ثورة سنة ١٩١٩م، التي أوقدت زند هؤلاء الأعلام! وأنهم - بنظر هذا البعض - قد انخرطوا، في مرحلة الهزيمة، يكتبون ما كتبوا في الإسلاميات!

وهذا الكلام - السطحي والخبث - يذكرنا بما قاله هذا البعض في تفسير، رفض رفاة الطهطاوى لفلسفة أوربا، بأنه نقص وعيب وسلبية وازدواج في الموقف والشخصية. ونحن نقول: إن أصحاب هذه التفسيرات لم يبصروا موطن الهزيمة في مسيرة هؤلاء الأعلام الذين بدءوا متغربين، ثم عادوا إلى إطار العروية والإسلام. كانت هناك هزيمة حقاً، ولكنها كانت هزيمة

النموذج الحضاري الغربي، الذي انكشف أثره، ووضحت سلبياته، وظهر طابعه الاستعلائي والعدواني، فأيقن القوم أن هيمنة هذا النموذج الحضاري الغربي على عقل الأمة وواقعها لن يثمر «التحضر» و«القوة» و«التقدم»، التي كانوا يؤملونها من ورائه، وإنما هذا سيثمر تشويه الموروث والخصوصية، والقضاء على فعالية هذا الموروث، لتصبح الأمة راسفة في أغلال التبعية للمركز الأوربي والغربي المسيطر في كل المجالات ومختلف الميادين.. لقد انهزم النموذج الغربي في عقول هؤلاء المتغربين وقى وجدانهم. وخاب أملهم فيه، فعادوا أدراجهم إلى أصولهم وموروثهم وقواعدهم الأصلية والأولى.. ولذلك فإننا ننظر إلى هذا التحول الذي تمثل في حقبة كتابة العقاد وطه حسين وهيكل للإسلاميات.. ننظر إليه كظاهرة صحية، وكان تصور «الموروث» في صراعه ضد «وافد التغريب»! وقى هذا الضوء نحن نفهم مغزى أحداث فكرية حفلت بها حياة هؤلاء المفكرين والكتاب..

■ قطه حسين، كان يعيد طبع كتبه.. لكن، لماذا لم يعد طبع كتابه [مستقبل الثقافة في مصر]<sup>١٤</sup>؟ إن السبب في ذلك، هو تجسيد هذا الكتاب لطه حسين «المتغرب»، الذي يقلل من قيمة وفعالية انتمائنا العربي، ويضعنا في إطار «العقل اللاتيني»، عبر ما سماه حضارة البحر المتوسط..

■ ولطفى السيد [١٢٨٩ - ١٣٨٣ هـ = ١٨٧٢ - ١٩٦٣ م] الذي بدأ متغرباً، ينكر العروبة القومية والسياسية، ويستنكر «الجامعة الإسلامية»، ويتحدث عنهما حديثه عن الاستعمار!

لطفي السيد هذا، قد عاد، في أواخر حياته، يتحدث عن العروبة حديثاً جديداً، ينقض به ما كتبه عنها في مرحلة «التغرب».. ومثل ذلك صنع طه حسين بالنسبة لموقفه من العروبة والقومية العربية.. لقد عادوا، بشجاعة المفكر العظيم، إلى «الموروث»، وانهزم فيهم «وافد التغريب» إلى حد كبير.. وكانت هذه العودة الحميدة هي الحقبة التي طبعت بأسلمة الحياة الفكرية لهؤلاء الأعلام، الذين بدءوا متغربين.. فهي إذاً، ظاهرة صحية، عاد بها هؤلاء الأعلام إلى قواعدهم مرة أخرى..

وهذه الظاهرة الصحية، التي حدثت في صفوف جيل من «المتغربين - الليبراليين»، هي التي نبصر الآن نماذج لها وعلامات عليها في صفوف جيل من «المتغربين - اليساريين».. فعلى أن نحذر الخطأ والسطحية في التفسير.. إنها واحدة من علامات وظواهر النضج الفكري، وواحدة من علامات وظواهر الانتصار الذي يحققه «الموروث العربي الإسلامي» ضد «وافد التغريب» ليبرالياً كان هذا الوافد أو شمولياً.

والتدين.. - كمثال آخر على الهوية - نقول: إن أمتنا هذه أمة متدينة.. وهذا الكلام - الذي يتردد كثيراً - ليس عبثاً.. فالتدين قسمة من قسّمات الهوية التي تتميز بها أمتنا العربية الإسلامية.. والتدين، هنا، لا يعنى الشعائر وحدها، كما أنه لا يعنى «الدروشة»، وإنما هو موقف من ثوابت كثيرة.. منها:

■ الأسرة.. التي غدت - وكانت وستظل - في حضارتنا «حرماً مصوناً» قد اكتسب معنى «الحرم» في الدين..

صحيح أن «التغريب» و«التحديث على النمط الغربي» قد وجه الكثير من السهام إلى هذا البناء الأسرى المتميز، وأصاب هذا «الحرم المصون» بما يبعث أحياناً على الأسى.. فتفككت روابط كانت محكمة العرى، وضمرت الأسرة التي كانت ممتدة.. إلخ.. إلخ.. لكننا نلاحظ مغزى النظرة السائدة، والتي تضع هذه الظواهر المرضية فى إطار «الأمراض» التي لا بد من السعى إلى البرء منها، وفى إطار «الشذوذ» الذى يجب أن يخلى مكانه لتسود «القاعدة».. قاعدة الأسرة، باعتبارها «الحرم المصون والمصان»..

ولقد أدرك أعداء هذه الأمة ما للأسرة من مكان ومكانة فى هوية الأمة وثوابتها.. فخافوا، وهم يخلعون قانونها الإسلامى من على عرش المؤسسة القضائية، من تعميم ذلك فى محيط القانون الذى يحكم شئون الأسرة، فتركوا «قوانين الأحوال الشخصية» على حالها.. ليس من باب التسامح، ولا حباً فى الشريعة، ولا سعياً لدعم بناء الأسرة المسلمة.. وإنما مخافة الثورة التى توقعوها إن هم مسوا هوية الأمة الحضارية فى منطقة حساسة، بلغت فى الحساسية إلى مرتبة «الحرم المصون»!

■ والقيم.. والأخلاقيات.. هى الأخرى من ثوابت الهوية التى انتطبعت بالطابع القدسى للدين والتدين.. وإلا، فهل فينا كتيريون يقيسون التعامل «بالمنفعة المادية» على نحو ما هو حادث فى الحضارة الغربية؟

قد يكون «التغريب» و«التحديث على النمط الغربي» قد أحدث فى واقعنا شيئاً من ذلك، يبرز فى المدن، ويتوارى فى الريف..



لكن الجميع يحجبون عنه الشرعية والمشروعية، وينظرون إليه نظرتهم إلى الشذوذ عن القاعدة.. وإلى المرض الذي يرجون منه الشفاء.. وإلى الفتوة الخارج عن النسق العام والاتساق المقبول..

■ بل إن قسمة التدين لتبلغ في حضارتنا درجة تسترعى الانتباه، وتستحق الدراسة الخاصة والمتخصصة.. فلقد تعدى أثر التدين إطار القيم والأخلاقيات والعلاقات الاجتماعية ليصل إلى ميدان العلوم الطبيعية وتطبيقاتها، فعرفت حضارتنا ما نسميه بـ «الروح المؤمنة» التي سرت، لا في «علوم الشرع» وحدها - فهذا طبيعي وولرد ومألوف - وإنما في «العلوم العقلية» أيضًا، التي اتسقت، قس المنطلق والنتيجة والغاية، مع «علوم الشرع».. بل لقد شاعت هذه «الروح المؤمنة» في العلوم الطبيعية، التي نمت كعبادة لله، يقيمها العلماء سعيًا لاكتشاف أسرار الله في كونه، وسننه في ملكوته، فإذا ما طيقوها تراهم قد ربطوا الوسائل بالغايات مستهدفين من تطبيقاتها تلك السعادة الدنيوية لخلق الله، تلك التي بدونها لن يستطيع الخلق عبادة الحق بعمران الكون الذي شاء لهم أن يعمروه.

وتحس نسأل: ماذا يعنى إسلام مفكر فيلسوف مثل رجاء جارودي؟ وأهم من هذا، ماذا يعنى تحليله لاهتدائه للإسلام بأنه قد وجد فيه الدين الذي جعل الحضارة الإسلامية ترتبط فيها العلوم والمعارف بالحكمة والغاية؟ ذلك ملحوظ يستحق التأمل العميق

إن الذين يدرسون تراثنا العلمي يلحظون شيوع «الروح المؤمنة» في ثنايا هذا التراث، وتخللها لحقائقه ونظرياته.. فحتى «قوانين» هذه العلوم غير غريبة ولا بعيدة عن «الإيمان»! فإذا قرأنا - من تراثنا - كتباً في [الأحجار والجيولوجيا] نجد المؤلف يبدأ هذه الكتب بـ [بسم الله الرحمن الرحيم] وبـ [الحمد لله].. فإذا فرغ من مبحث قال: [والله أعلم]!

وابن حزم الأندلسي [٣٨٤ - ٤٥٦ هـ = ٩٩٤ - ١٠٦٤ م] يؤلف في الحب كتابه البديع [طوق الحمامة]، فيبدأ الكتابة في الحب بداية الفقيه الذي يكتب في الإلهيات..

وابن سينا [٣٧٠ - ٤٢٨ هـ = ٩٨٠ - ١٠٣٧ م] - وهو الفيلسوف العالمي - يقرأ كتاب أرسطو [ما بعد الطبيعة] فيستعصى عليه فهمه.. ثم يعاود المحاولة.. حتى يقع في يده كتاب للفارابي [٢٦٠ - ٣٣٩ هـ = ٨٧٤ - ٩٥٠ م] يحل له المغاليق، ويعينه على فهم [ما بعد الطبيعة].. فماذا وجدناه قد صنع هذا العقل المتفلسف؟ لقد وضع كتيبه وأوراقه جانباً، وأخذ شيئاً من نقوده، وغادر منزله باحثاً عن الفقراء والمساكين، يتصدق عليهم، شكرًا لله الذي أعانه على فهم [ما بعد الطبيعة] لأرسطو!

إن هذه «المواقف - الأمثلة» بالغة الدلالة على هذا الذي نقول: إن حضارتنا العربية الإسلامية هي حضارة مؤمنة، يصل تأثير الدين فيها إلى ما هو أبعد من الشعائر والقيم والأخلاقيات والمعاملات فيسرى بروحه المؤمنة في العلوم، حتى ما كان منها خاصاً بالطبيعة، وفي تطبيقات هذه العلوم!

هذا عن حضارتنا العربية الإسلامية..

أما الذين يقرءون مؤلفات الحضارة الغربية فى العلوم الطبيعية فإنهم لن يجدوا «الروح المؤمنة» أثرًا. بل إنهم سيجدون النقيض على نحو أكيد.. فهذه المؤلفات قد لا تتحدث عن الإلحاد، ولا تجادل فى إنكار وجود خالق صانع وقادر فى هذا الكون، ولا تدعو إلى الهرطقة والزندقة، ولكنها تصحب القارئ من البداية إلى النهاية فتقف بعقله عند حدود المحسوس، والأسباب والمسببات فى إطار هذا المحسوس، وفى خلال ذلك كله فإنها لا تشعر القارئ بوجود قوة خالقة وراء هذا المحسوس، بل ولا بالحاجة إلى وجود هذه القوة.. إن هذه المؤلفات، حتى إذا لم تنكر صراحة وجود هذه القوة الخالقة، فإنها ترسب فى الذهن الإنسانى تصورًا للكون لا يحتاج الإنسان فى إدراكه إلى أكثر من الأسباب والمسببات المادية التى يجدها ويلمسها أمام حواسه.. وهذا النهج الغربى.. وهذه الروح الغربية تكون العقلية غير المؤمنة، ولذلك فإننا حين نتحدث عن الروح المادية والإلحادية للحضارة الغربية، لا نقف بمقاصدنا فقط عند «الطابع النفعى» فى القيم والأخلاقيات، وإنما نقصد إلى ما أشرنا إليه من سريان «الروح الملحدة» فى التراث العلمى للحضارة الغربية، الأمر الذى ميزها ويميزها عن حضارتنا العربية الإسلامية، التى تميزت «بروحها المؤمنة» تسرى فى كل العلوم والفنون وسائر الميادين والمجالات.

فنحن عندما نقول: إن حضارتنا تميزًا بـ «الروح المؤمنة»، التى هى أثر من آثار «الدين» فى هويتنا الحضارية.. عندما

نقول ذلك لا «تندروش».. وإنما نقصد إلى ما قصد إليه جمال الدين الأفغانى عندما تحدث عن «التيدين» قشبهه بـ «الحيّة» و«الطبع» الذى طبع به إنسان حضارتنا، العربى المسلم، فهو حتى لو مرق من دينه، وتزندق وألحد، فإن أثر التدين وتأثيره يظل مطبوعاً فيه، مثله فى ذلك كمثل أثر الجرح فى الجسم بعد الشفاء والاندمال فهذا الإنسان لا يستطيع الخروج من جلده - كما يقولون!

والوسطية.. إنها هى كذلك، فى حضارتنا «هوية»، وواحدة من القسّمات الثوابت.. والوسطية هنا لا تعنى المعنى السوقيّ الذى شاع بين العامة من المثقفين والسياسيين لهذا المصطلح المظلوم! لا تعنى انعدام الوضوح، واقتفاء الموقف المحدد، واللعب على مختلف الحبال، وإمساك العصا من منتصفها.. إلخ.. إلخ.. وإنما تعنى «الوسطية» فى المفهوم الإسلامى.. «الأمة الوسط» و«الموقف الوسط»، الذى هو: عدل بين ظلمين وحق بين باطلين، واعتدال بين طرفين.. ليس بالمعنى الأرسطى، الذى يجعل الفضيلة وسطاً يتوسط رئيلتين، متصورًا وجود مسافة عن يمين الفضيلة وعن يسارها، متساوية، تفصل بينها وبينهما.. وإنما بمعنى اشتمال الموقف الوسط على محاسن القطبين النقيضين التى يمكن جمعها والتأليف بينها.. «فالعقلانية الإسلامية» موقف وسط، ليس بمعنى التوسط بين «العقل» وبين «النقل»، وإنما بمعنى التأليف بين براهين «العقل» و«النقل» جميعًا.. و«المادية الإسلامية» موقف وسط، ليس

بمعنى التوسط بين المادة والروح، وإنما بمعنى الجمع بين محاسنها والضرورى منهما لخلق الإنسان السوى و«الشخصية الإسلامية» شخصية وسط، لا بمعنى انعدام انتمائها، وإنما بمعنى جمعها بين فضائل «الجسد» و«الروح»، وفضائل «الدنيا» و«الآخرة»، وفضائل «الدين» و«الدنيا»، وفضائل «الفردية» و«الجماعية»، إلخ، إلخ.

ذلك هو معنى «الوسطية»، التى هى روح الحضارة العربية الإسلامية ومزاجها. وأنا أحياناً أتساءل: لماذا نجد فى التراث الفلسفى للحضارة الغربية تياراً مادياً ملحداً منذ اليونان وحتى العصر الحديث.. وهذا التيار قديم وعريق، وسابق على ماركس [١٨١٧ - ١٨٨٣م] وعلى الماركسية، كما يعرف الجميع.. ولماذا لا نجد فى التراث الفلسفى لحضارتنا العربية الإسلامية هذا التيار المادى الملحد؟.. وهل المصادفة هى التى صنعت ذلك، ووقفت خلفه؟.. لا أعتقد.. ولا أظن!.. وإنما مرجع هذا الافتراق وذلك التمايز إلى امتياز حضارتنا بـ«روح الوسطية» وقسمتها.. هذه الوسطية التى وازنت ما بين «العقل» و«النقل» فأصبح لنا «عقلانية إسلامية» تميزت عن «العقلانية اليونانية» التى لم تعرف «النقل - الوحي»، فأثمر هذا التوازن منظومة فكرية متميزة..

وإنه لأمر يستحق النظر والتأمل، بل ويستوجبهما، وهو أننا نجد أغلب الفلاسفة والمتكلمين والمفكرين المسلمين قد قالوا بـ«قدم العالم»، وهم، فى ذات الوقت، مؤمنون بوجود خالق لهذا العالم القديم.. لقد جمعوا، بالمنهج الوسطى التأليفى - وليس

التلفيقى - بين القول بـ «قدم العالم» وبين الإيمان بالخالق لهذا العالم.. على حين وجدنا أن ذات القضية هى التى قسمت الفكر فى الحضارة الغربية، تاريخياً، إلى تيارين: مادى، ومثالى فالذين قالوا بقدم المادة أنكروا وجود الخالق لأنهم رأوها صدين لا يجتمعان ولا يأتلفان.. أما الذين قالوا بوجود الخالق، فلقد أنكروا قدم المادة: لأن الأمرين عندهم، أيضاً، ضدان لا يجتمعان ولا يأتلفان.. ولقد تكون من الأولين «التيار المادى»، ومن الآخرين: «التيار المثالى»، على النحو المألوف والمعروف لدارسى الفلسفة الغربية..

أما فى حضارتنا، التى تميزت بالوسطية.. حضارة الأمة الوسط، فلقد تأخت الحقيقتان ووجدنا [المعتزلة] - مثلاً - عندما يقولون بالخلق من «العدم»، يبهون على أن هذا «العدم»: «شئ».. ووجدنا ابن رشد - مثلاً - يقول إنه قبل «الوجود بالفعل» يكون «الوجود بالقوة».. وإن «الخلق» هو «الخلق المستمر»، الذى يتحول به «الوجود بالقوة» إلى «وجود بالفعل».. و«الوجود بالفعل» إلى «وجود بالقوة»، وهكذا باستمرار، تحول دائم لا ينتهى فى هذا الوجود.. كما يقول: إن الله قديم، ولذلك فلا بد وأن يكون فعله - العالم - قديماً أيضاً.. وهو ذات المعنى الذى يعبر عنه الإمام محمد عبده بقوله: «إن المادة أزلية، كما أن الله أزلى»..!

هكذا وجدنا، فى الحضارة الغربية، تياراً مادياً ملحداً، متبولراً ومستمرّاً عبر تاريخها الطويل.. وآخر مثالياً.. ولم نجد لذلك مثالا ولا شبيهاً فى تاريخنا الفكرى والفلسفى.. لماذا؟



إن مرد ذلك هو امتياز حضارتنا بالوسطية، التي هي مزاج حضارى مختلف، أثمر فى حضارتنا ما نسميه بـ«تدين الفلسفة» وتفلسف الدين».

فالمعتزلة، وهم رواد وصناع «علم الكلام الإسلامى» - الذى هو فلسفة أمتنا.. والذين مثلوا قرسان العقلانية الإسلامية، هم الذين أسسوا فلسفتنا على قواعد الدين وأصوله، بينما تناقضت الفلسفة مع الدين فى الحضارة الغربية، وقامت ولا تزال قائمة بينهما الحروب!

وهؤلاء المعتزلة، عندما قال خصومهم، من «أهل الحديث النصويين»: إن الأدلة ثلاثة، هى: الكتاب.. والسنة.. والإجماع.. قالوا هم: بل إنها أربعة هى - على هذا الترتيب - العقل.. والكتاب.. والسنة.. والإجماع.. وعللوا ذلك بالحاجة إلى العقل، كقاض حاكم، فى التمييز بين المحكم والمتشابه، والمطلق والمقيد، والخاص والعام.. إلخ.. إلخ.. من آيات الكتاب.. لأن هذا الكتاب - الذى هو معجزة الإسلام - والذى هو «النقل» قد جاء «معجزة عقلية»، عُرضت على العقل، وجعلته مناط التكليف، والقاضى الحاكم فيها، ولم تقصد إلى «إدهاش» هذا العقل وإخراجه عن الأطر التى أحكمتها وتحكمها البراهين.

فنحن، هنا، أمام «توليفة» جديدة، وهى شىء مختلف تمامًا عن «التفريق»، أمام منظومة فكرية ومزاج حضارى قد مايز ما بين حضارتنا والحضارة الغربية على وجه التحديد! بل مايز بينها وبين كثير من الحضارات..

نحن نعرف أن المسيحية الأولى قد بلغت «فى الصوفية  
المسالمة وفى السلام الصوقى» إلى حد الدعوة إلى إدارة الظهر  
للدنيا.. ومن ضربك على خدك الأيمن، فأدر له خدك الأيسر!.. ومن  
غصبك ثوبك، فأعطه القميص!.. إلخ.. إلخ..

ونعرف أن الحضارة الهندية قد بلغت فى تصوفها حد الدعوة  
لإفناء الجسد، بل لقد تعبدت بتعذيبه!

أما الحضارة الغربية فإن روحها المادية النفعية واضحة  
المعالم، سائدة فيها السيادة المطلقة، وفى كل الميادين، حتى  
لقد طوعت المسيحية المتصوفة فغدت فيها طقوسًا وشعائر لا  
علاقة لها بالصورة المثالية التى بدأت عليها!

لكن حضارتنا، كما أوضحنا، قد تميزت بالمزاج الوسطى  
المعتدل، الذى وازن ويوازن بين ما حسبه الآخرون - فى  
الحضارات الأخرى - متناقضات لا سبيل إلى الجمع بينها، فضلًا  
عن التأليف والتوفيق..

هكذا، أصبح باستطاعتنا أن نقول: إن سمات من مثل:  
«العروية»، و«التدين»، و«الوسطية»، إنما تمثل، فى حضارتنا:  
«هوية».. وأن علينا أن نتخذها معيارًا لصلاح أو عدم صلاح..  
لصحة أو عدم صحة أى «واقعة» جديد.. بل وأى «موروث» قديم..

## التشكيك في ثبات الهوية

لكن البعض قد يقول: إن ما تسميه ثوابت و«هوية».. قد لا يستعصى على التطور والتغيير.. ولقد ضرب لى بعض الأصدقاء مثلاً ليدلل به على ذلك فقال: إن البصمة يمكن أن تزال بقليل من الحامض!

وأنا أقول: إن الأمر ليس بهذه البساطة.. ولذلك فأنا أدعو إلى تأمل هذه الحقائق، التي هي فى رأى ظواهر حضارية تستحق النظر العميق والتفكير الذى يستخلص منها الدلالات:

■ إن كونفوشيوس [٥٥١ - ٤٧٩ ق.م] لا يزال حياً فى الصين حتى الآن!

■ والإسلام ظل حياً فى «بخارى» رغم الشيوعية المادية كما هو حى فى الأزهر الشريف!

■ والأرثوذكسية ظلت حية فى روسيا الماركسية كما هي حية فى مقر بابوية الكرازة المرقسية!

حدث ذلك، ولا يزال يحدث رغم القرون الطوال، ورغم عوامل التطور والتغير، الداخلية منها والخارجية.. الأمر الذي يجعلنا نعتقد أننا بإزاء «ثوابت» و«هوية» ولسنا بإزاء «متغيرات»!

■ وتركيا - والإسلام هويتها - لقد جاء كمال أتاتورك [١٢٩٨ - ١٣٥٧هـ = ١٨٨١ - ١٩٣٨م] - بناء على عوامل داخلية وخارجية - فتحى الإسلام جانباً، وفرض العلمانية على تركيا، ومر على ذلك قرابة القرن.. والآن نسأل: ما هي تركيا التي تعلمت؟! إنها شريحة محدودة جداً.. وأنتم ترون الآن البعث الإسلامى الذى يهز تركيا هزاً عنيفاً.. وما الانقلاب الفاشستى الذى قاده جنرالات حلف الأطلنطى، بقيادة «إفرين»، فى مطلع ثمانينيات القرن العشرين، إلا نموذج لمحاولات الغرب الحيلولة بين الإسلام وبين السيادة فى هذه البلاد من جديد!

■ والخديو إسماعيل [١٢٤٥ - ١٣١٢هـ = ١٨٣٠ - ١٨٩٥م] فى مصر.. لقد قيل عن مصر: إنها قد غدت «قطعة من أوروبا» فى عصره.. ثم جاء الاستعمار فأسرع الخطا على ذات الطريق.. ومر ما يزيد عن القرن على سيادة هذا النهج فى مصر.. والآن نسأل: أية مصر تلك التى أصبحت قطعة من أوروبا؟! وأية مصر تلك التى استعصت على أن تصبح قطعة من أوروبا؟! إن الشريحة التى تغربت هى التى خيل إليها، وهماً، أنها قد أصبحت جزءاً من أوروبا، أما جسد الأمة الحقيقى فإنه لم ولن يصبح قطعة من أوروبا.. وعندما يجد الجد وتحقق بالأمة الخطوب، ينطلق وجدان

الأمة، عبر لسانها، بنشيد: «بلادى.. بلادى»، ويصبح «الإسلام» هو الحصن الذى تتحصن به.. وتبرز «العروبة» كالسند الشامخ الذى تستند إليه، رغم كل محاولات المسخ والنسخ والتشويه.. بل وينسلخ يوماً بعد يوم من الشريحة المتغربية أفضل أبنائها، يعودون إلى قواعد هويتهم الحضارية، ليبراليين كانوا فى تغريبهم أو شموليين!

إذن، فإن ما نسميه بـ «الهوية»، هو الجواهر، والنواة، والبصمة، والمزاج، والروح فى هذه الحضارة، وليس من السهل اقتلاعها.. إنها من الثوابت، وليست من المتغيرات وقد يشدد الضغط والتأثير المقاوم والمعاكس لها، فيجعلها كامة تتحيز فرصة الهزة أو الزلزال لتبرز وتسود من جديد!

والذين قرءوا تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، يعلمون كيف سارت سياسة الفرنسة شوطاً كبيراً على درب النجاح، حتى خيل لأنصارها أن الجزائر قد غدت، بالفعل الامتداد اللاتينى الفرنسى لفرنسا [ الأم ] عبر البحر المتوسط. ويعلمون كيف كتب واحد من هؤلاء المتغربين، الذين اندمجوا فى فرنسا الأم، يسخر من فكرة وجود جزائر عربية مسلمة متميزة عن «فرنسا - الأم»، فعنون مقاله - فى حقبة الثلاثينيات من القرن العشرين - بعبارة [ من يدلنى على وطن اسمه الجزائر ]؟!

وهؤلاء الذين قرءوا تاريخ الجزائر، يعلمون جيداً أن هذه الكلمات التى عبرت عن الشريحة التى تغربت وتفرنست، لم تمثل

إلا «الوهم - السطحي» الذي علا، لحين، جوهر الهوية الثابت،  
فلقد كانت العروبة، وكان الإسلام هوية الجزائر، كمننت لحين، ثم  
انطلقت فأزاحت الوهم، وحققت للجزائر النصر الذي تعرفون.. ولم  
يفلح معها كل ما صنعه الاستعمار: على امتداد أكثر من قرن من  
«تطوير وتغيير»!



## التفاعل الحضارى

وغنى عن البيان - كما أشرنا إلى ذلك مراراً - أن «التمايز» الحضارى، هو موقف مختلف تماماً عن «الانغلاق» أو «العداء» الحضارى.. فرفض الانفتاح على الحضارات الأخرى هو موقف ضار، فضلاً عن أنه غير ممكن فى ظروف ثورة أجهزة الاتصال والتواصل التى تزداد فعاليتها فى العصر الذى نعيش فيه.. إن «التمايز» الحضارى إنما يتطوّر من حقيقة موضوعية تؤكد وجود سمات وخصائص وقسمات تمايز ما بين الحضارات الغنية والعريقة، تعبيراً عن تمايز الشخصيات القومية والمكونات التاريخية لأمم تلك الحضارات.. ولقد أثبت سير التاريخ الإنسانى، ولا يزال يثبت ويؤكد أن هذا التمايز لم يمنع من التقاء هذه الحضارات، وتفاعلها، وأن هذا التفاعل، عندما كان صحيحاً، ومن موقع الاستقلال - لا التبعية - وبنهج راشد ورشيد، كانت ثمراته طيبة وخيرة، بل وضرورية لمختلف الأطراف، وكانت نتاجه دعماً للتمايز وليس إلغاء له، ونفياً للانغلاق، الذى يحمل مخاطر الجمود والضمور والانقراض للحضارة التى تسلك سبيل الانغلاق

إننا إذا نظرنا إلى حضارتنا، في وضعها الراهن، الذي فرضت عليها فيه تحديات كثيرة.. من مثل «التخلف الموروث» من عصور التراجع والانحطاط المملوكية العثمانية.. ومن مثل «التغريب» الذي جاءت به الغزوة الاستعمارية الحديثة، فسنجد أن هذه التحديات قد كادت أن تعزل حضارتنا عن السيادة على أرضها، وحاولت اقتلاعها اقتلاعاً، ليحل النموذج الحضاري الغربي محلها، بزعم أنه «البديل العصري» القادر على «تحديث» الحياة وتغيير «التخلف الموروث».

وإذا كنا نرفض «التبعية» للنموذج الغربي، حرصاً على استقلالنا الحضاري، وإيماناً منا بأن صلاحيته في بلاده - وهي صلاحية يتشكك الغربيون فيها الآن - لا تؤهله للصلاحية في بلادنا.. فإننا نرفض، كذلك، أن يكون «التخلف الموروث» هو البديل للتغريب.. فهذا «التخلف الموروث» لا يعبر عن سمات حضارتنا وخصائصها، لأنه - في أغلبه - وافد مملوكي أو عثماني، وركام من الجمود والشعوذة صنعه عصر التدهور.. فهو نتوء شاذ عن المجرى الطبيعي لتطورنا الحضاري الأصيل.

وبالطبع، فإن رفض «التخلف الموروث» ورفض «التغريب» يضع على عاتق الفكر العربي والإسلامي ثقل المهمة الأكبر والأعقد.. مهمة البحث الجاد لبلورة المشروع الحضاري النهضوي البديل..

فانطلاقاً من الاحتفاظ «بهويتنا».. وبحثاً في الحضارات الأخرى عن «عوامل القوة» التي تدعم استقلال هذه الهوية - ولا تطمسها - والتي تزيد هذه الهوية فعالية - ولا تضعفها - والتي

تخرج هذه الهوية من «الكمون - والوجود بالقوة» إلى «الظهور - والوجود بالفعل» - انطلاقاً من هذين المصدرين، وصدوراً من هذين المنبعين.. وفي ضوء واقعنا المعاصر، والتحديات التي تواجه الأمة، وتشل فعاليتها، وتبدد طاقاتها، وتحول بينها وبين الانعتاق والانطلاق.. تأتي -بعد استخلاص الهوية من «الموروث»- ضرورة البحث في الحضارات الأخرى عن «عوامل القوة»؛ حتى يكتمل للأمة المشروع النهضوي الكافل لبعثها الجديد.. وإذا كان بعض من «الإسلاميين النصوصيين» يتشكك ويشكك في إسلامية وجدوى أي انفتاح على الحضارات الأخرى أو استلهاهم من هذه الحضارات.

وإذا كان بعض من «المتغربين» يتشكك ويشكك في قدرة الإسلاميين - بإطلاق - على ممارسة الانفتاح الحضاري.. فإننا نقول: إن ما أشرنا إليه من ضرورة التفاعل الحضاري، ليس كلاماً غريباً على النهج العربي الإسلامي، ولا هو بالحديث الجديد غير المسبوق، بل إن هذا الموقف هو الموقف العربي الإسلامي، الغالب.. والأصيل..

■ فالرسول ﷺ من قبل أربعة عشر قرناً، هو القائل عن «الحكمة»: «إنها الإصابة في غير النبوة»... فليست النبوة وعلومها، فقط، هي الحاوية للإصابة والحكمة؛

وهو ﷺ الذي يعلم أمته ضرورة التماس الحكمة من مصادرها، بصرف النظر عن المواطن والمعتقدات.. فيقول

«الكلمة الحكمة ضالة المؤمن...» ولذلك، فأنتى وجدها فهو أحق الناس بها!

■ وفقهاء الإسلام هم الذين شرعوا لضرورة الاستمرارية فى مسيرة الفكر الإنسانى.. فقالوا: «إن شريعة من قبلنا شريعة لنا، ما لم تنسخ».. فليست هناك حواجز تمنعنا من أن نصافح الآخرين، أو أن نستلهم الوافد المفيد، بل لابد وأن نسعى إلى الوافد الصحى والضرورى، الذى يقوى استقلالنا ويدعم هويتنا وذاتيتنا..

■ والكندى، الفيلسوف [٢٦٠هـ - ٨٧٣م] هو القائل: «خلق بنا ألا نخجل من الاعتراف بالحقيقة واستيعابها مهما كان مصدرها»..

■ وابن رشد [٥٢٠ - ٥٩٥هـ = ١٠٢٦ - ١١٩٨م] يقول: «إنه يجب علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا فى ذلك.. سواء أكان مشاركاً لنا فى الملة أم غير مشارك، طالما كان صواباً»..

■ وجمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤هـ = ١٨٢٨ - ١٨٩٧م] هو القائل: «إن أبا العلم وأمه هو الدليل، والدليل ليس أرسطو بالذات ولا جاليليو بالذات.. والحقيقة تلتصق حيث يوجد الدليل».

■ «والتمدن الأوروبى» هو فى الحقيقة تمدن للبلاد التى نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنسانى.. ولا ملجئ للشرقى، فى بدايته، أن يقف موقف الأوروبى فى نهايته.. ولا بد من التمسك ببعض الأصول التى كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم.. أما المقلدون فإنهم يشوهون وجه الأمة، ويضيعون

ثروتها، ويحطون من شأنها.. إنهم المتأفد لجيوش الغزاة،  
يمهدون لهم السبيل، ويفتحون لهم الأبواب...».

■ ورفاعة الطهطاوى [١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ = ١٨٠١ -  
١٨٧٣ م] هو الذى يقول: «علينا أن نأخذ عن أوروبا «المعارف  
البشرية المدنية.. والعلوم الجكمية العملية».. أما روح حضارتهم  
وفلسفاتهم فهي مليئة «بالحشوات الضالالية، المخالفة لسانر  
الكتب السماوية»!

وعلى هذا الدرب سار رواد المد الإسلامى المعاصر..

■ فكتب حسن البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ = ١٩٠٦ - ١٩٤٩ م]-  
وهو الذى رفض ما فى الحضارة الغربية من «مادية والحاد وشك  
واباحية وأثرة وريا..» - كتب يقول: «إن طبيعة الإسلام، التى  
تساير العصور والأمم، وتتسع لكل الأغراض والمطالب.. لا تأبى  
أبداً الاستفادة من كل نظام صالح لا يتعارض مع قواعد الإسلام  
الكلية وأصوله العامة.. إنه يدعو إلى أن نأخذ من كل شيء أحسنه،  
وينادى بأن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس  
بها، ولا يمنع أن تقتبس الأمة الإسلامية الخير من أى مكان،  
فليس هناك ما يمنع من أن تنقل كل ما هو مفيد من غيرنا،  
ونطبقه وفق قواعد ديننا ونظام حياتنا وحاجات شعبنا..».

■ والمودودى [١٣٢١ - ١٣٩٩ هـ = ١٩٠٣ - ١٩٧٩ م]- وهو  
من أبرز من انتقد الطابع المادى للحضارة الغربية- هو القائل  
«إن موقف الإسلام من الأخذ والعطاء بين الحضارات، هو شيء

فطرى فى الأمم التى تختلط بعضها ببعض، فهو لا يجيزه فقط، بل يريد له الازدهار.. فالإسلام لا يريد لحدران التعصب بين الأمم أن تبقى قائمة، فلا تأخذ أمة فى حضارتها من أمة أخرى شيئاً..!

■ وسيد قطب [١٣٢٤ - ١٣٨٦هـ = ١٩٠٦ - ١٩٦٦م] - وهو الذى سمى الحضارة الغربية: «الجاهلية الجديدة» - نراه يدعو إلى الإسلام «كتصور مستقل للوجود والحياة.. ينبثق منه - للمسلمين - منهج ذاتى مستقل للحياة كلها..».

وفى ذات الوقت، يدعو سيد قطب إلى أن نأخذ عن الحضارة الغربية علومها الطبيعية، التى هى - بتعبيره - «وليدة العبقريّة الأوربية فى الإبداع المادى..»!

\* \* \*

إذن، ليس هناك خلاف فى حضارتنا على ضرورة «التفاعل الحضارى».. فبدءاً من أحاديث الرسول ﷺ إلى الفقهاء.. والفلاسفة.. ورواد التجديد والصحوّة الإسلامية.. ومروراً بتجربة هذه الحضارة فى التفاعل مع غيرها من الحضارات، ليس هناك خلاف حول هذا الموضوع.. لقد كاد الإجماع أن ينعقد فى حضارتنا على ضرورة التمييز بين «هوية الأمة».. التى تميزها حضارياً، وبين «العلوم القائمة» على الحقائق والقوانين وتطبيقاتها، وهى التى لا وطن لها ولا جنس، ولا تتشكل بأشكال البيئات الحضارية المتمايضة.

فالهوية، لا بد وأن نبحث عنها فى «الموروث».. والعلوم الطبيعية، وتطبيقاتها، وما هو صالح ومفيد وضرورى من



التجارب الإنسانية، وكل ما يمثل «مصادر قوة» للهوية الحضارية المتميزة، لا بد وأن نسعى إليه، نستلهمه، ونتمثله. ونوظفه لخدمة «المشروع الحضارى المتميز»، ولخدمة الهوية الحضارية المتميزة..

فليس هناك أدنى خلاف، إذن، حول ضرورة الانفتاح على الحضارات، وضرورة التفاعل مع هذه الحضارات، من موقع الراشد المستقل.. وإنما الخلاف، كل الخلاف، هو مع دعاة «التبعية الحضارية»، الذين يزعمون - لتبرير هذه التبعية - أن الحضارة الغربية هي الحضارة «الإنسانية» والعالمية.. والعصرية» الوحيدة. وأنها «النموذج» الوحيد للتحضر والتحديث، وهم، لذلك، ينكسرون «التعددية الحضارية»، و«التماييز الحضارى». إن الخلاف، كل الخلاف، هو مع هذه المقولة المغلوطة والدعوى الخطرة والباطلة..

إننا إذا وضعنا يدنا على الواقع الحضارى، التاريخى والمعاصر، قسنجد هناك تمايزاً بين الحضارات، وتعددية فى الحضارة.. فهل يعلم الذين يزعمون وحدة الحضارة، التى هى فى نظرهم الحضارة الغربية، ما كتبه السياسى الاستعمارى الأمريكى جون فوستر دلاس [١٨٨٨ - ١٩٥٩م] عن وحدة الحضارة الغربية، تلك التى تضم، - فى نظره - الدعوة الصهيونية وحركتها والكيان العنصرى الاستيطانى الذى أقامته فى فلسطين؟.. هل يعلمون ذلك؟.. وإذا علموا، فهل يظنون على دعوتهم لأمتنا العربية الإسلامية إلى «التحضر» بذات الحضارة، التى تجمع ما

بين «دلاس» و«بيجن» و«شارون»؟ وهل هذا هو «الموقع الحضارى» الذى يرتضونه لأمتنا.. أمة العربية والإسلام؟



إننا لا نؤمن «بالحياد» فى الموقف تجاه «الموروث» و«الوafd» «فالوafd» طارئ، لا بد وأن يخضع للفحص والانتقاء والاختيار.. والمعيار هنا هو مدى ما يمثله من «مصادر للقوة» تتسق مع طابعنا الحضارى، وتزيد هذا الطابع قوة تعينه على أن يكون للأمة سيلاً للتقدم والنهوض.. أما «موروثنا» فهو ذاتيتنا الحضارية، وإبداع أسلافنا العظام، ومظهر عبقرية أمتنا، ومجلى الخصائص التى تميز حضارتنا العربية الإسلامية عن غيرها من الحضارات.

وهذا «الموروث» - الذى يمثل الإسلام مكونه الأول، ومعيار الصحة والخطأ فيه - ليس تاريخاً مضى وانقضى ولا أكفان موتى، ولا قيوداً تشد الحاضر إلى ماضٍ سحيق. وإنما هو طاقة مبدعة وخلق، وروح سارية فى عقل الأمة ووجدانها. وإذا كان تمايزنا الحضارى، وعدوانية الحضارة الغربية، يفرضان علينا الحذر عندما ننظر فى «الوafd» لنختار.. فإننا يجب ألا ننسى أن «التجديد» هو سبيلنا المأمون إلى تمييز «الثوابت» من «المتغيرات» فى «موروثنا» وقرر «المفيد» من «الضار».. فبال تجديد وحده تعود الحياة لهذا «الموروث» اليوم وغداً. فتتحقق الاستمرارية الحضارية، دونما قيود على توجهنا وتطورنا إلى الأمام!

## نحو مشروع حضارى متميز..

ونحن نؤمن أن «النهضة» - بكل ما تعنى من تغيير شامل وجذرى - هى سبيل أمتنا الوحيد لقهر ما يفرضه عليها الأعداء من تحديات.. ونؤمن، كذلك، أن المهمة الملحة لحركتنا الفكرية هى بلورة المشروع الحضارى الذى هو «دليل» هذه النهضة.. وإذا كنا لا نزعم أننا نمتلك كل الوضوح الذى يؤهلنا لبلورة معالم هذا المشروع، والذى نعتقد أن صياغته لا بد وأن تكون ثمرة عمل جماعى كبير - فإننا ندعو كل المؤمنين بتميزنا الحضارى، والمدركين لأهمية وضرورة استقلال أمتنا حضارياً، ندعوهم إلى الإسهام فى بلورة ملامح هذا المشروع، الذى هو طوق النجاة لهذه الأمة من مخاطر «الجمود والتخلف الموروث».. ومن مخاطر المسخ القومى والسحق الحضارى والتشويه المعرفى الذى تمارسه الحضارة الغربية مع حضارتنا، وكل حضارات الأمم التى ابتليت بالاستعمار والتغريب.

وفى إطار هذه المهمة الفكرية، فلربما كان مفيداً أن نضع أمام العقل العربى والمسلم «نقاطاً» هى أشبه ما تكون «برءوس

الموضوعات» و«المحاور» التى نعتقد بدخولها فى قسمات صورة ذلك المشروع.. المشروع الحضارى العربى الإسلامى، البديل.

■ إننا ندعو إلى تأمل «التوحيد»، باعتبار فلسفة الأمة، وروح حضارتها، والبوصلة الموجهة لعقلها.. فى نظرتها للكون.. وفى الألوهية والتدين.. وفى التآليف الوطنى والقومى والإسلامى.. «فالتوحيد» ملمح من أبرز ملامح حضارتنا- بل لا نغالى إذا قلنا: إنها حضارة التوحيد.. إنه ملمح من ملامح حضارتنا، به تميزت، وبه جاءت دياناتها السماوية جميعًا.. فنحن نجده فى تراث مصر القديمة عند أحناتون [١٣٦٩ - ١٣٥٣ ق.م.] إلى الحد الذى تحدث فيه أناشيد عن الله سبحانه كإله للكون كله.. إنه جزء من موارث حضارتنا، جاءها من بقايا الشرائع الإلهية القديمة.. وبه تميزت عن صورة التوحيد فى [العهد القديم]، تلك التى جعلت «التوحيد» أقرب ما يكون إلى الوثنية، فالله فيها هو إله لبنى إسرائيل وحدهم، أما الشعوب الأخرى فلها آلهتها الخاصة بها!

وحتى وثنية العرب القديمة، فى جاهليتهم التى سبقت الإسلام، فإنها كانت «انحرافًا» عن جوهر ونقاء هذا «التوحيد» ﴿وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾<sup>(١)</sup> ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لَيَقْرُنُوا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾<sup>(٢)</sup>

وهذه الروح «التوحيدية» التى بلغت فى روح الحضارة الشرقية مبلغ «الهوية» والثوابت من القسمات، هى التى جعلت

(٢) الزمر- ٣.

(١) لقمان: ٢٥.

المسيحية تعجز عن تلبية احتياجات الإنسان الشرقي  
الاعتقادية، عندما أصابتها التأثيرات «الهينية» بما أخرجها من  
الإطار النقي للتوحيد.. فكان دخول شعوب الشرق في دين الله -  
الإسلام- أفواجاً، دونما إكراه، بالترغيب أو التهيب، رغم حرية  
الاعتقاد التي أبعثت المؤسسات الكنسية وما لها من تراث في  
الجدل وخبرات في التبشير.. فلقد كان التوحيد الإسلامي، الذي  
بلغ الذروة في البساطة والنقاء، والذي أعاد إلى هذه العقيدة -  
التي هي جوهر الدين - صفاءها ونقاءها. كان هذا «التوحيد»  
هو «الهوية» التي أعادت شريعة الإسلام الكشف عن جوهرها،  
والتي اجتذبت الإنسان الشرقي إليها..

ولذلك، فتحن ندعو إلى تأمل هذا «التوحيد» ودوره وإمكانياته،  
التي من الممكن أن يكشف عنها مشروعنا الحضاري المنشود.

■ وندعو إلى تأمل «العروبة»، بمعناها الحضاري، غير  
العرقى أو العنصري، وتأمل العلاقة العضوية التي تربطها  
«بالإسلام» بمعناه الحضاري، الذي يتجاوز نطاق الشعائر  
والطقوس فلا يقتصر عليها وحدها. ففي هذه العلاقة نفى  
للتناقض المزعوم بين الدائرة القومية والدائرة الإسلامية،  
وترتيب الأولويات العمل، انطلاقاً من الدائرة الوطنية، فالقومية،  
فالإسلامية، فالإنسانية.

ندعو إلى تأمل علاقة «العروبة» بـ «الإسلام»، وما تعطي هذه  
العلاقة من إمكانات وملامح في مشروعنا الحضاري الذي نفكر فيه..  
■ وندعو إلى تأمل «الوسطية الإسلامية» كمعيار للتوازن،

وباعث على الموازنة، التي غدت ملمحاً من ملامح شخصيتنا الحضارية. ومن ثم فإنها ملمح من ملامح مشروعي الحضارى الذى ندعو إليه.

إننى أتصور أن «وسطيتنا الإسلامية» هذه ستجعل لمشروعنا الحضارى ذاتية متميزة:

- ففى النظرة للإنسان: وسطية، تراه خليفة لله فى الأرض.. وليس السيد المطلق لهذا الكون.. وأيضاً ليس ابن الخطيئة المنبوذة..
- وفى الحرية: الاختيار فى حدود الثوابت التى تمثل إطار الاختيار.. ومن ثم، فهنا وسطية بين الليبرالية المطلقة وبين الشمولية المطلقة.. قد تكون «الديمقراطية الموجهة» هى أقرب الصيغ للتعبير عنها.. اتفاق على الثوابت والمعايير وإطار المشروعية.. ثم تعددية فى السبل والمناهج والفروع والتفاصيل..
- وفى الاقتصاد: ملكية الرقبة فى الثروة القومية لله وحده.. والأمة، ككل، مستخلفة عن الله فى الأموال.. فلا مكان للحرية الاقتصادية والملكية الفردية، بمعناها المطلق فى الفلسفة الليبرالية الغربية.. ولا مكان، كذلك، لتجريد الإنسان الفرد من أى حق فى التملك، الذى يحفره للخلق والتنمية والإبداع.. لأن كون «الملكية الحقيقية» لله، يجعلها كون «الملكية المجازية» للفرد، أى ملكية المنفعة - التى هى الوظيفة الاجتماعية للمال.
- وفى طبيعة السلطة، وعلاقة الدين بالدولة، توسط بين «الكهانة» ووحدة الدين والدولة، وبين «العلمانية» وفصل الدين



عن الدولة. يتجسد في «التمييز» بين الدين والدولة. فالدولة في مشروعنا الحضاري «إسلامية». للشريعة - بمقاصدها - الهيمنة عليها، والمشروعية في قانونها. لكنها ليست الدولة «الدينية» التي تحكم بالحق الإلهي و«رجال الدين» فتضفي العصمة والقداسة على البشر وتشريعاتهم باسم الدين!

■ وفي مفهوم «الأمة»: توسط بين المفهوم «القومي» - العلماني، الذي يستبعد الدين من القسمات المكوّنة «للأمة».. وبين المفهوم «الكهنوتي» الذي يستبعد غير المسلمين من إطار «الأمة».. فالأمة، بالمعنى القومي، تستوعب كل الذين وحدث بينهم السمات القومية. فهم جميعاً، أمة المواطنة، يستوون ويتساوون في حقوقها وواجباتها. ثم هم جميعاً يجمعهم الاحتكام إلى الشريعة، التي هي - في أغلب ميادينها - قانون وضعي محكوم بإطار الإسلام وحدوده وروحه..

وعلاقة هذه الأمة بالدين علاقة وثيقة. فدين الله واحد، هو دين التوحيد في الألوهية، والإيمان بالبعث، والعمل الصالح.. وفي إطار هذا «الدين» - الذي هو واحد أزلاً وأبداً - تعددت وتتعدد «الشرائع» - التي هي طرق للتدين بهذا الدين - أزلاً وأبداً كذلك. فالوحدة في الدين، والتعدد في الشرائع الدينية - والاحتكام إلى شريعة الإسلام المدنية - التي لا تقيض لها ولا بديل عنها في الشرائع غير الإسلامية - هي صيغة الوفاق والاتفاق بين الأغلبية المسلمة والأقليات غير المسلمة في المشروع الحضاري الذي ندعو إليه..

ومكان الإسلام فى تحديد مفهوم « الأمة » هو الرباط الذى يجمع الأقليات المسلمة، غير العربية، إلى الأغلبية التى جمعت بين العروبة والإسلام!

تلك نماذج لملامح فى هذا المشروع الحضارى العربى الإسلامى.. وهى بالطبع لا تخرج عن إطار النماذج التى تنتظر - كما قلنا - الجهود الفردية والجماعية التى تغنيها وتكملها، حتى تتحول إلى مشروع مؤهل لأن ينهض بالأمة وتنهض به الأمة من واقعها الراهن، الذى تكالبت عليها فيه التحديات.. وخاصة تحدى «التغريب» وتحدى «التخلف الموروث».

وإذا كنا نعتقد بالأهمية التى تمثلها هذه النماذج لهذه الملامح من «المشروع الحضارى» المنشود.. فإن الأهم هو الاتفاق على:

■ مبدأ التمايز الحضارى، والتعددية الحضارية.

■ ضرورة الاستقلال الحضارى لأمتنا العربية الإسلامية..

ثم لنجتهد جميعاً فى بلورة ملامح هذا المشروع، الكاقل لأمتنا النهضة والانطلاق..

تلك هى الكلمة السواء التى ندعو إليها كل الذين يؤمنون بأن الاستقلال الحضارى هو طوق النجاة لأمتنا العربية الإسلامية من مخاطر التحديات التى فرضها ويفرضها أعداؤها الكثيرون.

---

## الأزهر والتغريب

---

## تمهيد

■ أما الأزهر، فهو - رغم انعدام الحاجة إلى تعريف مشاهير الأعلام:

ذلك «المسجد - الجامع - الجامعة»، الذي اقترن قيامه بقيام «القاهرة»، فأعلننا تحول مصر من دور «الولاية» إلى مركز «الخلافة»، فكان منارة أهلتها لتنهض بعبء هذا الدور الجديد..

لقد شرع جوهر الصقلي [٨٣١هـ - ٩٩٢م] في بنائه في [٢٢ جمادى الأولى سنة ٣٥٩هـ - ٣ إبريل سنة ٩٧٠م] وتم بناؤه بعد عامين [٩ رمضان سنة ٣٦١هـ - ١٤ يونيو ٩٧٢م].

وإلى جانب الصلاة بدأت تلقى فيه دروس العلم في صفر سنة ٣٦٥هـ أكتوبر سنة ٩٧٥م، وأواخر عهد الخليفة المعز لدين الله [٣١٩ - ٣٦٥هـ = ٩٣١ - ٩٧٥م].

فلما كان عهد الخليفة العزيز [٣٦٥ - ٣٨٦هـ = ٩٧٥ - ٩٩٦م] استوى الأزهر جامعة علمية ومنارة فكرية وقبلة للعلماء والطلاب من كل الأجناس والأقاليم واللغات والطبقات.. وكان ذلك في سنة [٣٧٧هـ - ٩٨٨م]. ثم توالى القرون، وتعاقبت الدول، وتغيرت النظم، وتنوعت صروف الدهر.. والأزهر باق، يزداد رسوخاً، ويتزايد دوره، ويتوهج ضياؤه.. فلقد احتضن العربية والإسلام فغداله في حياة أهلها مكانة الحمى والحارس الذي نهض وينهض بتنفيذ قضاء الله سبحانه عندما

قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الدُّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

هذا عن الأزهر..

■ أما «التغريب»، فإنه: الخاصية الفكرية للحضارة الغربية، المتميزة بطابعها المادى، وغير المتقيدة «بالنظرة المؤمنة» للكون، والجانحة إلى فصل الدنيا عن الدين، وتحرير الدولة من إطار الدين، وتنحية النصوص والمأثورات الدينية من طريق العقل فى كافة الميادين..!

وإذا كانت حملة بونابرت [١٧٦٩ - ١٨٢١م] على مصر [١٢١٣هـ - ١٧٩٨م] قد مثلت طلائع الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة على ديار العروبة وعالم الإسلام، فإن هذه الغزوة الحديثة قد تعلمت من الغزوة الصليبية [٤٨٩ - ٦٩٠هـ = ١٠٩٦ - ١٢٩١م] أهم الدروس.. فالصليبيون قد جاءوا إلى بلادنا فرساناً مقاتلين، ليس وراءهم فكر، وليست لديهم مواهب حضارية، ولا يملكون سوى الجهل والشراسة والتدمير.. ولذلك، فعندما أفرز وطننا العربى مؤسسات القروسية ودولها - [زنكية وأيوبية.. ومملوكية] - وقهر بها الفرسان الصليبيين، لم تخلف الغزوة الصليبية وراءها أية آثار.. وكان تحرير السلطان الأشرف ابن قلاوون [٦٨٩ - ٦٩٣هـ = ١٢٩٠ - ١٢٩٣م] لمدينة عكا من بقايا الصليبيين فى [١٧ جمادى الثانى سنة ٦٩٠هـ - ١٧ يونيه سنة ١٢٩١م] القضاء المبرم على جميع آثار تلك الغزوة التى استمرت قرابة القرنين من الزمان.

(١) البحر ٩.

لقد تعلمت الغزوة الاستعمارية الحديثة من سابقتها درساً خطيراً وخطراً؟ فجاءت معها بفكر حضارتها المنتصرة، جنباً إلى جنب مع أدوات الدمار الحربى التى اخترعتها تلك الحضارة، فبأدوات الدمار تفتتح الأرض، وتقبض على جهاز الدولة، وبالمغامرين والتجار ورءوس الأموال يتم نهب ثروات عالم الإسلام وامتصاص خيراته وإفقار بنييه. وبالقواعد العسكرية يتحول عالمنا إلى «هامش» يحقق الأمن لأوروبا الاستعمارية. وبالفكر التغريبي يتم أسر العقل العربى والمسلم، حتى ينسلخ عن طابعه الحضارى العربى الإسلامى المتميز، فيتحول. هو الآخر، إلى هامش للحضارة الأوروبية المنتصرة!

بل لقد رأى دهاقنة هذه الغزوة وسدنتها أن «التغريب» والنجاح فى سحق الشخصية القومية المتميزة للعرب والمسلمين. وتحويل أمتنا إلى هامش لحضارة الغرب، هو الضمان لتأبيد النهب الاقتصادى لبلادنا. ولبقاء هذه البلاد قواعد لأمن الغرب. حتى بعد زوال الشكل السافر والمسلح للاحتلال فبالتغريب يقع العرب والمسلمون فى «الأسر الاختيارى»! وتصبح «التبعية» للغرب هدفاً يسعى إليه التابعون!



ومنذ البدء كان الأعداء على وعى تام بأن «العربية» و«الإسلام» هما حصن هذه الأمة عبر تاريخها الطويل، وخلال كل الصراعات التى خاضتها فى ذلك التاريخ. فمنذ أن ظهر الإسلام عقد التاريخ لواء قيادة الشرق للأمة العربية. ومنذ ذلك



التاريخ كانت صحيحة: «والإسلاماء» هي أصدق الصيحات وأفعليها في تجميع الأمة ضد ما قرض عليها من مخاطر وداهم أوطانها من تحديات.. ومن هنا كان اتجاه سهام التغريب إلى «العربية» و«الإسلام».. ومن ثم كان إحدائق المخاطر، مخاطر التغريب بالأزهر، حصن «العربية» وقلعة «الإسلام».. وكان الدور الرائد والفريد الذي نهض به الأزهر في أخطر ميادين صراع أمتنا ضد الغزوة الاستعمارية الحديثة!

حقاً.. لقد أحكم الاستعمار قبضته على أجهزة الدولة، فصبغها بصبغته الإدارية بل ونجح في أن يجعل قيم حضارته الغربية المعيار والموجه ومصدر المشروعية في هذه الأجهزة.. ونفت فكريته التغريبية بواسطة «كُتَّاب الاستشراق» وأساتذة الاستشراق الذين صنعوا لجامعاتنا الحديثة المساحة الكبرى من «عقليتها».. وغدت القوانين المستمدة من فلسفة حضارته في التشريع هي السائدة والحاكمة في مؤسساتنا القضائية، بدلاً من «فقه المعاملات» الذي أبدعه فقهاؤنا العظام.. وتحولت مؤسساتنا الدستورية، ومعها دساتيرنا، إلى صورة باهتة لنظائرها في الغرب الاستعماري.. وامتدت آثار التغريب لتشمل «الرؤى» و«الأفكار» و«المعايير» في الأدب والفن، بل لقد استعرنا أدوات التعبير، كما استعرنا المذاهب الفكرية، وافتعلنا المشاكل حتى نجد في حياتنا الفكرية مكاناً للحلول التي ابتدعها الغرب لما اختصت به مجتمعاته من إشكالات.. وفي العلوم ومناهجها، وفي الفلسفة ومقولاتها سادت مناهج

التغريب الأحادية، والتي تعتمد «العقل» وحده، فاقتربنا من نهج الحضارة اليونانية، بقدر ما ابتعدنا عن وسطية الإسلام التي وازنت ما بين «العقل» و«النقل»، وأخت بين «الشريعة» و«الحكمة»، وزاملت بين كتاب الله المقروء - القرآن - وكتابه المنظور - الكون -، وغدت البيوت في مدننا، ولدى عليّة القوم ومتوسطيهم، وكذلك القيم السلوكية صورة لما هي عليه في أوطان الغزاة.. وأصبحت صحفنا السيارة، وأزيائنا المقبولة تقليدًا لنظائرها في الغرب.. وغادرت المرأة «الحريم المملوكي - العثماني»، لا لترجع إلى صورتها العربية الإسلامية فقيهة في الدين، مستقلة الذمة في المال، والرأي في الزواج، سكنًا وسندًا في تكوين الأسرة وبناء لبنة المجتمع الأساسية، مداوية للجرحى، ومشاركة في الجهاد... إلخ.. إلخ.. وإنما - غادرت «الحريم» القديم لتسلك درب المرأة الغربية، مازجة «الاسترجال» بالإغراق في استجلاب أدوات الزينة والشهوة على دربها الجديد.. ونشأت الأحزاب السياسية، فبازا النظريات والبرامج، بل و«اللوائح» وقواعد التنظيم - فضلاً عن المثل الملهمة - لدى الكثير منها - امتداد لترسانة الغرب الاستعماري في هذا الميدان.. وظهر الحديث عن حاجة التقدم إلى سيادة اللهجات العامية في الحديث والحوار، بل والكتاب والصحيفة، بدلاً من لغة القرآن:

هكذا.. وعلى هذا النحو، شهدت أرضنا طوفان التغريب، وامتدت أناره فلوئت بلونه عقول «الصفوة» و«النخبة» التي صنعت في جامعات الغرب، أو في جامعاتنا التي قامت على نمط

جامعات الغرب، اللهم إلا من عصم الله من آثار هذا الطوفان  
الطاغي الذي اقتحم ديارنا في ركاب الاستعمار الحديث.

## الأزهر

لكن الأزهر ريش في موقعه، متحصناً «بالعربية»  
و«الإسلام»، وذاتاً عنهما، ورافضاً كل ألوان التغريب، وممثلاً  
الاستغناء - ربما الوحيد - الذي رفض التغريب ونجا من  
تأثيراته، لأكثر من قرن، حتى ظهرت - لتزامله في رفض  
التغريب - التنظيمات الإسلامية التي شرعت تجاهد من أجل  
الإسلام السياسي والدولة الإسلامية.

وهنا.. من حق المرء، بل ومن واجبه أن يتساءل:

لماذا استطاع الاستعمار - دون كبير عناء - أن يمد طوفان  
التغريب إلى الحد الذي حاصره به الأزهر ومعاهده الدينية  
المعدودة على الأصابع، رغم ما للأزهر من تاريخ عريق، وما في  
«العربية» و«الإسلام» من طاقات نضالية متناقضة بالطبع مع  
فكرية التغريب. ولماذا لم تتسع الدائرة الرافضة للتغريب من  
حول أزهرنا العريق؟!

في اعتقادنا أن السبب الرئيسي في ضعف إمكانيات الأزهر  
المقاومة لتيار التغريب، كامن في أن الهجمة التغريبية قد  
داهمت الأزهر وهو في «لحظة ضعف».. وأنه قد خاض معركته  
هذه وهو أشبه ما يكون بمن «نزع سلاحه».. أو على الأقل  
سلاحه الأفل في مثل هذا الصراع!

لقد عاش الأزهر حياة مصر والعروبة والإسلام، كائنًا حيًا، يفعل في الأمة، وينفعل بها.. يقوى بقوتها، ويضعف بضعفها.. فلما كانت العصور الوسطى، وسيطرت السلطة العسكرية المملوكية الأعجمية على الدولة، دخلت حضارتنا دور الأغول، فتوقف الإبداع والخلق والاجتهاد في ميادين «العربية» و«الإسلام»، وبعد مرحلة «الجمع والتصنيف» المملوكية، انحدرنا إلى مرحلة «الشروح والحواشي والتهميشات» العثمانية، قُصِّعت فعالية أسلحة الأزهر عن النزال، وعن نزال فكرية التغريب بالذات، تلك التي جاءت مسلحة بثمرات إبداع حضارة منتصرة، ملكت العلم وتطبيقاته، وامتلكت الأرض وأحكمت قبضتها على رقاب المستضعفين..!

ولقد أسهم في زيادة ضعف الأزهر عن المقاومة ما أصابه به العثمانيون خلال القرون الثلاثة التي سبقت غزوة الاستعمار وهجمة التغريب..

■ فالسلطان العثماني سليم [٨٧٥ - ٩٢٦ هـ = ١٤٨٠ - ١٥٢٠ م] عندما فتح مصر [سنة ٩٢٣ هـ - ١٥١٧ م] نزف من عروقتها أزكى دمانها، وحملها معه إلى بلاده: لقد انتزع من مصر ألفًا وثمانمائة إنسان، فيهم أبرز الصناع والعلماء والمبدعين في مختلف الفنون والصناعات، وفيهم أيضًا قاضى القضاة وأبرز الفقهاء: لقد فرغ عقل مصر من أبرز حملته وصناعه فزادت خسارتها بفقدهم عن خسارتها في التحف والنفائس والمصنوعات والآثار التي اغتصبها هذا السلطان من المساجد والأضرحة والقصور، وحملتها له قوافل الجمال إلى الآستانة..

وكما تعطلت بمصر خمسون صناعة<sup>(١)</sup>، أصاب الضعف والعطب  
إمكانات الأزهر الشريف!

■ وبعد أن كان الأزهر يمد مصر - فضلاً عن غيرها -  
بالقضاة، أصبح قضاء مصر للأتراك منذ المحرم سنة ٩٢٩ هـ -  
نوفمبر سنة ١٥٢٢ م<sup>(٢)</sup>

■ وكانت المدارس، التي بنيت بمصر منذ عصر صلاح الدين  
الأيوبي [٥٣٢ - ٥٨٩ هـ = ١١٣٧ - ١١٩٣ م] قد غدت الامتداد  
المادى والفكرى للأزهر، يدرس فيها شيوخه، ويتخرج فيها  
العلماء على منهجه، فجاء العصر العثماني ليدمرها بمظالمه،  
حتى ليتحدث على مبارك باشا [١٢٣٩ - ١٣١١ هـ = ١٨٢٣ -  
١٨٩٣ م] عن ذلك فى [الخطط] فيقول: «لقد أهمل أمر المدارس،  
وامتدت أيدي الأطماع إلى أوقافها، وتصرف فيها النظر على  
خلاف شروط وقفها، وامتنع الصرف على المدرسين والطلبة  
والخدمة فأخذوا فى مفارقتها، وصار ذلك يزيد فى كل سنة عما  
قبلها، لكثرة الاضطرابات الحاصلة بالبلاد، حتى انقطع التدريس  
فيها بالكلية، وبيعت كتبها وانتهبت، ثم أخذت تتشعث وتتخرب..  
فامتدت أيدي الظلمة إلى بيع رخامها وأبوابها وشبابيكها، حتى  
صار بعض تلك المدارس الفخمة والمباني الجليلة.. زريبة أو حوشاً،  
أو غير ذلك. والله عاقبة الأمور»<sup>(٣)</sup>!

(١) أمين سامى باشا [تقويم النيل] ج ٢ ص ٦، ٧ - طبعة القاهرة سنة ١٩١٦ م

(٢) المصدر السابق، ج ٢ ص ٧.

(٣) على مبارك [الأعمال الكاملة] ج ٣ ص ٤٠٦، ٤٠٧ - دراسة وتحقيق د. محمد  
عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٨١ م.

■ ولقد انعكس «الفقر المادى والفكرى» الذى ميز الحقبة العثمانية، على الأزهر، فزادت غربته عن العلوم التى أبدعها السلف، والتى تأسست عليها صفحة ازدهار حضارتنا، ووقف التدريس فيه عند الكتب التى ألفها «علماء» العصر «المملوكى- العثمانى»، وهو العصر الذى توقف فيه الإبداع وأغلق فيه باب الاجتهاد.. بل واقتصرت التدريس، غالباً، على علوم الوسائل والأدوات.. حتى لقد غدت علوم وفنون مثل: المنطق والفلسفة والتاريخ والجغرافيا، غريبة، يرتاب فيها الكثير من الشيوخ، ويخشون ضررها على الإسلام!

وفى الحوار الذى يحكيه المؤرخ الجبرتى [١١٦٧ - ١٢٣٧هـ = ١٧٥٤ - ١٨٢٢م] والذى دار بين والى التركى أحمد باشا - [كور وزير] - وبين شيخ الأزهر الشيخ عبد الله الشبراوى [١٠٩٢ - ١١٧٠هـ = ١٦٨١ - ١٧٥٧م] تجسيد للحال الفكرية التى بلغها الأزهر [١١٦٢هـ - ١٧٤٩م] أى قبل نصف قرن من حملة بونابرت وبدء هجمة التغريب:

«الوالى التركى: المسموع عندنا بالديار الرومية- [التركية]- أن مصر منبع الفضائل والعلوم، وكنت فى غاية الشوق إلى المجيء إليها، فلما جئتها وجدتها- كما قيل -: «تسمع بالمعبدى خير من أن تراه»!

شيخ الأزهر: هى يا مولانا، كما سمعتم، معدن العلوم والمعارف.



الوالى: وأين هي؟ وأنتم أعظم علمائها، وقد سألتكم عن  
مطلوبى من العلوم فلم أجد عندكم منها شيئاً، وغاية تحصيلكم :  
الفقه، والمعقول، والوسائل، ونبذتم المقاصد!

شيخ الأزهر... غالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشيء من العلوم  
الرياضية إلا بقدر الحاجة إلى علم الفرائض والمواريث.

الوالى: وعلم الوقت كذلك من العلوم الشريفة، بل هو من شروط  
صحة العبادة، كالعلم بدخول الوقت، واستقبال القبلة، وأوقات  
الصوم والأهلة، وغير ذلك.

شيخ الأزهر: نعم.. معرفة ذلك من فروض الكفاية.. وهذه  
العلوم تحتاج إلى لوازم وشروط وآلات وصناعات وأمور ذوقية،  
كرقة الطبيعة، وحسن الوضع، والخط، والرسم والتشكيل، والأمور  
العطاردية. وأهل الأزهر بخلاف ذلك، غالبهم فقراء، وأخلاقاً  
مجتمعة من القرى والأفاق. فيندر فيهم القابلية لذلك...<sup>١٩</sup>

هكذا صنعت الحقبة العثمانية بالأزهر.. قلصت مجاله  
المادى، بتدهور المدارس التى مثلت هذا المجال، وأصابته بالفقر  
الفكرى، الذى كان سمة لهذه الحقبة فى كل المجالات وجميع  
الولايات.. وهكذا جاءت الهجمة التغريبية القوية لتجد الأزهر  
أشبه ما يكون بالفارس الذى يحمل سلاحاً تراكم عليه الصدأ  
وعلاه الغبار!

(١٩) الجبرنى [عجائب الآثار] ج ٢ ص ٨٢ - ٨٥ - طبعة لجنة البيان العربى - القاهرة  
سنة ١٩٥٩م

لكن الأزهر - مع ذلك - لم يستسلم، وما كان بالإمكان أن يستسلم لتيار التغريب.. لقد حصن موقعه، فنجبا، لأكثر من قرن ونصف، من تأثيرات التغريب، ومثل وسط المجتمع الذى مال إلى التغريب الاستثناء الداعى إلى أن تعود الأمة إلى ذاتها وهويتها الحضارية المتميزة، والتى بدونها لن يتحقق لها الاستقلال الحقيقى عن التبعية للاستعمار!

والأمر الذى يثير الدهشة والإعجاب معا أن الأزهر فى معركته هذه التى قاوم بها التغريب قد استخدم كل أسلحته، السلبى منها والإيجابى على حد سواء!

### المقاومة بـ «الحافظة»:

فى صراع أمتنا ضد التحديات التى فرضها عليها الأعداء تجارب تعز على الفهم والتبرير من قبل الذين لا يفقهون الحدة والعنف والمخاطر التى مثلتها هذه التحديات.. ففى الجزائر، مثلاً، وعندما مارس الاستعمار الفرنسى قهر الشخصىة القومية للشعب الجزائرى ومسح الهوية الحضارية للأمة، بمحاولته «فرنستها»، وسلخها من العروبة وانتزاعها من الإسلام الحق.. حارب الجزائريون دفاعاً عن ذاتهم الحضارية وهويتهم القومية بكل ما أتاح لهم ظروفهم الصعبة من أسلحة وإمكانيات.. وعندما أصبح «التعليم» يعنى «الفرنسة»، والانسلاخ عن الهوية المتميزة عن المستعمرين، أصبحت «الأمية» سلاحاً احتمى به العامة واعتصم به الجمهور ضد الذويان فى حضارة الاستعمار! فالذين ظلوا على «أمتهم» ظلوا عرباً مسلمين، حتى قبض الله

للشعب قيادته العربية المسلمة المناضلة، ممثلة في [جمعية العلماء المسلمين] بقيادة الشيخ عبد الحميد بن باديس [١٣٥٩هـ - ١٣٨٧هـ = ١٩٤٠م] فحاضوا المعركة المقدسة التي أعادت الجزائر إلى أحضان العروبة والإسلام!

وفي صراع أمتنا ضد التغريب صنع القطاع الأكبر من علماء الأزهر شيئاً شبيهاً، ففي مواجهة الفكرية التي لا تعترف بغير «العقل» - بمفهومه اليوناني - والتي تتبنى نهج الحضارة اليونانية، التي لم تعرف عقلانيتهما الوحي والنصوص والمأثورات، تحصن جمهور علماء الأزهر - والأزهر كمؤسسة تعليمية - «بالنقل والنصوص والمأثورات»!

وكانت الحضارة الغازية قد أدهشت «الصفوة» وبهرت «النخبة»، ورجحت كفتها كل الرجحان عندما عقدت المقارنة بينها وبين الفكرية التي سادت في العصر «المملوكي» - العثماني... ورفضاً لهذه الحضارة الغازية استمسك الأزهر كمؤسسة والجمهور الأعظم من علمائه بهذه الفكرية التي سادت في تلك القرون! لقد اعتصموا «بالقديم»، على علاقته، خوفاً من «الجديد - الغريب»، وانطوا على «الذات»، بما حملت من أمراض، حذراً من أن يقتلعها «الجديد الوافد»!

ولقد كان لهذا الموقف «المحافظ» على القديم، بل والمتسم «بالجمود» في محافظته هذه، منطقته الذي أفرزته ظروف الصراع.. فالمحافظة على «الذات»، بما فيها من سلبيات، خير من فقدانها بالكلية. وبقاء «القديم»، على علاقته، أولى من سيادة «الجديد التغريبي» الذي يهدد بسحق الشخصية القومية

والهوية الحضارية للأمة.. وفي الحالة الأولى - المحافظة والجمود - تبقى «الذات»، وتبقى إمكانية تجديدها وتطويرها.. أما في الحالة الثانية - التغريب - فإن الخطر يحدق بمستقبل الأمة الحضاري، ويهدد ذاتيتها بالذوبان!

كان ذلك منطق أهل «المحافظة» على القديم، والاعتصام بهذه المحافظة إلى حد «الجمود»، وكان ذلك موقفهم تجاه طوفان «التغريب»، وهو منطق وموقف لا يخلو من الوجهة، ولا تنعدم منه الإيجابيات، خاصة إذا رأيناه في إطار عصره، وعلى ضوء الخطر الذي تصدى له، آخذين في الاعتبار المقارنة بين أهله، الذين ظل انتمأؤهم للأمة واضحاً وأصيلاً، وبين الذين تغربوا، فأصبحوا - كما قال جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ = ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م] - : «مأفد لتطرق الأعداء.. وطلائع لجيوش الغالبين، يمهّدون لهم السبيل، ويفتحون الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم»<sup>(١)</sup>.

### والمقاومة بـ «التجديد»:

لكن بعضاً من نابهي علماء الأزهر رفضوا موقف الجمهور، ورأوا المخاطر الكامنة في مقاومة التغريب بالمحافظة والجمود، فشرعوا ينبهون قومهم إلى ضرورة «التجديد»، باعتباره الطريق الأكثر أمناً والسبيل الأفضل في الحفاظ على ذاتية الأمة الحضارية والنجاة بمستقبلها من الذوبان في حضارة الغزاة..

(١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ١٩٧ - دراسة وتحقيق د. محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م.

لقد أبصروا أن المحافظة والجمود والانكفاء على فكرية الحقبة المملوكية العثمانية قد تضمن نجاة المحافظين من الذوبان والتغريب، لكنها لن تضمن نجاة الأمة من هذا الخطر الداهم، لأن مذهب المحافظة والجمود لا يقدم «البديل» الذي ينافس ما يقدمه المتغربون، بل إن ما لدى المحافظين لا يعدو فكرية عفا عليها الدهر، ولا علاقة لها بجوهر فكر الإسلام وإبداع المسلمين في عصر ازدهار الحضارى.

أبصر أعلام التيار التجديدي هذه الحقيقة، وطرحوا منطقهم الجديد:

■ إنك إذا لم تجدد فقه المعاملات وتطوره، بالاجتهاد، فستدفع الناس - تحت إلحاح الضرورة، والافتقار إلى البديل - ستدفعهم لتبني القوانين الوضعية، على ما فيها من خلاف للشرعية ومخالفة للدين!

■ وأنت إذا لم تجدد أساليب الكتابة والتعبير وتطور «العربية» كي تستوعب فكر العصر وعلومه، فإنك تفتح الباب واسعاً لدعاة الكتابة باللاتينية وتدرّس العلوم بلغات «الفرنجة»، وتبني مذاهب الغرب وأساليب أهلها في التعبير!

■ وإذا نحن لم نجدد فكرنا الإسلامى، بتخليصه من سداجة العصور المظلمة وخرافاتهما، وبإحياء العقلانية الإسلامية المتميزة وتطويرها، غلبتنا على عقول الناشئة، واستولت عليها رغماً عنا فلسفات الغرب اللادينية!

فبالتجديد نستطيع أن نجعل من فكرنا الإسلامى المنطلق والمصدر والمكون الأول لنمط حضارى متميز، نتقدم به إلى الأمة باعتبارها السبيل لنهضتها الحديثة وبعثها القومى الجديد، وبذلك يتقدم الأزهر - باسم الإسلام والمسلمين - بالبديل المنافس، عن جدارة وياقنadar، لفكرية التغريب التى تبشر بحضارة الغرب سبيلاً أوحده للنهضة والتقدم.. أما المحافظة والجمود، فإنهما وإن أنقذا زوات المحافظين من التغريب، إلا أنهما - لعجزهما عن تقديم البديل الصالح والقادر على منافسة الحضارة الغربية المنتصرة - وفى المدى الطويل - يمثلان أكبر خدمة تقدم لدعاة التغريب!.. فالمحافظة والجمود سيدعان الأمة فريسة سهلة، سرعان ما تقع فى شرك المتغربين!

هكذا فكر وبشر المجددون من نابهى علماء الأزهر الشريف، وعلى هذا الدرب التجديدى تواصلت حلقات أعلام التجديد. أولئك الذين خالفوا وصارعوا تيار «المحافظة» وتيار «التغريب» كليهما..

الشيخ حسن العطار [١١٨٠ - ١٢٥٠ هـ = ١٧٦٦ - ١٨٣٥ م]:

أما طليعة هذا التيار التجديدى فهو حسن العطار.. ذلك الشيخ الذى جاب أقاليم الدولة العثمانية، فاطلع على مواطن ضعفها، ثم اقترب من علماء الحملة الفرنسية على مصر، يعلمهم العربية ويقرأ كتبهم ويطلع على تجاربهم العلمية ويتأمل مناهجهم فى التفكير ووسائلهم فى التعبير.. ويلمس أسباب قوتهم..

وبعد أن تأمل الشيخ العطار مواطن ضعفنا وأسبابه، ومظاهر قوة الغرب وعواملها، أدرك أن انقطاع أمتنا عن علوم الحضارة



العربية الإسلامية الحقيقية، والوقوف عند علوم الوسائل والأدوات، وإهمال علوم المقاصد والغايات، هو الذى يحول بين الأمة وبين امتلاك سلطان العلم، ذلك الذى امتلكته أوروبا فتسلحت به وجاءت لتستعبد يقوته وجبروته أمة الإسلام.. فالتصدى لأوروبا لن يكون بالمحافظة والجمود، وإنما بالتجديد والتغيير. ومن هنا كانت صحيحة العطار: «إن بلادنا لابد أن تتغير أحوالها، ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها»!

لقد قرأ الرجل فى العلوم والقنون، التى كان معاصروه يرونها غريبة عن الأزهر، بل وخطرة على الدين.. ووجه طلابه إلى دراسة هذه العلوم<sup>(١)</sup>. ثم شرع يحدث شيوخ عصره عن أصالة هذه العلوم فى حضارتنا وتراثنا، وعن إخائها لعلوم الشريعة، فقال: «إن من تأمل فى علمائنا السابقين يجد أنهم كانوا - مع رسوخ قدمهم فى العلوم الشرعية - لهم اطلاع عظيم على غيرها من العلوم والكتب التى ألفت فيها، حتى كتب المخالفين فى العقائد. ثم هم - مع ذلك - ما أدخلوا فى تثقيف ألسنتهم برقائق الأشعار ولطائف المحاضرات...».

ثم يمضى العطار ليقارن بين حال هذا السلف الصالح وبين حال الخلف غير الصالح، فى عصره، أولئك الذين وقفوا عند «الثقل»، وعجزوا عن «التجديد والإبداع والاجتهاد»، وكان

(١) انظر [الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى] ج ١ ص ٥٢٦ - دراسة وتحقيق د. محمد عمارة - طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م - ومحمد عبد الغنى حسن [حسن العطار] ص ٤٢، ٤٣، ٧٠، ٧٥ - طبعة دار المعارف - سلسلة نوايغ الفكر العربى - القاهرة سنة ١٩٦٨م

وقوفهم عند مؤلفات عصور الانحطاط دون عصور الازدهار والإبداع.. فيقول: «ومن نظر في ذلك، وفيما انتهى إليه الحال في زمان وقعنا فيه علم أنا منهم بمنزلة عامة أهل زمانهم»<sup>(١)</sup>

فإن قصارى أمرنا النقل عنهم بدون أن نخترع شيئاً من عندنا. وقد اقتصرنا على النظر في كتب محصورة ألفها المتأخرون المستمدون من كلامهم، نكرها طول عمرنا، ولا تطمح نفوسنا إلى النظر في غيرها، حتى كأن العلم فيها»<sup>(٢)</sup>.

وفيما يتعلق بتجديد سبل التعبير، تخفف العطار من السجع والمحسنات اللفظية.. وأدخل «فن الكتابة» في دروسه بالأزهر، ولفت أنظار طلابه إلى الأمهات في فن الشعر العربي - كالأغاني للأصفهاني - وسلك في تحقيق النصوص القديمة منهجاً علمياً في توثيق هذه النصوص وتقويم مادتها. ووجه التابهين من تلاميذه الشيوخ إلى تدريس الأشعار والأخبار، وما يطور ويجدد وسائل البيان<sup>(٣)</sup>.

ولقد انعكس هذا النهج التجديدي للشيخ العطار في الميادين التي اهتم بالكتابة والتأليف فيها، فوجدنا له في الحكمة والمنطق والكلام والعلوم البحتة، مثل الهندسة والطب والتشريع والفلك تحواً من ثلاثة عشر كتاباً<sup>(٤)</sup>.

(١) انظر [حاشية العطار على جمع الجوامع]، ج ٢، ص ٢٢٥، ٢٢٦ - طبعة القاهرة سنة ١٣١٦هـ.

(٢) [حسن العطار] ص ٦٦، ٧١، ٧٢، ٨٠ المرجع السابق ص ٨٤، ٨٥ - وانظر كذلك الفيكونت فيليب دي طوازي.

(٣) [تاريخ الصحافة العربية] ج ١ ص ١٢٩ - طبعة بيروت سنة ١٩٩٣م.

الشيخ رفاعة الطهطاوى [١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ = ١٨٠١ - ١٨٧٣ م]

وثانى أبرز هؤلاء المجددين، هو الشيخ رفاعة، تلميذ الشيخ  
العطار!

لقد تخرج الطهطاوى فى الأزهر سنة ١٨٢٢ م، واشتغل  
بالتدريس فيه عامين، وبالعظ فى الجيش عامين.. ثم سافر إلى  
باريس خمس سنوات ليؤم طلاب البعثة العلمية فى أمور الدين..  
لكنه تعلم هناك الفرنسية وعلومها، ورصد مشاهداته بين  
ظهرانى أهلها.. فلما عاد إلى الوطن سنة ١٨٣١ م أصبح إماماً  
للحركة الفكرية والعملية التعليمية على حد سواء!

والبعض يتوهم - من فرط إعجاب الطهطاوى بعلوم  
الحضارة الأوربية- أن الرجل كان الطليعة لدعوة «التغريب»،  
على حين نراه واحداً من أبرز دعاة التجديد لحضارتنا العربية  
الإسلامية!

■ لقد وعى الطهطاوى تراث أمته، وعرف أن العلماء فى تراثنا  
الحضارى لم يكونوا هم الفقهاء فقط.. ولقد وجد ذلك فى باريس.  
فلما وجد الأزهر قد خاصم علوم الحضارة، ووقف عند علوم  
الشريعة، انتقد هذا الواقع، لا من منطلق «المتغريب» وبمنطقه، وإنما  
من منطلق من يضرب المثل ويستمد العظة والعبرة من نهج معاصر  
بهرت ثمراته معاصريه!.. قال الطهطاوى لقارئه: «.. ولا تتوهم أن  
علماء الفرنسيس هم القسوس.. فاسم العلماء يطلق على من له  
معرفة فى العلوم العقلية.. وسيظهر لك فضل هؤلاء النصارى فى

العلوم عمن عداهم، وبذلك تعرف خلو بلادنا عن كثير منها، وأن الأزهر، وجامع بنى أمية بالشام، وجامع الزيتونة بتونس، وجامع القرويين بفاس، ومدارس بخارى، ونحو ذلك، كلها زاخرة بالعلوم النقلية، وبعض العلوم العقلية. كالمنطق ونحوه من العلوم الآلية»<sup>(١)</sup>

■ أما علوم المقاصد والغايات، والتي خاصمها الأزهر يومئذ، وأساء بها الظن، وخاصة عندما رآها متداولة بين يدي الأوروبيين، فإن الطهطاوى يدعو إلى تعلمها، فهي علوم إسلامية الأصل، إنسانية الانتماء، وهي علوم «التمدن المدنى»، ولن تضار الشريعة ولا التمايز الحضارى إذا جاورت هذه العلوم علوم الشريعة فى مناهج الأزهر الشريف.. فهو يدعو طلاب الأزهر وشيوخه إلى أن يضيفوا إلى علوم الشريعة «معرفة سائر المعارف البشرية المدنية، التى لها مدخل فى تقدم الوطنية.. فهذه العلوم الحكيمة العملية»<sup>(٢)</sup>، التى يظهر الآن أنها أجنبية.. هى علوم إسلامية نقلها الأجانب إلى لغاتهم من الكتب العربية، ولم تزل كتبها إلى الآن فى خزائن ملوك الإسلام كالذخيرة»<sup>(٣)</sup>

■ بل إن الطهطاوى - وهو الذى نهض بالمسئوليات الرائدة فى «التعليم المدنى» على عهدى محمد على باشا [١١٨٤ - ١٢٦٥ هـ = ١٧٧٠ - ١٨٤٩ م] والخديوى إسماعيل

(١) [الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى] ج ٢ ص ١٦١

(٢) أى المغلة بحكمة وعلة، وخاصة بالتطبيقات.. ويقابلها علوم الدين، المتأخوذة من الوحي، والتى تنعبد بها، نظراً وتطبيقاً

(٣) [الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى] ج ١ ص ٥٢٤.

[١٢٤٥ - ١٣١٢هـ = ١٨٣٠ - ١٨٩٥م] - يحدثنا عن أن امتزاج علوم الحضارة بعلوم الشريعة في الأزهر هو وحده الكفيل بتحقيق الأمال: «قمدار سلوك جادة الرشاد والإصابة منوط بجماعة الأزهر، التي ينبغي أن تضيف إلى ما يجب عليها من نشر السنة الشريفة، ورفع أعلام الشريعة المنيفة، معرفة سائر المعارف البشرية»<sup>(١)</sup>.

واليوم.. وبعد نحو قرنين من كتابة الطهطاوى لكلماته هذه، نتساءل: ترى لو وضعت أفكار الرجل في التطبيق، أكان هناك مجال لما حدث من ازدواجية في مؤسسات التعليم، أتاحت للتغريب نصيب الأسد في هذه المؤسسات؟

■ وعندما استجابت الدولة لتأثيرات التغريب الاستعمارية، ولم يسعفها تيار المحافظة بالاجتهاد الفقهي الذي يجعل الشريعة تلبي احتياجات العصر، فطلبت من الطهطاوى أن يترجم القانون الفرنسي.. من باب العلم بالفكر القانوني الأوربي، أولاً.. ثم تصاعد النفوذ التغريبي فجعل هذا القانون الفرنسي شريعة للمحاكم المختلطة.. كتب الرجل ليذكر قومه بتراثهم الإسلامي في فقه المعاملات، وليدعو إلى تطويره بالاجتهاد كي يلبي احتياجات العصر، فلا تقع مؤسستنا القانونية والقضائية في أسر التغريب.. كتب يقول: «... والمعاملات الفقهية، لو انتظمت، وجرى عليها العمل، لما أخلت بالحقوق، بتوفيقها على الوقت والحال، مما هو سهل العمل على من وفقه الله لذلك من ولاة

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٥٢٢.

الأمر المستيقظين! ذلك أن من أمعن النظر في كتب الفقه الإسلامية ظهر له أنها لا تخلو من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية، حيث بوبوا للمعاملات الشرعية أبواباً مستوعبة للأحكام التجارية، كالشركة، والمضاربة، والقرض، والمخابرة، والعارية، والصلح، وغير ذلك...»<sup>(١)</sup>

■ وكما كان الطهطاوى صريحاً في دعوته للاستفادة من «التمدن المدني العملي» في الحضارة الأوربية، فلقد كان صريحاً كذلك في دعوته للحفاظ على تمايزنا «الفكري والثقافي».. فالطابع المادي في الحضارة الأوربية، والذي جعل عقلانياتها منكراً للوحي والشرع، جانب خطر، يرفضه الطهطاوى، ويحذر من الوقوع في شركه وحبائله.. وهو يحكى كيف أن للأوربيين في العلوم الفلسفية «حشوات ضلالية»، مخالفة لسانر الكتب السماوية، ويقيمون عليها أدلة يعسر على الإنسان ردها!.. إن كتب الفلسفة بأسرها محشوة بكثير من البدع.. وليس لنا أن نعتمد على ما يحسنه العقل أو يقبحه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه.. فتحسين النواميس الطبيعية لا يعتد به إلا إذا قرره الشرع...»<sup>(٢)</sup>

«فالعقل» الذي يتحفظ الطهطاوى، هنا، على تحسينه أو تقبيحه للأشياء- ما لم يؤيد الشرع حسننها أو قبحها- هو «العقل» في الحضارة الأوربية، المنكر «للتقاليد»، والذي لا يقيم من «الوحي» إطاراً يتحرك فيه.. أما «العقل» في حضارتنا، ذلك الذي زامل

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٣٦٩

(٢) المصدر السابق، ج ١ ص ١١٤، ١١٥



«النقل» وتآخى معه في الهداية للإنسان، بالتوازن الذي أثمره إخاؤهما، فهو مما تتميز به حضارتنا وتمتاز. ولستنا مدعويين من قبل الطهطاوى، والنهضة التي كان علماً عليها. إلى التخلي عن هذا الذى يميزنا حضاريًا عن الأوربيين!

الإمام محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥م]

أما الإمام محمد عبده فلقد كان أبرز أعلام هذا التيار التجديدي، وأعظم من تكونت للتجديد من حوله مدرسة فى تاريخنا الحديث.. لقد نضج عقل الإمام ومصر رازحة تحت الاحتلال الإنجليزي.. ومن آفات الهزيمة تقليد المهزومين للمنتصر تقليدًا أعمى، وأكثره ما يكون فى الشكليات والسلبيات.. الأمر الذى زاد من مخاطر التغريب.. وعلى الجانب الآخر بدا عجز المحافظة والجمود فى الصراع ضد المتغربين، خصوصًا مع تزكية السلطة الاستعمارية لتيار التغريب.. وأمام هذا الاستقطاب الذى جعل الأمة فريقين، المتغربين، وأهل الجمود، أعلن الأستاذ الإمام رفضه لكلا الموقفين، وبشر بالموقف الثالث الداعى إلى تجديد «دنيا» الأمة عن طريق تجديد «دينها»، بتنقية أصوله وجواهره من غبار عصور الانحطاط.. ولقد حدثنا عن هذا الموقف الثالث، الداعى لتحرير العقل الإسلامى كي ينهض بأمة ويبعث حاضرها ويبنى مستقبلها، انطلاقًا من الأصول وعصور الازدهار، وبالتجاوز لمرحلة الجمود والانحطاط.. حدثنا عن هذا الموقف فقال: «لقد نشأت كما نشأ كل واحد من الجمهور الأعظم من الطبقة الوسطى من سكان مصر، ودخلت فيما فيه يدخلون،

ثم لم ألبث بعد قطعة من الزمن أن سئمت الاستمرار على ما  
يألفون، واندفعت إلى طلب شيء مما لا يعرفون، فعثرت على ما  
لم يكونوا يعثرون عليه، وناديت بأحسن ما وجدت ودعوت إليه،  
وارتفع صوتي بالدعوة إلى:

١- تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف  
الأمّة، قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه إلى  
ينابيعها الأولى، واعتباره من ضمن موازين العقل البشري.. فهو  
صديق للعلم، باعث على البحث في أسرار الكون، يدعو إلى احترام  
الحقائق الثابتة، ويطالب بالتعويل عليها في أدب النفس  
وإصلاح العمل.

٢- إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير..

٣- التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما  
للشعب من حق العدالة على الحكومة..

ولقد خالفت في الدعوة إلى ذلك رأي الفئتين العظيمتين  
اللتين يتركب منهما جسم الأمّة طلاب علوم الدين ومن على  
شاكرتهم، وطلاب فنون العصر ومن هو في ناحيتهم<sup>(١)</sup>.

وعلى حين كان تيار «المحافظة» يرفض التجديد والتغيير في  
علوم الأزهر وطرائق التدريس فيه.. وتيار التغريب يدعو لأن نبدأ  
من حيث انتهت أوربا، لنصبح أوروبيين، نفكر كما يفكرون ونحيا

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٢ ص ٣١٨، ٣١٩ - دراسة وتحقيق،  
د. محمد عمارة - طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م

كما يحيون.. دعا الأستاذ الإمام إلى الموقف الثالث، الرافض لدعوتى الجحود والتغريب على حد سواء..

■ فهو ينتقد مناهج التعليم فى المدارس الأميرية.. وفى المدارس الأجنبية.. وأيضاً ينتقد مناهج الأزهر الشريف<sup>(١)</sup>..

■ وهو قد علق الآمال فى الإصلاح على تجديد المؤسسات الدينية الكبرى الثلاث. الأزهر، والقضاء الشرعى، والأوقاف.. وتحدث عن أن إصلاح الأزهر وتجديده هو طوق النجاة له من الخراب<sup>(٢)</sup>..

■ وانتقد «التقليد»، وهاجم «سلفية البداوة النصوصية»، ومجد العقلانية الإسلامية التى جعلت للعقل أعظم السلطان حتى فى ميدان النصوص والمأثورات.. فالذين «يقفون عند ما يفهم من لفظ الوارد، دون التفات إلى ما تقتضيه الأصول التى قام عليها الدين.. هم أضيق أفقاً من المقلدين، وليسوا للعلم أولياء، ولا للمدنية أحياء»<sup>(٣)</sup>. «والعقل هو جوهر إنسانية الإنسان.. وهو أفضل القوى الإنسانية على الحقيقة»<sup>(٤)</sup>. «والقرآن - وهو وحده المعجز الخارق - قد دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم.. فهو معجزة عرضت على العقل، وعرفته القاضى فيها، وأطلقت له حق النظر فى أنحائها، ونشر ما انطوى فى أثنائها.. فالإسلام لا

(١) المصدر السابق، ج ٣، ص ١١٠ - ١١٢

(٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٧٧

(٣) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣١٤

(٤) المصدر السابق، ج ٥، ص ٤٢٨، ج ٣، ص ٢٨٩

يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي، والفكر الإنساني الذي يجري على نظامه الفطري.. والمرء لا يكون مؤمناً إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به.. فمن ربي على التسليم بغير عقل، والعمل، ولو صالحاً، بغير فقه، فهو غير مؤمن، لأنه ليس القصد من الإيمان أن يذلل الإنسان للخير، كما يذلل الحيوان. بل القصد منه أن يرتقى عقله وتنزكي نفسه بالعلم بالله والعرفان في دينه. فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضي لله، ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة ضررته في دينه ودينياه<sup>(١)</sup>. وليس هناك أدنى خلاف بين الدين والعلم، فقوانين الكون - التي هي موضوع البحث العلمي - هي «سنن الله في الأمم والأكوان» وهي ثابتة لا تتبدل.. ومهما بحث الناظر وفكر، وكشف وقرر، وأتى لنا بأحكام تلك السنن، فهو يجري مع طبيعة الدين، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه، ولا تنفر منه<sup>(٢)</sup>.

■ وإذا كان تيار «المحافظة»، الجامد عند فكرية العصر «المملوكي - العثماني» قد عجز عن تقديم البديل الذي تنهض به الأمة.. على حين يدعو تيار «التغريب» لأن نبدأ من حيث انتهت أوربا.. فإن الأستاذ الإمام يدعو إلى تأسيس « النهضة » على « الدين » «فهذه سبيل لمريد الإصلاح في المسلمين لا مندوحة عنها، فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين يحوجه إلى إنشاء بناء جديد، ليس عنده من مواده شيء،

(١) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٥٩، ٢٧٩ - ٢٨١

(٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ٥٠٢، ٢٨٤.

ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدًا. وإذا كان الدين كافيًا تهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله من الثقة فيه ما ليس لهم في غيره، وهو حاضر لديهم، والعناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا لإمام لهم به، فلم العدول عنه إلى غيره!!»<sup>(١)</sup>.

وتأسيس النهضة على الدين لا يعنى الوقوف عند حدود علوم الشريعة، لأن كل العلوم الأخرى هي إسلامية بمقدار ضرورتها لأنها من أمة الإسلام وتحريرها وتطوير حياتها وتعمير مجتمعاتها. فالنهضة الإسلامية، وسباق الأوربيين وسبقهم يتطلب من ولاة أمور المسلمين تجديد الدين والدنيا معًا... ولو رزق الله المسلمين حاكمًا يعرف دينه، ويأخذهم بأحكامه، لرأيتهم قد نهضوا، والقرآن الكريم في إحدى اليدين، وما قرر الأولون وما اكتشف الآخرون في اليد الأخرى، ذلك لأخريتهم، وهذا لدنياهم، ولساروا يزاحمون الأوربيين فيزحمونهم!»<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

تلك لمحات من قصة الأزهر مع «التغريب»، الذي كان ولا يزال الخطر الأكبر الذي تهدد ويتهدد أمتنا، منذ بدء الغزوة الاستعمارية الحديثة، قبل قرنين من الزمان..

إنها صفحة مشرقة في تاريخ الأزهر، يزهبها على المؤسسات التي سقطت - كليًا أو جزئيًا - في براثن التغريب..

(١) المصدر السابق، ج ٢ ص ٢٣١.

(٢) المصدر السابق، ج ٣ ص ٢٥١، ٢٥٢.

فلقد كان للأزهر في هذا الميدان شرف الرفض والمقاومة، شارك في ذلك «المحافظون» من أبنائه «والمجددون»!

وإذا كانت قصة الصراع بين الأزهر وبين التغريب، والتي هي، في الحقيقة، قصة صراع حضارتنا المتميزة بالوسطية - والتي وازنت بين «الدين» و«الدنيا» بين «الحكمة» و«الشريعة» بين «العقل» و«النقل»، بين «المادية» و«الإيمان»، بين «الفرد» و«المجموع»، بين «السلم» و«الحرب»، بين «الشك» و«اليقين» - هي قصة صراع حضارتنا هذه ضد حضارة المادة والعنف والنفعية وتنازع البقاء، إذا كانت هذه القصة مليئة بالدروس والعبر والعظات الصالحة للاستلها، فإن أولى المؤسسات باستلهاهم دروسها وعبرها وعظاتها هو الأزهر الشريف.. فكثيرون يريدون أن تلمن قلوبهم إلى أن ما أصاب الأزهر من «تطویر» لن يوقعه في شرك «التغريب»، الذي تفرد بشرف مقاومته والاستعصاء عليه لأكثر من قرن ونصف من الزمان:

فإذا كان «التجديد» وارداً ومطلوباً.. فهو، بالقطع، غير «التغريب».. وشتان بين صقل الذات، بتجديد الأصول وتطویرها، وبين مسح الذات، عندما تتجاوز الثوابت والمميزات!



## وبعد..

فلا نحسب أن ثمة شكاً في أن أمة مثل أمتنا لم يعد كافياً لها، وهي تخوض معركة تحررها من بقايا الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة.. لم يعد كافياً لها، ولا محققاً لأهدافها.. أن تقف عند حدود..

■ «الاستقلال السياسي».. وما يرمز له من «علم» و«تشيد»..!

■ «والاستقلال الاقتصادي».. وخاصة إذا كان يعنى: «التنمية على النمط الغربى، والمرتبطة به».. لأنها ستكون، عندئذ، «تنمية للتبعية»، تفقد شبهها بالاستقلال، بل وتناقض المعنى الحقيقى للاستقلال..!

ولا بد من أن تضيف أمتنا إلى شعاراتها، المعبرة عن أهداف معركتها ضد الاستعمار، شعار:

■ «الاستقلال الحضارى».. لأنه هو الذى يعطى لشعارى: «الاستقلال السياسى» و«الاستقلال الاقتصادى» مضمونهما الحقيقى والصادق.. والمحقق لما وراء تحقيقهما من غايات وأهداف.. كما أنه هو الضامن لرسوخ الاستقلال الوطنى والقومى فى وجه محاولات التسلل والاحتواء التى تعددت سيلها

وخفيت أساليبها على الذين لا يجعلون من شعار «الاستقلال الحضارى» الإطار والمعيار لكل الشعارات والأهداف التى تسعى الأمة لتحقيقها فى معركتها ضد الاستعمار!..



وعلىنا أن نتذكر، ونعى دروس التاريخ.. تاريخ صراع منطقتنا وأمتنا ضد موجات الغزو الاستعماري التى اقتحمت علينا ديارنا عبر تاريخ طويل..

■ فعندما فتح العرب مصر، بقيادة عمرو بن العاص [٥٠ق. هـ - ٤٣هـ = ٥٧٤ - ٦٦٤م] لم تكن هزيمة الجيش البيزنطى وجلاء حامياته عن مصر بكافية لتحقيق «الاستقلال الحقيقى» لمصر عن البيزنطيين.. لأن مذهبهم الدينى - الملكانى - كان قد «احتل» مؤسسات الفكر والدين فى البلاد، واقتلع مذهب الشعب المعبر عن فكرته و«أيديولوجيته» - المذهب اليعقوبى - وطارده إلى الصحراء.. ومن هنا كانت إعادة عمرو بن العاص للبطرک القبطى بنيامين [٣٩هـ - ٦٥٩م] إلى مركز التوجيه الفكرى، وإعادة كنائس مصر ومؤسساتها الفكرية إلى دينها ومذهبها وفكرتها.. كان هذا الإنجاز والتحول الفكرى والحضارى هو المعبد والمعبر عن أن مصر قد تحررت، حقيقة، من احتلال البيزنطيين!..

■ وعندما انتصرت أمتنا على فلول فرسان الإقطاع الصليبيين [٦٩٠ هـ - ١٢٩١م] لم تواجه بموقف مماثل.. فلقد

كانت الغزوة الصليبية هجمة برابرة لا يملكون سوى العنف والدمار.. ومن ثم فلم يخلفوا - عندما جلت جيوشهم عن بلادنا- أية تأثيرات فكرية يمكن أن تمثل قيوداً تشد عقل أمتنا إلى ركابهم، فتنقص من حقيقة الاستقلال الذى تحقق بهذا الجلاء..

■ أما مع الغزوة الاستعمارية الحديثة، والتى تعالج أمتنا معارك التخلص من آثارها.. فإن الأمر أكثر خطراً، وأشد تعقيداً.. فلقد جاءت هذه الغزوة بحضارة منتصرة، انتزع بريقها إعجاب فريق من صفوة مفكرينا، واستهوى «أسلوب عيشها» قلوب قطاع عريض من أمتنا.. فكان أن أصبح «التغريب» جيشاً استعمارياً آخر لا بد من صراعه إذا نحن شئنا تحقيق المعنى الكامل للاستقلال..

ففى «العقل».. وفى «الوجدان».. وفى «المؤسسات الفكرية والتعليمية والقانونية».. وفى «النادى، والصحيفة، والكتاب، والإذاعات المسموعة والمرئية، ودور المسرح والسينما.. إلخ.. إلخ».. هناك مهام ومهام للذين يدركون أن استقلالنا الحقيقى، وتحررنا الكامل من جميع الآثار الضارة للغزوة الاستعمارية الحديثة لن يتحقق إلا باستقلالنا الحضارى، الذى تعود به أمتنا العربية الإسلامية لتحتل مكانها الطبيعى واللائق فى منتدى الأمم العريقة، صاحبة الحضارات الغنية والتميزة.. ومن ثم تسهم فى ثراء الفكر الإنسانى من جديد.. مواصلة بذلك مسيرة أسلافها العظام..

وبقدر عظم المهمة.. يجب تحقيق أكبر قدر من وضوح الرؤية  
«للغايات».. «وللوسائل والسبل» الكافلة تحقيق هذه «الغايات»..  
إن فتح النوافذ العقلية على كل المواريت الحضارية هو  
السييل إلى تلافى مخاطر الذبول والموات..

وان التمييز بين ما هو «ضرورى - نافع» فى دعم ذاتيتنا  
الحضارية المتميزة ومشروعنا الحضارى الخاص، وبين ما هو  
«ضار» ماسخ لذاتيتنا ومشوه لتمييزنا وناسخ لاستقلالنا.. إن  
هذا التمييز هو القضية الأعقد، وهو الجهاد الأكبر فى ميدان  
التفاعل بين حضارتنا وغيرها من الحضارات..

فما أسهل أن ينحاز البعض إلى قوقعة العزلة والانغلاق.. وما  
أسهل أن ينخرط البعض فى موكب التبعية الفكرية الذليل..

ومن هنا كان «التجديد» للموروث.. و«التطوير» للخصوصية..  
ودعمهما بعوامل القوة التى أثمرتها إبداعات الحضارات الأخرى..  
هو الميدان الحقيقى للجهاد الأكبر الذى يجب ويجب على كل قادر  
على الإسهام فى هذا الجهاد بنصيب.. قل أو جل هذا النصيب!

ولنتذكر دائماً أن «التجديد» من خلال مشروع حضارى  
متميز، هو السبيل إلى النهضة والقوة.. على حين كان ولا يزال  
«التحديث على النمط الغربى» - وهو فى جوهره «تبعية» -  
السبيل إلى بقائنا هامشاً ملحفاً بـ «مركز التحدى» الغربى!

(١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٢٢٧، ٢٢٨.

فلنتأمل- ونسحن نختم هذه الصفحات عن [الاستقلال  
الحضاري] - كلمات الرجل الذي ارتاد لفكرنا ونضالنا هذا الطريق  
في عصرنا الحديث.. كلمات جمال الدين الأفغاني التي تقول:

«إن تهوؤنا وتمدننا إذا لم يؤسس على قواعد ديننا وقرآننا  
فلا خير لنا فيه.. ولا يمكن التخلص من وصمة انحطاطنا  
وتأخرنا إلا عن هذا الطريق.. وإن ما نراه اليوم من حالة ظاهرة  
حسنة فينا (من حيث الرقي والأخذ بأسباب التمدن) هو عين  
التقهقر والانحطاط: لأننا في تمدننا هذا مقلدون للأمم الأوربية،  
وهو تقليد يجرتنا بطبيعته إلى الإعجاب بالأجانب، والاستكانة  
لهم، والرضا بسلطانهم علينا. وبذلك تتحول صبغة الإسلام،  
التي من شأنها رفع راية السلطة والغلب، إلى صبغة خمول  
وضعة واستئناس لحكم الأجنبي»<sup>(١)</sup>.

## المصادر

- ابن أبي الحديد [شرح نهج البلاغة] تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم - طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩م.
- ابن باديس [كتاب آثار ابن باديس] طبعة الجزائر سنة ١٩٦٨م.
- ابن رشد (أبو الوليد): [فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال] دراسة وتحقيق: د. محمد عمار - طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢م.
- ابن عبد الوهاب: [رسالة هدية طيبة].
- [رسالة هذه مسائل الجاهلية]
- منشورة ضمن [مجموعة التوحيد] طبعة المكتبة السلفية - القاهرة.
- ابن القيم [إعلام الموقعين] طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م.
- أحمد صدقي الدجاني (دكتور) [الحركة السنوسية] طبعة بيروت سنة ١٩٦٧م.
- أمين سامي باشا. [تقويم النيل] طبعة القاهرة سن ١٩١٦م.
- الجبرتي [عجائب الآثار في التراجم والأخبار] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨م.
- جمال الدين الأفغاني: [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: د. محمد عمار - طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م - وطبعة بيروت سنة ١٩٧٩م.
- حسن العطار. [حاشية العطار على جمع الجوامع] طبعة القاهرة سنة ١٣١٦هـ.
- صفى الدين البغدادي [عراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع] تحقيق: علي البيجاوي - طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥م.
- الطبطبائي (رفاعة رافع) [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: د. محمد عمار - طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م.
- عبد الكريم الخطيب [الدعوة الوهابية] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٤م.
- علي سامي النشار (دكتور): [مناهج البحث عند مفكرى الإسلام] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧م.
- علي مبارك: [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: د. محمد عمار - طبعة بيروت سنة ١٩٨١م.



- عمر طوسون: [البعثات العلمية في عهد محمد علي، ثم في عهدي عباس الأول وسعيد] طبعة الإسكندرية سنة ١٩٣٤ م
- الغزالي (أبو حامد): [الاقتصاد في الاعتقاد] طبعة القاهرة - صبيح - بدون تاريخ.
- فليب دى طرازى: [تاريخ الصحافة العربية] طبعة بيروت سنة ١٩١٢ م.
- الكواكبي (عبد الرحمن): [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة - طبعة بيروت سنة ١٩٧٥ م.
- لو ثروب ستودارد: [حاضر العالم الإسلامي] ترجمة: عجاج نويهض - تعليقات: شكيب أرسلان - طبعة بيروت سنة ١٩٧١ م.
- محمد عبده (الإمام): [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة - طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م.
- محمد عبد الغنى حسن [حسن العطار] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م.
- محمد عمارة (دكتور): [العرب والتحدى] طبعة الكويت سنة ١٩٨٠ م.
- [الإسلام والعروبة والعلمانية] طبعة بيروت سنة ١٩٨١ م.
- [مسلمون ثوار] طبعة بيروت سنة ١٩٧٤ م.
- [العروبة في العصر الحديث] طبعة بيروت سنة ١٩٨١ م.
- [تيارات الفكر الإسلامي] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٢ م.
- محمد فؤاد عبد الباقي: [المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم] طبعة دار الشعب - القاهرة.
- المهدي (محمد أحمد): [منشورات المهدية] تحقيق: د. محمد إبراهيم أبو سليم - طبعة بيروت سنة ١٩٦٩ م.
- هانوتو (جابريل): [الإسلام والرد على منتقديه] مجموعة أبحاث - طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨ م.
- ونستك (أ. ي.): [المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الشريف] طبعة لندن ١٩٣٦ - ١٩٦٩ م.

## الفهرس

الموضوع	الصفحة
كلمة .....	٣
كلمات .....	٣
١- الاستقلال الحضارى .....	٧
مقدمات تمهيدية .....	٩
دعوات التجديد السلفية واستقلالنا الحضارى .....	٣٣
١- الوهابية .....	٣٥
٢- السنوسية .....	٤٤
٣- المهديّة .....	٥١
النهضة المصرية والاستقلال الحضارى .....	٦١
تيار الجامعة الإسلامية والاستقلال الحضارى ..	٨١
أعلام هذا التيار .....	٨١
والمناخ الذى تبلور فيه .....	٩٠
الموقف الوسطى (المتوازن) .....	٩٥
العروبة المتميزة فى المحيط الإسلامى .....	١٠٨
حضارة جديدة ومتميزة .....	١١٦
٢- الموروث.. والوافد .....	١٢٥
تاريخ القضية .....	١٢٧

١٣٣.....	تيارات ثلاث
١٤٧.....	الجديد فى حقبة السبعينيات
١٥١.....	قانون الاحتكاك الحضارى
١٦١.....	أى موروث؟.. وأى واقد؟
١٦٥.....	ما هى الهوية؟
١٨٣.....	التشكيك فى ثبات الهوية
١٨٧.....	التفاعل الحضارى
١٩٥.....	نحو مشروع حضارى متميز
٢٠١.....	٣- الأزهر والتغريب
٢٠٣.....	تمهيد
٢٠٨.....	الأزهر!
٢١٣.....	المقاومة بالمحافظة!
٢١٥.....	والمقاومة بالتجديد
٢١٧.....	الشيخ حسن العطار
٢٢٠.....	الشيخ رفاعه الطهطاوى
٢٢٤.....	الإمام محمد عبده
٢٣١.....	وبعد
٢٣٧.....	المصادر

## أحدث إصدارات

الفتاة الدكتور  
محمد عمارة

### ضمن سلسلة (فى التنوير الإسلامى)

- ٢٤ - السنة والبدعة
- ٢٥ - الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان.
- ٢٦ - تحليل الواقع فتنهاج العادات المزمعة.
- ٢٧ - القدس بين اليهودية والإسلام.
- ٢٨ - مازق المسيحية والعثمانية فى أوروبا (شهادة ألمانية).
- ٢٩ - السنة النبوية والعروة الإنسانية.
- ٣٠ - الحوار بين الإسلاميين والعلمانيين.
- ٣١ - مستقبلنا بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية.
- ٣٢ - السنة التشريعية وغير التشريعية.
- ٣٣ - شبهات حول الإسلام.
- ٣٤ - المستقبل الاجتماعى للأمة الإسلامية.
- ٣٥ - شبهات حول القرآن الكريم.
- ٣٦ - أزمة العقل العربى.
- ٣٧ - فى التحرير الإسلامى للمرأة.
- ٣٨ - روح الحضارة الإسلامية.
- ٣٩ - الغرب والإسلام اختراعات لها تاريخ.
- ٤٠ - السباحة الإسلامية.
- ٤١ - الشيخ عبد الوحيم النواكى هل كان علمانياً؟
- ٤٢ - أزمة الفكر الإسلامى المعاصر
- ٤٣ - إسلامية المعرفة ماذا تعنى؟
- ٤٤ - الإسلام وضرورة التغيير
- ٤٥ - النص الإسلامى بين التاريخية والاجتهاد والجمود
- ١ - الصورة الإسلامية فى عيون غربية
- ٢ - الغرب والإسلام.
- ٣ - أبو حيان التوحيدي.
- ٤ - ابن رشد بين الغرب والإسلام.
- ٥ - الاتضاء الثقافى.
- ٦ - التعددية.. الرؤية الإسلامية والتحديات الغربية.
- ٧ - صراع القيم بين الغرب والإسلام.
- ٨ - ٥. يوسف القرضاوى: المدرسة الفكرية والمشروع الفكرى.
- ٩ - عندما دخلت مصر فى دين الله.
- ١٠ - آخر كرات الإسلامى رؤية نقدية.
- ١١ - التهاج العقلى.
- ١٢ - النموذج الثقافى.
- ١٣ - تجديد الدلالي بتجديد الدين.
- ١٤ - التسويات والمشتبهات فى البيخطة الإسلامى الحديثة
- ١٥ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم
- ١٦ - التقديم والإصلاح بالتنوير الغربى  
أم بالتجديد الإسلامى ؟
- ١٧ - إسلامية الصراع حول القدس وفلسطين.
- ١٨ - الحضارات العالمية تدافع؟ أم صراع؟
- ١٩ - الحملة الفرنسية فى الميزان.
- ٢٠ - الأقليات الدينية والقومية تنوع ووحدة؟ أم تقنين واختراق؟
- ٢١ - مخاطر العولمة على الهوية الثقافية.
- ٢٢ - الغناء والموسيقى هل أم حرام؟
- ٢٣ - هل المسلمون أمة واحدة؟

## أحدث إصدارات

الأستاذ الدكتور  
محمد عمارة

إصدارات أخرى للدكتور / محمد عمارة

- \* معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام.
- \* القدس الشريف رمز الصراع وبوابة الانتصار.
- \* الوسيط في المذاهب والمصطلحات الإسلامية.
- \* الإسلام والتحديات المعاصرة.
- \* الإسلام في مواجهة التحديات.
- \* الإصلاح بالإسلام... معالم المشروع الحضاري.
- \* الغارة الجديدة على الإسلام (بروتوكولات قساوسة التنصير).
- \* الاستقلال الحضاري.

احصل على أى من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / CD)  
وتتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع، [www.enahda.com](http://www.enahda.com)





# الاستقلال الحضارى

■ يعالج هذا الكتاب قضية محورية، من خلال دراسات ثلاث، تمثل أقساماً ثلاثة فى هذا الكتاب:

- ١- الاستقلال الحضارى.. وماذا يعنى فى النهضة المنشودة لأمتنا.
- ٢- والعلاقة بين «موروثنا» العربى الإسلامى و«الواقع الغربى».
- ٣- ونموذج تطبيقى لهذه العلاقة، من خلال دراسة موقف واحدة من أعرق مؤسساتنا الفكرية والتعليمية - [الأزهر] -.. موقفه من «التغريب» و«الجمود» و«التجديد».

■ ووصولاً إلى الإسلام فى بلورة «معالم المشروع الحضارى» الذى ينير لأمتنا طريق الخروج من مأزقها الحضارى، يناقش هذا الكتاب عدداً من القضايا الفكرية الخلافية.. والشائكة:

- معالم الهوية العربية الإسلامية.. وموقعها من «الثبات» و«التغيير».
- والموقف من الحضارات الأخرى.. أهو «التفاعل» .. أم «التبعية»...
- أم «الانغلاق»؟

■ إنها «معالم النهضة» .. و«دليل عمل» للإقلاع الحضارى .. يحاول أن يقدمها هذا الكتاب.

الناشر



6 221133 430430

